" أحمد باشا الجزار والي صيدا "

(١٧٧٦ - ١٨٠٤)

إعـــداد

صـالح علي الشورة

المشرف

الأستاذ الدكتور : علي محافظة

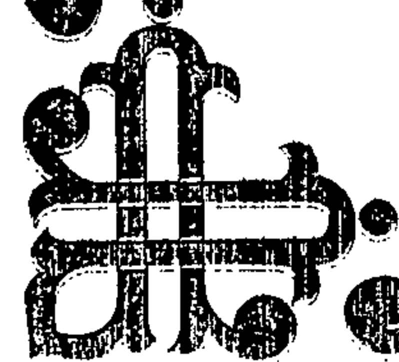
قدمت هذه الرسالة

استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في التاريخ

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

حزيران - ١٩٩٨



نوقشت هذه الرسالة واجيزت بتاريخ ٢٠/٦/١٩٩٨م.

اعضاء لجنة المناقشة التوقيع

الاستاذ الدكتور : علي محافظة رئيساً

الاستاذ الدكتور : عبد الأمير أمين عضواً

الاستاذ الدكتور : محمد الريان عضوا

الدكتور : نوفان السوارية عضوا

الإهداء

أهدي هذا الجهد إلى أمي وأبي

أختي وأخواني.

علّه يكون موجة في بحر عطاياهم.

شكر وتقدير

تعلمنا من كتاب الله أن نتوجه له بالشكر فقال تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام " ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ". (النمل ١٩)

إجلالا للعلم والعلماء وامتثالا وعرفانا بالجميل أتوجه بالشكر إلى أستاذي الدكتور علي محافظة. الذي كان له فضل الإشراف على هذا البحث فقد عني به ورعاه وشجع عليه ورافق خطاه.

كما وأتوجه بالشكر الجزيل لأساتذتي الأجلاء :- الاستاذ الدكتور عبد الأمير أمين ، والاستاذ الدكتور محمد الريان، والدكتور نوفان السوارية لتفضلهم بقبول مناقشة هذا البحث.

وإحتراما للصداقة والإخاء أتوجه بعظيم إمتناني لكل الأخوة والأصدقاء اللذين ساهموا في مساعدتي للخروج في هذا البحث وأخص بالذكر : الأستاذ عاطف التميمي الذي منحني من وقته الثمين ما كان هو بحاجة إليه أكثر مني، والأستاذ خالد عبد الباري والأخ أمين حمود، لما بذلاه من جهد للوصول وإياي إلى المصادر الهامة المتعلقة بالبحث، والشكر الجزيل للدكتور عطيه الغول والأخ مهند بهجت الشيشاني اللذان عنيا بمراجعة هذا البحث وتدقيقه وطباعته.

كما واتقدم بالشكر إلى رئيس وأعضاء وموظفي بلدية الزرقاء لما قدموه لي من معاملة طيبة.

وإني لأتمنى من الله العلي القدير أن يكون هذا البحث عونا لمن أراد العون وخير زاد لكل طالب جاد.

والله من وراء القصد.

فهرس المحتويات

الفصل الثاني

سياسة الجزار في الحكم وعلاقته بالدولة العثمانية والقوى الأخرى المجاورة

الفصل الثالث

حملة نابليون على عكا ودور الجزار في صدها

الفصل الرابع

التنظيم الإداري والعسكري عند الجزار

الفصل الخامس

سياسة الجزار الاقتصادية

الملاحق

١- صورة لأحمد باشا الجزار.

٢- فرمان من الدولة العثمانية موجه إلى الجزار تأمره بمحاربة الفرنسيين.

٣- صورة تعميم موجه من الجزار إلى حكام المقاطعات التابعة له يعلمهم به : أن الدولة أوكلت إليه مهام حكم مصر.

٤- خارطة توضيحية للتقسيمات الادارية لولاية صيدا.

٥- خارطة توضيحية للسناجق الجنوبية لولاية دمشق.

قائمة المختصرات التي وردت في البحث

أ - المختصرات العربية	ب - المختصرات الأجنبية
ب. ت : بدون تاريخ.	P : Page
ب. م : بدون مكان نشر.	Vol : Volume
ب. ن : بدون ناشر.	II : 2
ت : توفي.	E.I : Encyclopedia of Islam.
ج : جزء.	P.E.F.Q.S : Palestine Exploration Fund Quarterly Statcment.
ص : صفحة.	
ط : طبعة.	
كم : كيلو متر.	
م : ميلادي.	
مج : مجلد.	
هـ : هجري.	

الملخص

" أحمد باشا الجزار والي صيدا (١٧٧٦-١٨٠٤) "

إعداد : صالح علي الشورة　　　　إشراف الأستاذ الدكتور : علي محافظة

في أحيان كثيرة يرتبط تاريخ شعب من الشعوب بشخص ما، ويعود هذا الارتباط لأهمية هذا الشخص ودوره الفاعل في بلورة الاحداث، وتأثيره المباشر في شتى نواحي حياة ذلك الشعب. فبالنظر إلى تاريخ بلاد الشام، وبصورة خاصة إلى الجنوب الغربي منه في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، نجد أن الاحداث السياسية قد تركزت في شخص الجزار، لدوره الكبير الذي قام به في منطقة بلاد الشام. الامر الذي اغضب الدول الكبرى لا سيما فرنسا، ومن ثم هزيمتها عسكرياً امام اسوار عكا. لذا جاء هذا البحث للتعرف على شخصية الجزار والالمام بجميع جوانبها المختلفة.

فقسمت بحثي إلى مقدمة تضمنت دراسة تحليلية لبعض المصادر والمراجع التي استعنت بها في هذا البحث ثم خمسة فصول وخاتمة.

بحث الفصل الأول في نشأة الجزار وحياته وظروف وصوله للحكم في ولاية صيدا. فبدأ الحديث عن الظروف المحيطة بالدولة العثمانية قبل ظهور الجزار، وايضاً عن ولاية صيدا والقوى السياسية المتواجدة فيها، وكذلك استعراض مراحل وصول الجزار إلى الحكم.

تناول الفصل الثاني سياسة الجزار في الحكم وعلاقته بالدولة العثمانية والقوى الأخرى المجاورة. فأشار إلى سياسة الجزار العامة في الحكم وعلاقته بالدولة وحكام مصر، وثورة مماليكه ضده، وبعد ذلك اخذ الحديث عن علاقة الجزار بالقوى المتنفذه بالمنطقة.

افرد الفصل الثالث للنظر في حملة نابليون على عكا ودور الجزار في صدها. فتتبع جذور التفكير بالحملة الفرنسية وأهدافها وانطلاقها، وتنظيمها ومن ثم فشلها امام اسوار عكا وقوات الجزار.

خصص الفصل الرابع للنظر في دارسة التنظيم الاداري والعسكري عند الجزار. فتم استعراض التنظيم لولاية صيدا وتوابعها، وولاية دمشق وتوابعها. وتخلل ذلك الحديث عن الجهاز الاداري عند الجزار. ومن ثم استعراض التنظيم العسكري من عناصر اساسية لقوة الجزار وشخصية هذه القوات ومرتباتها، واعطاء صورة تنظيمية لجيش الجزار.

عالج الفصل الخامس سياسة الجزار الاقتصادية. فبحث في التطور الاقتصـــادي للمــدن السورية في عهد الجزار وفي السياسة المالية له. واستعرض الزراعة في عهده. ثم تطرق إلـــى الحديث عن التجارة خاصة تجارة الفرنسيين مع المناطق التي خضعت لحكم الجزار.

انهي البحث بخاتمة تضمنت اهم النتائج التي توصلت اليها، بالاضافة إلى الاشـــارة إلـــى اعمال الجزار العمرانية ونهايته.

المقدمة

إن دراسة شخصية مثل شخصية أحمد باشا الجزار، الوالي العثماني، الذي حكم ولاية صيدا من سنة ١٧٧٦-١٨٠٤م. لهي دراسة مهمة في سلسلة البحث في تاريخ الدولة العثمانية، في بلاد الشام. ومع أن هذا البحث يركز على دور أحمد باشا الجزار في الحياة السياسية في القرن الثامن عشر، بشكل فردي، وعلى ولاية صيدا التي حكمها. إلا انه في الوقت نفسه، لم يهمل دور الجماهير التي واكبت سير التطورات التي المت بالمنطقة، حيث كان لها دور في بلورة الأحداث السياسية فيها.

يشكل حكم الجزار قيمة جغرافية في تأسيس دولته العسكرية في الاراضي الفلسطينية، والانطلاق الاقليمي منها براً وبحراً، سياسة، واقتصاداً قوياً مقارنة بما كانت عليه اوضاع بقية المناطق من بلاد الشام. فقد بدأ حكم الجزار ليغطي بنمطه العسكري، ما تبقى من حقبة القرن التاسع عشر، وهي الظاهرة التي ستفتحها وفاة الجزار سنة ١٨٠٤م، والتي ستؤدي إلى ازمة الحكم التي عالجتها الدولة العثمانية من خلال فرض نظام المركزية الادارية المباشر.

بالرغم من اهمية شخصية الجزار، واهمية دورها في سير مجريات احداث التاريخ، خاصة بما يتعلق ببلاد الشام العثمانية، إلا انها لم تلق الاهتمام والدراسة الوافية، والشاملة بصورة اكاديمية متخصصة. لذا وقع اختياري على دراسة هذه الشخصية والالمام بجوانبها المختلفة، واماطة اللثام عما قامت به من اعمال سياسية، وادارية، وعسكرية، واقتصادية، إضافة إلى دورها البارز في التصدي للحملة الفرنسية. والقاء الضوء على التحركات الواسعة للقوى السياسية التي كانت ترافق حكم الجزار.

ولا بد هنا من الاشارة إلى بعض العقبات التي واجهتها اثناء اعدادي لهذا البحث، ولكن تم التغلب عليها بفضل الله، وبفضل مساعدة استاذي الفاضل الدكتور علي محافظة، هذا بالإضافة إلى المساعدات الكثيرة التي قدمها بعض الاصدقاء، الذين لم يألوا جهداً بذلوه، حتى استطعت الخروج بهذا البحث.

واذكر اهم هذه العقبات : قلة المصادر التي تناولت بعض جوانب البحث في المكتبات الأردنية والتي اضطرتني إلى التوجه إلى المكتبات العربية، خاصة في بيروت، إضافة إلى الصعوبات التي واجهتها في قراءة المخطوطات، والوثائق، وسجلات المحاكم الشرعية، لسوء تصوير النسخ الموجودة وعدم وضوحها. هذا إلى جانب اضطراري لترجمة بعض النصوص التي كتبت بالانجليزية والفرنسية والتي كانت ضرورية للبحث.

اعتمد البحث على اتباع الطريقة المنهجية العلمية في كتابة التاريخ، فعمد إلى النقد، والتحليل، ومقارنة الروايات بعضها ببعضها الأخر في محاولة للوصول إلى تثبيت الحقيقة،

محاولاً تجنب التحيز، والالتزام بالموضوعية ما امكن، لا سيما أن موضوعه كان يتأرجح بين مؤيد ومعارض، فعملت جاهداً للوصول إلى الحقيقة من وسط زيف البهارج الشكلية التي اتسمت بها الروايات المتناثرة في المصادر.

وقد سلكت في هذا البحث، طريقاً بعيداً عن التكلف، والكتابة البلاغية على طريقة السجع، بل آثرت البساطة في التعبير، والوضوح في العبارة، بحيث يؤدي مهمته لإيصال الفكرة التي ابتغيها، لان الفكرة بحد ذاتها هي الهدف والغاية.

وعمدت إلى شرح بعض المصطلحات التي مررت بها، تعبيراً عن الاحساس بأهمية هذه المصطلحات، بينما مررت سريعاً بأحداث ووقائع أخرى، رغم ضرورة الاشارة اليها ولو من باب التسجيل.

قسم هذا البحث إلى مقدمة، تضمنت دراسة تحليلية لأهم المصادر والمراجع وخمسة فصول وخاتمة احتوت على اهم نتائج البحث مع الاشارة إلى ما خلفه الجزار من اثار ونهايته.

- بحثت في الفصل الأول في نشأة الجزار، وحياته، وظروف وصوله لحكم ولاية صيدا. وهذا ادى إلى النظر في اوضاع الدولة العثمانية على الصعيدين الخارجي والداخلي، قبل ظهور الجزار. وفي ولاية صيدا وانشائها، والقوى السياسية التي كانت متنفذه فيها عند بروز الجزار.

- تناول الفصل الثاني سياسة الجزار في الحكم، وعلاقته بالدولة العثمانية، والقوى الأخرى المجاورة. فاشار إلى سياسة الجزار العامة في الحكم، باستعراض علاقته بالدولة العثمانية، وعلاقته بحكام مصر، وتطرق إلى البحث في ثورة مماليك الجزار ضده، والنظر في علاقة الجزار بالقوى البدوية، وولاة دمشق، واستعراض علاقته بالشهابيين والمتاولة.

- افرد الفصل الثالث للنظر في حملة نابليون على عكا ودور الجزار في صدها، فأخذ يبحث بالحملة الفرنسية على الشرق، وذلك بدراسة جذورها، واهدافها، وانطلاقها، وعلاقة الجزار بالفرنسيين، واشار إلى تنظيم الحملة، وزحف الجيش الفرنسي إلى عكا، ومحاصرته اياها. ثم تطرق إلى ظروف مجريات الحصار، واسباب فشل الفرنسيين في احتلال عكا.

- خصص الفصل الرابع للنظر في دراسة التنظيم الاداري، والعسكري في عهد الجزار، فتم الحديث عن التنظيم الاداري لولاية صيدا، وتوابعها. والنظر في الجهاز الاداري نفسه. ومن ثم تحدث عن إدارة ولاية الشام وملحقاتها. ثم استعرض التنظيم العسكري عند الجزار بالبحث في العناصر الاساسية لقوته، وشخصيتها، واعدادها، والاسطول الذي انشأه. ثم اتجه إلى الحديث عن مرتبات الجند واعطاء صورة تنظيمية لجيش الجزار.

- عالج الفصل الخامس سياسة الجزار الاقتصادية. فبحث في التطور الاقتصادي للمدن السورية في عهد الجزار، وفي سياسته المالية والاقتصادية والاحتكار الذي اوجده. ومن ثم انتقل للحديث عن الزراعة والفلاحين. واستعرض النشاط التجاري للجزار، سواء الداخلي او الخارجي،

مما أدى إلى البحث في جذور التجارة الاوروبية في المنطقة، خاصة التجارة الفرنسية. وتناول أنواع المبادلات التجارية بين أوروبا والمدن التي خضعت لحكم الجزار. واشار في النهاية إلى الصناعة في عهد الجزار.

- انهي البحث بخاتمة تضمنت اهم النتائج التي توصلت اليها، وتمت الاشارة إلى ما تركه الجزار من أثار، اضافة إلى نهايته.

تحليل بعض المصادر والمراجع المهمة للدراسة

- اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع، كانت من الأسباب في ظهوره بهذا الشكل، وتجدر بي الاشارة هنا إلى القول : أن معظم المصادر التي تناولت موضوع البحث، كانت من المصادر غير السنية. وان ظهر فيها بعض المصادر السنية، فإن اغلبها كانت عاملية (شيعية) لذلك شكل غياب الرواية السنية التوافق بين معظم الروايات خاصة في ماهية شخص الجزار.

- حيدر أحمد الشهابي - لبنان في عهد الأمراء الشهابيين.

هو الأمير حيدر ابن الأمير احمد ابن الأمير حيدر الشهابي. ولد في ٢١ شباط سنة ١٧٦١م في ديرالقمر، وتوفي سنة ١٨٣٥م. وكان في حياته كثير التنقل في جميع انحاء لبنان، إذ كان الأمير بشير الكبير يكلفه بعض المهام الإدارية، أو الحربية، أو السياسية. وكان لذلك الأثر الكبير في تدوين تاريخه، لا سيما الأحداث التي عاصرها أو شاهدها. وأهم مؤلفاته " الغرر الحسان في أخبار ابناء الزمان " و " تاريخ أحمد باشا الجزار ".

يعتبر كتاب لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، عبارة عن الجزئين الثاني، والثالث من الغرر الحسان. وهو يقع في ثلاثة أجزاء. وما يهم هذا البحث هو الجزء الأول والثاني. حيث يتحدث عن قدوم الجزار إلى المنطقة، واستيلائه على بيروت. ومن ثم تعيينه والياً على صيدا، وعلاقته بالولاة خاصة من كان منهم من آل العظم، وعلاقته بالقوى الأخرى التي تواجدت في المنطقة. ويبدي بعض الاشارات إلى سياسة الجزار الإدارية، والاقتصادية، والى القوة العسكرية التي وجدت في كنفه. وتحصين عكا من قبل الجزار، واحتكاره للتجارة، وطرده للفرنسيين، والحملة الفرنسية على عكا، وانسحابها من فلسطين. وموقف الجزار من الدولة، وصراعه مع أبي مرق، وحصاره قلعة سانور، ومن ثم وفاة الجزار.

- تاريخ أحمد باشا الجزار.

يتناول هذا الكتاب سيرة أحمد باشا الجزار. فيتحدث عن حياة الجزار بصورة مفصلة اكثر من باقي المصادر. من حيث نشأته، واخلاقه، وعاداته، وتقلبه في خدمة المماليك والأمراء

والدولة. وما جرى في عهده من حروب، وحوادث في لبنان، وسوريا، ومصر، وما ارتكبه من جرائم ومظالم تجاه موظفيه، ووجهاء المناطق التي خضعت له وسكانها.

يتبع الشهابي في المؤلفين السابقين، نظام الحوليات في الكتابة، أي ترتيب الحوادث في إطار زمني، وفقاً للسنين والشهور والأيام، الشائع عند الكثير من المؤرخين في الفترة المعنية. وكان محور التركيز في روايات الشهابي على علاقة الجزار بالشهابيين.

تظهر أهمية هذين الكتابين في موضوع البحث، أن اخبارهما مأخوذه من مذكرات الأمير الخصوصية، ومن الفرمانات الرسمية، التي كانت تدور بين ولاة جبل لبنان، والباب العالي، وولاة صيدا، ودمشق وطرابلس. ومن اقوال المؤرخين، كالمنير، وروفائيل كرامة، ونقولا الترك وغيرهم.

أورد الشهابي في مؤلفاته، وثائق تاريخية مهمه، مثل : فرمان الدولة العلية إلى الجزار الذي تأمره به بمحاربة الفرنسيين وفرمان من السلطان سليم إلى جميع اهالي البلاد للوقوف في وجه الفرنسيين. وفرمان من يوسف باشا إلى الجزار للمعنى ذاته. والمراسلات التي تمت بين الأمير بشير الشهابي والأميرال سدني سميث، وغير ذلك من الوثائق المهمة. ويؤخذ على ماروإه الشهابي عدم الثقة في تأريخ بعض السنوات مثل سنة تولي الجزار لحكم ولاية صيد[1] وعلاقته بالمتاولة، واضطراب بعض الروايات لديه، مما يوجب الانتباه عند تناول روايات الشهابي.

- حنانيا المنير - الدر المرصوف في تاريخ الشوف.

ولد حنانيا المنير في سنة ١٧٥٧م، ويعالج في كتابه ما حدث في الرهينة أولاً، ثم ما حدث في الشوف ثانياً، وما حدث في المنطقة ووصل إلى مسامعه ثالثاً، ويدون المنير أخباره على طريق الحوليات، ويروي ما شاهده شخصياً.

دخلت روايات المنير في هذا البحث، من خلال تناوله علاقة الجزار بظاهر العمر، وتعينه والياً على عكا وصيدا، وتحصين الجزار لعكا، واضطهاده للمتاولة، وتوسيع نفوذه من القدس حتى حمص. وكتابته عن علاقة الجزار بالأمراء الشهابيين، وتمرد مماليكه ضده، وحصاره لقلعة سانور، ومظالم الجزار للرعية وأخبار الحملة الفرنسية، وموقف الأمير بشير من الجزار وبونابرت.

جاءت كتابة المنير مشابهة لكتابة الشهابي، من حيث طريقة سرد الأحداث وتركيزه على سيرة الجزار من خلال علاقته بالشهابيين أكثر من غيرهم.

- الجبرتي - تاريخ عجائب الأثار في التراجم والأخبار.

---

(١) الشهابي - تاريخ الجزار، ص ٧١.

ولد عبد الرحمن الجبرتي في سنة ١٧٧٥م بالقاهرة، وكان من علماء الأزهر، وتحرى الدقة في كل ما قاله وتوفي الحق ما امكن أن يتوفاه المعاصر للحدث فهو يقول : " لا أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة أمير أو وزير، ولم اداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرق جسماني "(١).

جاء كتاب الجبرتي في ثلاثة أجزاء، تحت " مقدمة عن تاريخ مصر منذ ضعف الخلافة العباسية ". ثم بدأ بذكر حوادث مصر منذ بداية سنة ١٦٨٩م. واتبع الجبرتي منهج الحوليات فهو يذكر حوادث كل سنة ومن توفي فيها من الأعيان والعلماء.

يتناول الجبرتي حياة الجزار في مصر، وتقليه المناصب فيها، ويذكر بعض صفات الجزار. ويركز حديثه على الحملة الفرنسية إلى مصر، ومن ثم توجهها إلى عكا ودور الجزار في صدها.

تكمن أهمية روايات الجبرتي في أنه شاهد عيان في تلك الفترة. بحيث يكتب ما شاهده أو سمع به من أحداث.

- العورة- تاريخ ولاية سليمان باشا العادل.

عمل إبراهيم العورة بمهنة رئيس كتاب ديوان ولاية صيدا، في عهد سليمان باشا العادل، خلف أحمد باشا الجزار، وكان من المقربين له.

يعتبر العورة شاهد عيان لأكثر الحوادث التي ذكرها، كما انتقى الكثير من المعلومات الأخرى من أبيه وخاله اللذين كانا قبله في ديوان ولاية صيدا، ومن الوالي سليمان باشا نفسه. وهذا يعني أن المؤلف وقف على الكثير من الحوادث التي ذكرها في كتابه وعرف اسبابها، ونتائجها.

اتبع المؤلف النظام التقليدي في كتابة التاريخ في تلك الفترة وكتب على طريقة نظام الحوليات. وشمل كتابه تاريخ سوريا، وفلسطين، ولبنان. وتضمن سجلات ديوان ولاية صيدا، التي كانت بين يديه.

تحدث العورة عن أعمال الجزار في ولاية صيدا، عن أعماله السياسية، وعلاقته بالمتاولة، وعلاقته بعماله، وتنكيله لهم. ومظالم الجزار للرعية، خاصة النصارى واليهود، وعلاقته بالشهابيين وثورة مماليكه ضده. وتحدث أيضاً عن الحملة الفرنسية على عكا، كما تناول بعض من جوانب الحياة الاقتصادية فيها واحتكار الجزار للتجارة، واشار إلى وفاة الجزار.

- حيدر رضا الركيني- جبل عامل في قرن (مجلة العرفان).

---

(١) الجبرتي- عجائب، ج ١، ص ٣.

هو حيدر رضا على الركيني ولد سنة ١٧١١م وتوفي سنة ١٧٨٤م، وقام ابنه باكمال مصنف والده بعد وفاته حتى سنة ١٨٣٠م. واستخدم الركيني في عرضه للمادة التاريخية، منهج الحوليات الشائع أنذاك. حيث تتضمن ما دونه من معلومات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وعسكرية. وكان تركيزه الأكبر منصباً على حوادث جبل عامل، واخبار المتاولة. وأهميته بالنسبة للبحث تكمن في شرحه الوافي عن المتاولة، لا سيما بحثه في أصولهم، ووجودهم في المنطقة، وعلاقتهم بالجزار، وقضائه عليهم في معركة يارون، ومن ثم القضاء على زعمائهم. وبعد ذلك يستعرض الركيني علاقات الجزار فيمن تبقى من المتاولة في جبل عامل.

- عبد اللطيف فتح الله- ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله.

هو محمد عبد اللطيف فتح الله من مواليد " محروسة بيروت "، ولد سنة ١٧٧٦م وتوفي سنة ١٨٤٤، درج أهله أن يكون منصب الافتاء فيهم منذ زمن. وكان عبد اللطيف بطبعه يميل إلى الشعر، ويلتذ به ويطرب لسماعه، وتنقل كثيراً والتقى علماء عصره، ويأخذ منهم، وامضى وقتاً طويلاً من حياته في دمشق، بطلب العلم فيها. وبعدها عاد إلى موطنه بيروت، حيث تولى منصب الافتاء فيها سنة ١٧٩٤م. لذلك فإن ديوان المفتي عبد اللطيف جاء بلغة قوية سليمة، تنم عن علم وفير وسعة في الإطلاع.

نظراً لمهنة عبد اللطيف في الافتاء في بيروت فإنه ارتبط بالسلطة من الناحية الادارية في عهد الجزار، فكان قريباً من الأحداث التي ألمت بالمنطقة، وعبّر عنها عن طريق نظم القصائد الشعرية، وكان يتحرى الصدق فيما يروي من أخبار، ويعمل على نقلها كما هي دون تحيز لأي جهة كانت، فترد له قصائد كثيرة يشكر فيها خالقه ومعدداً نعمه عليه بحفظ جوارحه من ارتكاب أية شائنة، حيث يقول :

علي أنعمت جوداً ومنة ۰ وإني لم اترك لشكرك مذهبا
ملكت بإنعام علي ثلاثة لساني واعضائي وقلبي المحجبا[1]

كتب المفتي عبد اللطيف ديوانه الشعري من خلال ما وقع بين يديه من وثائق، وما شاهده، أو وصل إلى مسامعه، واختلف عن غيره بوجهة نظره تجاه شخصية الجزار فقد كان مادحاً له في حياته، ورائياً له بعد مماته. واطلق عليه القاباً كثيرة منها المجاهد، والملك، والغازي وغيرها. وتحدث عن بعض رجالات الجزار وعن صده للفرنسيين، وأرخ وفاته بالشعر

- كان لهذا البحث الأطلاع على بعض المصادر الأجنبية التي تحدثت عن موضوعه وأهمها كتب الرحالة، ومنهم

Volney, Travels Through Syria And Egypt.

وهو فرانسوا شاميبوف المعروف بلقب كونت دو فولني أو اختصاراً " فولني "

[1] فتح الله- ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله، ج ١، ص ٢٩.

Constantin- Francois Chasseboeuf Comte de Volny.

كان فولني في الخامسة والعشرين من عمره، حيث بدأ رحلته في مصر، ثم انتقل إلى بلاد الشام، مبتدئاً بحلب، واستغرقت رحلته إلى المنطقة ثلاث سنوات.

سجل فولني كل ما شاهده، وسمعه في المنطقة. ولم تقتصر ملاحظاته على ناحية دون أخرى، بل كان يسجل ويؤرخ لجميع النواحي، سواء السياسية، أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو العمرانية، وما دخل ضمن هذا البحث كان معظمه من الجزء الثاني المكتوب باللغة الانجليزية. حيث تحدث فيه الرحالة عن الحياة المدنية والريفية في عهد الجزار، وتحث عن سياسة الجزار في الحكم، وعلاقته بالقوى الأخرى المجاورة، كما تحدث ايضاً عن عكا، وازدهارها زمن الجزار، وعن حياة التجار الفرنسيين فيها. وتحدث ايضاً عن الهجرات التي تحدث باتجاه عكا. واشار إلى احتكار الجزار وعن اجراءاته التي اتخذها ضد التجار الاجانب، وبخاصة الفرنسيين منهم.

- اطلع البحث ايضاً على تقارير القناصل الفرنسيين، ونوابهم التي جمعت من قبل منير وعادل إسماعيل تحت عنوان الوثائق الدبلوماسية فيما يخص تاريخ لبنان.

Ismail, Documents et consulaires Relatif Al, Histoir du Liban.

كان لتقارير القناصل الفرنسيين ونوابهم في صيدا، اسهام كبير في هذا البحث، وتكمن اهمية هذه التقارير في أنها رُفعت من قبل القناصل ونوابهم الذين رافقوا احداث فترة البحث. وقد تناولت هذه التقارير معلومات هامة عن النواحي السياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وكانت تركز كثيراً على الدور الفرنسي في المنطقة بشتى المجالات.

نشرت مجموعة كبيرة مختارة من هذه التقارير فيما يخص تاريخ لبنان في اثنى عشر مجلداً بنصها الفرنسي تحت العنوان السابق، وترجم كل من منير وعادل إسماعيل جزءاً كبيراً من هذه التقارير إلى اللغة العربية تحت عنوان " تاريخ لبنان الحديث، والصراع الدولي حول المشرق العربي (الوثائق الدبلوماسية) ".

دخلت هذه التقارير في موضوع البحث من خلال حديثها عن الاوضاع العامة في لبنان خاصة، وبلاد الشام عامة في عهد الجزار. وعن اخلاق الجزار، وعن طرده للتجار الفرنسيين من صيدا وعكا. واكثرت من الحديث عن تجارة الفرنسيين في بلاد الشام، وعن انواع المبادلات التجارية بين التجار الفرنسيين والمناطق التي خضعت لحكم الجزار. وغير ذلك من الأمور التي كان لها صلة مباشرة بموضوع البحث.

أطلع البحث على الكثير من المراجع الحديثة، كان لها فضل كبير في الاضافة على الكثير من الأمور المتعلقة بموضوعه وهذه أمثلة لبعض هذه المراجع باللغتين العربية والانجليزية.

- ادوار لوكروى- الجزار قاهر نابليون.

يبحث لوكروى في حياة الجزار منذ نشأته حتى وفاته، وقد ركز في تناوله للموضوع على الحياة السياسية في عهد الجزار خاصة في ولاية صيدا.

يتناول لوكروى شخصية الجزار منذ صباه، وانتقاله إلى مصر، ومن ثم وصوله إلى حكم ولاية صيدا. كما تناول علاقته بالقوى الأخرى المجاورة، وعلاقته بالفرنسيين. ولكن التركيز الاكثر عند الباحث كان منصب على تناول سيرة الجزار الذاتية، وصده لحملة نابليون. وتجاهل الكثير من الأمور المهمة في عهد الجزار كالاقتصاد، والادارة وغيرها من المواضيع التي وردت في البحث. ورغم أهمية هذا الكتاب في موضوع هذا البحث إلا انه يفتقد إلى التوثيق الدقيق، والمنهجية الأكاديمية، كما انه بحاجة إلى الدقة في تأريخ الأحداث.

- عبد الغني عماد- السلطة في بلاد الشام.

تكمن أهمية هذا الكتاب في أنه تناول الأمور السياسية، والإدارية في الولايات التابعة للدولة العثمانية، وكان يتحرى الباحث اتباع التوثيق الدقيق في إيراد المعلومة.

تحدث الباحث في هذا الكتاب عن الإطار السياسي العام في ولايات الشام، وبالتالى تناول سياسة الحكم في ولاية صيدا في عهد الجزار، كما تحدث عن العصبيات، والأسر المحلية وعلاقتها بالجزار. وعن سياسة الجزار في الحكم، وعلاقته بالدولة، واشار إلى الحياة العسكرية في بلاد الشام، والقوات العسكرية المتنوعة التي وجدت عند الجزار.

- عبد الكريم رافق- بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦-١٧٩٨م.

تناول الباحث في بعض الفصول من كتابه. الحياة السياسية، والعسكرية في عهد الجزار وصراعه مع ظاهر العمر، قبل تسلمه حكم ولاية صيدا، وعصيانه في بيروت. وعن علاقته بالقوى المجاورة، خاصة بولاة الشام. كما تحدث عن انتقال الجزار إلى عكا للإقامة فيها، والاصلاحات التي رافقة حكمه لهذه المدينة، وصده للفرنسيين عنها. ويمتاز الكتاب بأنه موجز، وغير شامل، باعتبار أن الباحث تناول في دراسته فترة طويلة. وتكمن أهمية الكتاب، في أن المؤلف اطلع على مصادر متنوعة في ايراد المعلومات، وركز على تقارير القنصلية في صيدا.

- من اهم المراجع الأجنبية التي اعتمدها البحث.

Amnon Cohen, Palestine in the 18th Century.

يعالج هذا الكتاب الجوانب السياسية، والعسكرية، والادارية، والمالية لفلسطين، في عهد كل من ظاهر العمر والجزار. فتحدث عن ولاية صيدا بشكل عام، وعن صيدا ومركزها عكا في

عهد الجزار بشكل خاص. كما تحدث عن ولاية دمشق، وعن حكم الجزار لها. واشار الباحث أيضاً إلى السياسة المالية عند الجزار، وعن الحياة العسكرية في عهده.

تكمن أهمية هذا الكتاب باعتماد مؤلفه بدرجة كبيرة على السجلات المالية العثمانية غير المتوفرة، واستخدامه لتقارير القنصلية الفرنسية في صيدا، مما اعطاه الأهمية الكبيرة في هذا البحث.

الفصل الأول

نشأة الجزار وحياته وظروف وصوله لحكم ولاية صيدا

أولاً : نظرة في أوضاع الدولة العثمانية قبل ظهور الجزار.

أ - الصعيد الخارجي.

ب- الصعيد الداخلي.

ثانياً : ولاية صيدا.

أ - انشاء ولاية صيدا.

ب- القوى السياسية المتنفذه في صيدا عند بروز الجزار.

- الشهابيون.
- المتاولـــة.

ثالثاً : مولد الجزار ونشأته.

أ - تاريخ ولادته ومكانها.

ب- انتقاله إلى استانبول.

ج- حياته في مصر.

رابعاً : انتقال الجزار إلى الشام ومشاركته في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية.

أ - وصوله إلى الباب العالي.

ب- التقاؤه بالأمير يوسف.

ج- اشتراكه في الحرب ضد ظاهر العمر وعلى بك الكبير.

خامساً : حصار بيروت.

أ - تسليم بيروت للجزار.

ب- سيطرة الجزار على بيروت.

ج- تحالف الأمير يوسف مع الروس ضد الجزار.

د- قصف بيروت واخراج الجزار منها.

سادساً : استيلاء الجزار على ولاية صيدا.

أ - حملة حسن باشا الجزائري ضد ظاهر العمر.

ب- نهاية ظاهر العمر.

ج- تولية الجزار صيدا وتصفية النفوذ السياسي الزيداني.

أولا :- نظرة في أوضاع الدولة العثمانية قبل ظهور الجزار.

أ - الصعيد الخارجي :-

لقد بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها، في منتصف القرن السادس عشر، فاستطاعت أن تبسط سلطانها، ونفوذها على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، وتمد فتوحها من مكة المكرمة إلى بودابست من جهة، ومن بغداد إلى الجزائر، من جهة أخرى. فكان كل من الشاطئين، الشمالي والجنوبي للبحر الأسود، في قبضة يدها، كما ان جزءا من مملكة النمسا، والمجر الحالية ، يعترف بسلطانها، وقد دان لسلطانها أيضا، شمال افريقية من أطراف بلاد الشام إلى حدود بلاد مراكش.

إلا أن هذه العظمة، بدأت بالتراجع في القرن السابع عشر، وقد تعرضت الدولة العثمانية لهزائم عدة، انتهت بمعاهدة " كارلوفيتز Karlo Wits "، في ٢٦- كانون الأول-١٦٩٩، بين الدولة العثمانية، وبين النمسا وروسيا والبندقية وبولونيا، وترتب على ذلك خسائر إقليمية، للدولة العثمانية في أوربا، كانت نتيجة الانحدار الملحوظ، لصورة الدولة العثمانية، وهيبتها في نظر الأوروبيين، وفي نظر رعايا الإمبراطورية[١].

تعرضت الدولة العثمانية للهزائم العسكرية أمام النمسا، بين عامي (١٧١٦ -١٧١٧م) مما اضطرها إلى التخلي التدريجي عن المقاطعات الأوروبية، فكان انتصار العثمانيين على النمسا، في أواخر الثلاثينات من القرن الثامن عشر، الانتصار الوحيد المهم، الذي حققته الدولة بدعم من فرنسا. إذ فرضت الدولة العثمانية شروطها على النمسا، بموجب معاهدة بلغراد في ١٨- أيلول- ١٧٣٩م. والتي استردت الدولة بموجبها، مدينة بلغراد، وأراضي أخرى[٢]. ولم تعد النمسا تشكل خطرا على الدولة العثمانية، وأنهى صلح " سيستوفا Sistova " بينهما عام ١٧٩١م، قرنين ونصف ونيف من العداء[٣].

برزت روسيا كقوة كبرى، في الربع الأول من القرن الثامن عشر، فسعت إلى فتح أبوابها على البحار الدافئة، ودخلت من اجل ذلك، في صراع مع الدولة العثمانية، التي رفضت هذه المشاريع التوسعية الروسية[٤] .

---

(١) Cohen, Palestine, P. 1.

(٢) فريد-تاريخ الدولة العثمانية، ص، ١٤٥؛ موفق بني المرجة-صحوة الرجل، ص ٤٥.

(٣) Heyed, Ottoman, p. 345.

(٤) رافق- العرب والعثمانيون، ص ١١٧.

تجددت الاشتباكات بين الدولة العثمانية، وروسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، في عهد " كاترين الثانية Catherine II " (١٧٦٢-١٧٩٦) وبلغ الصراع ذروته، في الفترة الممتدة بين (١٧٦٨-١٧٧٤)، وقد انتهت هذه الحرب، التي كانت اكثر إنهاكاً من سابقاتها، بتوقيع معاهدة " كجك قينارجة Kueuk Kainarca " في تموز عام ١٧٧٤م، التي تخلت الدولة العثمانية بموجبها عن سيادتها على السكان التتار في القرم [١].

ضمت روسيا القرم إليها في سنة ١٧٨٣، وبذلك خسر العثمانيون، مناطق سكنها أتراك مسلمون[٢]، وتجدد القتال، بين العثمانيين والروس، في الفترة الممتده بين ١٧٨٧-١٧٩٢، وانتهى بصلح " ياسي Jassy " عام ١٧٩٢، وبموجب هذا الصلح، مدّت روسيا حدودها، حتى نهر الدنيستر، واصبح هذا النهر، منطقة الحدود بين الدولتين[٣].

وبالنسبة للجبهة الفارسية، فقد شهدت منذ الربع الأول من القرن الثامن عشر، تجدد القتال بين العثمانيين والحكام المتعاقبين في بلاد فارس، مثل الأفغانيين السنّة، الذين أطاحوا بالحكم الصفوي، في عام ١٧٢٢م، ونادر شاه، الذي تستر وراء الحاكم الصفوي الشرعي، وطرد الأفغانيين من الحكم، في عام ١٧٢٩، واستقل بحكم بلاد فارس، في عام ١٧٣٦[٤]، وظل هذا حتى مقتله (١٧٤٧م)، عدواً للعثمانيين، وعقدت الدولة معاهدات الصلح معه عدة مرات، لكنها سرعان ما كانت تلغى[٥].

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) استغلال الظروف السياسية، بعد توقيع معاهده ياسي مع روسيا، وانشغال الدول الأوربية، بمشاكل الثورة الفرنسية (١٧٨٩) فأصدر في سنتي ١٧٩٢-١٧٩٣، عدة قرارات، سميت بالنظام الجديد، لإصلاح الأوضاع العسكرية، والإدارية في الدولة. لكنه فشل بسبب مقاومة الإنكشارية له وعزله، في سنة ١٨٠٧م[٦].

---

[١] رافق- بلاد الشام، ص ٢٩٩.

[٢] المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

[٣] Heyed, Ottoman, P. P. 328- 338.

[٤] Rafeq, The province, P. P. 105- 106.

[٥] فريد- تاريخ الدولة، ص ١٤٧ ؛ رافق- العرب، ص ٢٢٩.

[٦] يني جرجي- تاريخ سوريا، ص ٤٣.

ب - الصعيد الداخلي :-

كانت الدولة العثمانية، تعاني من تدهور واضح على الصعيد الداخلي، فقد أدار شؤونها، سلاطين ضعاف، قليلو الخبرة، عديمو الكفاءة، غير قادرين على إدارة دفة الأمور[١].

وكان لتوقف الفتوحات العثمانية، الدور الأكبر، في إضعاف الخزينة العثمانية، وزاد الوضع المالي ضعفاً، تدفق الذهب والفضة، إلى بلاد البحر المتوسط، من العالم الجديد (أمريكا)، بواسطة المستعمرين الأسبان، الأمر الذي أدى إلى إرباك النقد العثماني، فسعت الدولة العثمانية، إلى عدة محاولات لرفع قيمة النقد المالي، لكنها فشلت[٢].

عملت الدولة العثمانية على البحث عن مصادر إضافية للدخل، فزادت الضرائب على الفلاحين، مما أدى إلى هروبهم من قراهم، فتدهورت الزراعة من جراء ذلك[٣].

إن إتباع نظام الإلتزام، قد ساهم في جمع الضرائب،وقد حل هذا محل الخدمة العسكرية، في نظام التيمار، (إقطاعة تعطي للجندي، مقابل تقديمه عدد من الفرسان) فالمخول يؤدي خدمات إدارية وعسكرية في مقابل الضرائب التي يتولى جبايتها من المنطقة المخصصة له. وتتمثل مهمة الأمانة في جمع الضرائب على يد أمين يسلم جميع المبالغ المحصلة للخزانة في مقابل راتب. أما في ظل الالتزام فيشتري الملتزم مقابل مبلغ محدد ولمدة سنة واحدة مقاطعة يتحمل فيها مهمات إدارية ويحتفظ بالفائض الناتج في نهاية الأمر. واصبح نظام الالتزام هو الأعم استخداماً منذ أواخر القرن السابع عشر. كما يتضح تدريجياً توطيد الإلتزام على أساس الإبقاء على الإمتياز الممنوح، مادام الملتزم يفي بواجباته تجاه الخزانة الإمبراطورية، وجرى تعميم هذا التطور في فلسطين وسوريا، تحت شكل المالكانة[٤]. الذي أدى بدوره إلى بروز الزعامات المحلية، والتي اكتسبت سلطتها وشرعيتها منه، والتي سعت إلى توسيع حدود التزامها، والدخول في صراعات محلية مع القوى المجاورة، أو مع ولاة الدولة، وعلى هذا النحو، فإن بروز هذه النزاعات، كان جزءاً من ضعف السلطة العثمانية[٥].

لقد انتشر الإعتماد على الرشوة، في الوصول إلى المناصب في الدولة، لذلك جاءت القيادات، فاقدة للكفاءة. كما طبق المزاد على الوظائف، فكان بقاء الموظفين في وظائفهم، يعتمد على بقاء الشخص الذي يدعمهم في استانبول قوياً، راضيا عنهم بدفع الرشاوي له، ولهذا استغل

---

(١) الدبس- تاريخ سوريا، مج ٤، ص ٣٧٣ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٢٩٧ .

(٢) رافق- بلاد الشام، ص ١٨٢ ؛ بني المرجة- صحوة الرجل، ص ٤٤.

(٣) **Volney, Travels, II, P. 24.**

(٤) مانتران- تاريخ الدولة،ج١، ص ٥٤٣.

(٥) فريد- تاريخ الدولة، ص ١٤١. **Volney, Travels, II, P. 24.**

الولاة، وكبار الموظفين مناصبهم، للثراء ولإرضاء السلاطين، فكثر تغير الـولاة، خـلال تلـك الفترة[1].

شهدت الولايات العربية، وغيرها من الأراضي، التابعة للدولة العثمانية، ظـهور قـوى محلية سياسية، نتجت عن ضعف الدولة العثمانية، تجاه الدول الأجنبية، وعن الصراع على النفوذ في استانبول، فتناقصت هيبة السلطة المركزية في الولايات، وعجزت عن تحقيق الأمـن. ممـا أتاح الفرصة، أمام ظهور حكام محليين، في كثير من الولايات العربية وغيرها في القرن الثـامن عشر.

فظهر في روميلية، والأناضول، أعيان محليون، سموا في الأناضول بإسم، " Derebeys " أي سادة الوديان، وكانوا من أصحاب الإقطاعيات وكبـار الملاكيـن، فـاعترفت الدولة بسلطتهم[2].

أما بالنسبة للولايات العربية، فقد ظهرت أسر محلية حاكمة، مثل آل العظم، فـي بـلاد الشام، وقد عاصر آل العظم، في منطقة فلسطين، الزعيم المحلي ظاهر العمر، الذي بلغ درجـة كبيرة من السلطة، وظهر آل الجليلي في الموصل، والمماليك في بغداد، الذين استمر حكمهم حتى عام ١٨٣١م، وبلوغ المماليك ذروة نفوذهم، في مصر، في عهد علي بك الكبير، حيث لـم يعـد السلطان العثماني، يتمتع بسلطة فعلية كبيرة[3].

كما برزت في طرابلس الغرب، أسرة القرمانلية، (١٧١١-١٨٣٥)، والأسرة المرادية في تونس. وظهرت الحركة الوهابية، في شبه الجزيرة العربية، التي انتقدت ضعـف السـلطان العثمـاني، وعـدم أهليتـه للدفـاع عـن العـالم الإسـلامي، فـي وجـه الأعـداء[4].

---

[1] جب، وبوون- المجتمع الإسلامي، ج٢، ص ١٥ ؛ رأفت الشيخ- في تاريخ العرب الحديث، ص ١٢٢.

[2] رافق- العرب والعثمانيون، ص ٢٣١.

[3] رافق- بلاد الشام، ص ٣٠٤-٣٠٥.

[4] زيادة- اكتشاف التقدم الأوربي، ص ١١٤-١١٥. Cohen, Palestine, P. 5.

ثانيا :- ولاية صيدا.

أ - إنشاء ولاية صيدا.

بلغت صيدا أوج ازدهارها، في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني، (١٥٩٠-١٦٣٣) الذي اتخذها عاصمة له، وبنى فيها أبراجا، وقصورا، وخانات للتجار، واستمرت صيدا في مركزها التجاري النشيط، طوال القرنين السابع عشر، والثامن عشر[1].

---

(١) إسماعيل- تاريخ لبنان الحديث (الوثائق)، ق١، ج١، ص ١٧.

صيدا :- عرفت مدينة صيدا " بصيداء صور " وذلك لقربها من بلدة صور، وعرفت ايضا " بـأربل " ويذكر ياقوت الحموي، هذا بقوله : " أربل اسم لمدينة صيدا التى بالساحل من أرض الشام "، إلا أنها استقرت على الاسم الحالي صيدا. وقد فسر اسم صيدا، على أنه مشتق من الصيد، من الجذر السامي " صيد " بمعنى صيد الأسماك وأنها كانت محلة صغيرة لصيد الأسماك، حيث كانت هذه الحرفة، هي الحرفة الرئيسة لسكان هذه البلدة، منذ نشأتها، ويقول عبد العزيز سالم: " لا نستبعد تمجيد الأهالي لهذه الحرفة، فأطلقوها على مدينتهم، بحيث اصبح اسم صيدون يعني مدينة صيد الأسماك ".

تقع مدينة صيدا، على مسافة تبعد عن بيروت، جنوبا بنحو ٤٥كم، وعن صور شمالا بنحو ٤٠كم، في سهل ساحلي شديد الخصوبة، وافر المياه. وهي تشغل بقعة من الأرض، على شكل مثلث، قاعدته إلى الداخل، ورأسه شبه جزيرة، أو نتوء بارز في البحر، ويتقدمها عدد من الجزر الصخرية، التي تحمي الخليج الصغير، واهم هذه الجزر، جزيرة صغيره، تقع قريبا من الطرف الشمالي الشرقي، من المدينة، تقوم عليها منذ سنة ١٢٢٧م، ويحيط بالمدينة من الشرق، والجنوب، والشمال الشرقي، بساتين غنية بالفاكهة، وكان لموقع صيدا الجغرافي، وقيامها على شبه جزيرة، ضاربة فى البحر، اعظم الأثر في تقرير مصيرها، كميناء تجاري هام، في حقب التاريخ المختلفة. كما أن موقعها على البحر، وعزلتها شبه التامة، عن قلب البلاد، أكدت لها تفوقها التجاري البحري، وقد ساعد على هذا النشاط التجاري، وجود مينائين رئيسين، شمالي وجنوبى، ويتسع الميناء الجنوبي لعدد كبير من السفن التجارية، كبيرة الحجم.

انظر ياقوت- معجم البلدان، مج١، ص ١٤٠ ؛ أنيس فريحة- معجم أسماء المدن، ص ٢٠٣ ؛ حتي- لبنان في التاريخ، ص ١٣٢، ٣٦٢ ؛ سالم- دراسة في تاريخ صيدا، ص ٩-١٥.

بعد أن انتصرت الدولة العثمانية، على فخر الدين المعني الثاني سنة ١٦١٣م، عملت على فصل سنجقي* (صفد، وصيدا وبيروت)، حيث كانتا في السابق، تتبعا إدارياً لولاية دمشق، ويحكمان من قبل فخر الدين وعائلته، وأصبحت إدارياً تسمى بـ " صيدا بيكربكسي "[١] وقد تم إنشاء ولاية صيدا بموجب فرمان، صدر من السلطان العثماني، إلى والي دمشق، احمد باشا الحافظ، في ١٠- آذار- ١٦١٤م[٢]، لأحكام الطوق على المعنيين، لكن ولاية صيدا، لم تظهر بشكل ثابت، حتى سنه ١٦٦٠م[٣].

كانت الدولة العثمانية، تقصد من إنشاء ولاية صيدا، مراقبة أمراء جبل لبنان عن كثب، بعد ثورة فخر الدين المعني الثاني، ومحاولة الحد من سلطة ولاة دمشق، خوفاً من اتساع نفوذهم[٤]. وامتدت ولاية صيدا من نهر الكلب شمالاً، حتى جبل الكرمل جنوباً، وضمت جانباً كبيراً، من مدن بلاد الشام البحرية، فشكلت صيدا، مركز الولاية[٥].

يذكر الرحالة " أيفليا شلبي **Eviliya Gelebi** " في زيارته الثانية لبلاد الشام، سنة ١٦٧٠م، أن ولاية صيدا تتكون من عدة ألوية هي: بيروت وصفد وعكا وطبرية، وصيدا[٦].

يشير " كوهن **Cohen** " إلى أن تقسيم ولاية صيدا إلى سناجق، لم يكن واضحاً، خلال القرن الثامن عشر ومن خلال الوثائق العثمانية، التي توفرت بين يديه، تبيّن أن ولاية صيدا كانت مقسمة إلى وحدات إدارية، أصغر من الألوية، وهي النواحي، وقد ضمت ولاية صيدا خلال القرن الثامن عشر، النواحي التالية :-

إقليم التفاح،وإقليم الشومر،وإقليم الشقيف،وإقليم بلاد بشارة، وإقليم مرجعيون، وسهل عكا، وشفا عمرو، والناصرة، وصفد، والرامة، والجبزة، وحيفا، وياجور، وسهل عتليت، بالإضافة إلى المقاطعات الحضرية، ذات الوضع الخاص : بيروت، صيدا، صور وعكا، وأخذت الخصوصية لأنها موانئ تجارية، وقد ضمت ناحية حيفا إلى ولاية صيدا سنه ١٧٢٣[٧].

---

* سنجق : وحدة إدارية وهي مشتقة من العلم بالتركية وبالعربية لواء. انظر جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج١، ص ١٩٧.

(١) بيكر بيكي. تعني بك البكوات، أي أمير الأمراء وهو لقب إداري عثماني يحمله عادة الولاة. انظر جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج١، ص ١٩٧.

(٢) **Heyed, Ottoman Documents, P. P. 45-48.**

(٣) **Rafeq, The province, P. P. 2-3.**

(٤) جب، وبوون- المجتمع الإسلامي ج٢، ص٣٥ ؛ رأفت الشيخ- في تاريخ العرب الحديث، ص ١٢٣.

(٥) **Rafeq, The province, P. 4.**

(٦) **Cohen, Palestine P. 120.**

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢١-١٢٥.

ب - القوى السياسية المتنفذة في صيدا عند بروز الجزار.

• الشهابيون :-

يعود نسب الشهابيين كما يذكر بعض المؤرخين، إلى مالك، من سلالة مرة بن كعب الملقب بـ (شهاب)[١]، حكموا إقليم وادي التيم، أثناء حكم الأسرة المعنية في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

بعد وفاة الأمير أحمد المعني سنة ١٦٩٧م، زالت الأسرة المعنية، وعينت الدولة بدلاً منه، حيدر بن موسى الشهابي حاكماً على المقاطعات، التي كانت بيد معن، باعتباره إبن ابنة الأمير احمد المعني، وأن يكون الأمير بشير الشهابي حاكماً بالوكالة عن الأمير حيدر، حتى يبلغ سن الرشد[٢].

مات الأمير بشير سنة ١٧٠٥، وحل مكانه الأمير حيدر، حسب الأمر السلطاني السابق، فقام هذا باعتباره زعيماً للقيسية، بمحاربة اليمنيين، وكان يقودهم وقتئذ، محمود أبو هرموش، الذي كان يتلقى المساعدة من والى الشام، ووالي صيدا، وانتصر الأمير حيدر، زعيم القيسية على محمود أبو هرموش، زعيم اليمنية في معركة " عين داره "[٣].

تشتت اليمنيون بعد هذه المعركة، والذين نجوا منهم، فروا إلى حوران، وثبت حكم الشهابيين في جبل الشوف. وحدد الأمير حيدر نظام لبنان، وفقاً لمصالح حزبه، فأعطى المتن إلى آل أبي اللمع وهو الإقليم المتوسط من جبل لبنان، بين كسروان والشوف، واقطع الشوف إلى آل جنبلاط، وكسروان إلى أسرة الخازن. إلا أن هذه التقسيمات، كانت السبب في النزاع بين القيسيين أنفسهم، حيث ظهر اليزبكية (نسبة إلى يزبك جد عبد السلام عماد زعيمهم) والجنبلاطية (نسبة إلى علي جنبلاط)[٤]. إضافة إلى أن زوال اليمنية، كقوة سياسية منافسة في جبل لبنان، أزال الخطر الذي يوحد القيسية[٥].

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ٣-٤ ؛ الشدياق- أخبار الأعيان، ج ١، ص ٣٥ ؛ مجهول- تاريخ الأمراء الشهابيين، ص ١٥.

[٢] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ٤ ؛ الدويهي- تاريخ الأزمنة، المشرق، مج ٤٤، ص ٣٨٢ ؛ الشدياق- أخبار الأعيان، ج١ ، ص ٢١-٢٢.

[٣] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١١-١٢ ؛ الشدياق- أخبار الأعيان، ج٢، ص ٣١٣-٣١٥ ؛ السويد- التاريخ العسكري، ج٢، ص ٥٦ ؛ عمر عبد العزيز- محاضرات، ص ٤٤.

[٤] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ٤٣ ؛ جودت- تاريخ جودت، مج١، ص ٣٥ ؛ مجهول- تاريخ الأمراء الشهابيين، ص ١٠٠.

[٥] رافق- بلاد الشام، ص ٢٣٤ ؛ حكمت حداد- لبنان الثورات، ص ١٦-١٧.

برز الأمير منصور الذي حكم الشهابيين، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ونافسه على ذلك الأمير يوسف الشهابي، الذي استطاع أن ينتزع الحكم، من عمه منصور، بدعم من والي الشام، عثمان باشا الكرجي، وفي سنة ١٧٧١م مد الأمير يوسف سلطته على جبل لبنان، الذي كان يضم معاملة طرابلس، وقاعدتها بلدة جبيل، التي تتبع ولاية طرابلس[١].

وسنتناول في الفصل الثاني، مسيرة تنافس الشهابيين على الحكم، أثناء فترة حكم الجزار لولاية صيدا.

• **المتاولة :-**

هي جمع متوالي، على غير قياس، مشتقة من تولى، أي اتخذ ولياً ومتبوعاً. من ولائهم لأهل البيت النبوي الشريف، (مت ولياً لعلي)[٢].

وهم طائفة من الشيعة، الاثنى عشريه، ويقيمون في جبل عامل، أو جبل عاملة، لذلك أطلقت عليهم بنو عاملة، نسبة إلى عاملة بن سبأ، وهو الحرث بن عدي، وعاملة نسبة إلى اسم أم الحرث (عاملة القضاعية)[٣].

أما بالنسبة لحدود جبل عامل، فتبتدىء من الشمال، بمصب نهر الأولي شمالي صيدا، فتدخل مدينة صيدا، ومن الجنوب نهر القرن، ومن الشرق نهر الأردن، الذي يفصل بينه وبين الجولان، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط[٤]. وعرفت هذه المنطقة أيضاً، بمنطقة بشارة، منذ دخلت بلاد الشام في حوزة العثمانيين[٥]، وتقسم إلى قسمين بشارة الشمالية، وبشارة الجنوبية، ويفصل بينهما نهر الليطاني. وتتكون الشمالية من (الشقيف، الشومر، التفاح، جزين) ويحكمها آل صعب، وآل نكد، وتعرف الآن بناحية جباع، أما الجنوبية فتتكون من (تبنين، هونين، قانا، معركة)، وتحكم من قبل آل الصغير، ويتألف منها الآن قضاءا صور، ومرجعيون[٦].

(١) السويد- التأريخ العسكري، ج ٢، ص ٨٢ ؛ حكمت حداد- لبنان الثورات، ص ١٨.

(٢) أحمد رضا- (المتاولة أو الشيعة في جبل عامل) - المقتطف، مج ٣٦، ص ٢٣٧ ؛ الزين- للبحث عن تاريخنا، ص ١٦٦.

(٣) البديري- حوادث دمشق، ص ٣٢ ؛ أحمد رضا- بنو عاملة، العرفان، مج ٣١، ص ٢١٨.

(٤) الزين- للبحث عن تاريخنا، ص ١٦٠-١٦١ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٤.

(٥) أحمد رضا- بنو عاملة، العرفان، مج ٣١، ص ٢١٩ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥ ، ص ٤٥ .

(٦) أحمد رضا- (المتاولة أو الشيعة في جبل عامل)- المقتطف، مج ٣٦، ص ٢٣٧-٢٣٩ ؛ الزين- للبحث عن تاريخنا، ص ١٦٣-١٦٤ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٢٣٤ ؛ سليمان- مقاومة تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٥.

بعد أن سيطر القيسية في جبل لبنان، اشتد عداؤهم للمتاولة اليمنية[١]. وفي عام ١٧٠٠م ثار الأمير المتوالي من آل الصغير، على والي صيدا، فكلّف الوالي، الأمير بشير الشهابي بقتاله، وأعطاه مقابل ذلك حكم صفد، ومقاطعات المتاولة، ويقول عمر عبد العزيز بذلك: " نجد أن الأمراء الشهابيين، يكثرون من غزو المتاولة ... لأن الأمير بشير، بحاجة إلى زيادة نفوذه في الظاهر ... وأفادت مثل هذه الحملات، بتكتيل مشايخ الأسر القيسية، من وراء الأمير الشهابي ... تجاه العدو المشترك، المتاولة ... والسبب الآخر هو ... الازدهار الاقتصادي في منطقة جبل عامل ... فطمع الشهابيون بموارد المتاولة، وكان هذا سبباً، في حملاتهم عليهم "[٢].

كانت سياسة المتاولة في تعاملهم مع جيرانهم، تتأرجح بين مد وجزر، فنجدهم مرة يتحالفون مع القوى المجاورة، وأخرى يتحاربون معهم، خصوصاً مع الزيادنة، الممثلة بظاهر العمر، إلى أن تولى الجزار حكم ولاية صيدا، فاستطاع أن يخضعهم، سنة ١٧٨١م، ويقتل شيخهم ناصيف، ويأخذ مدينة صور منهم[٣]، كما سيتضح في الفصل الثاني.

---

(١) رافق- بلاد الشام، ص ٢٣٤-٢٣٥ ؛ عبد العزيز - محاضرات، ص ٤٥.

(٢) عبد العزيز- محاضرات، ص ٤٦.

(٣) بريك- تاريخ الشام، ص ١١٢.

ثالثا :- مولد الجزار ونشأته .

أ - تاريخ ولادته ومكانها.

لقد اختلفت الروايات حول تاريخ مولد الجزار، إذ لم يكن لأحمد الجزار، شأن حين ولد، ليكون مجالا للاهتمام وتقييد تاريخ سنة ميلاده، إضافة إلى أن احمد الجزار كان غريبا عن المنطقة التي قدم إليها وعاش فيها بقية عمره، حيث قدم إلى المنطقة العربية لا يعرفه ولا يعرف عائلته أحد. وكانت المعلومات الأولية، عن طفولة الجزار في صباه، معدومة نوعا ما. إلا ما كان يتحدث به عن نفسه، فلذلك كانت سنة ولادة احمد الجزار غامضة، إلى حد اختلاف المؤرخين فيها كما سيأتي :- أرخ عبد الرزاق البيطار، سنة ولادة الجزار بـ ١٣٣٥هـ (١٧٢٢م)[١]، أما في دائرة المعارف الإسلامية، فقد ورد تأريخ ولادة احمد الجزار سنة ١١٣٢هـ (١٧١٩م)[٢]، وهذه التواريخ كانت مبنية على الاجتهادات الشخصية.

كما أرخ إدوار لوكروى لهذا بقوله: " كان يعيش احمد الجزار سنه ١٧٥٠م، في إحدى قرى البوسنة، مسيحي، له من العمر خمسة عشر عاما "[٣] أي أن سنة مولد الجزار كانت ١٧٣٥م. وتطرقت ايضا، الدراسات الحديثة إلى سنة ولادة الجزار، ومثالهم على ذلك عمر عبد العزيز، الذي أرخ السنة المعنية بـ ١٧٢٠م[٤]. لكن جميع هذه التواريخ، كانت تنقصها الأدلة على ذكر سنوات، تأريخ ولادة الجزار.

ترد إشارة أخرى، في الوثائق الدبلوماسية لعادل ومنير إسماعيل، عن هذه السنة، وذلك في رسالة بعث بها " دي توليس De Taules "، قنصل فرنسا في صيدا، إلى الوزير، أمين سر الدولة في باريس، بقوله: " خلال إقامة الجزار بك ... جاء لزيارتي، أنه رجل في الثلاثين من عمره تقريبا "[٥] وهذا سنة ١٧٧٣م، وتعتمد هذه الرواية على التقدير الشخصي، لعمر الجزار، من خلال رؤيته. وبعد التدقيق في الروايات السابقة، وجدت أنه من الصعب تحديد السنة التي ولد فيها الجزار من خلالها، وذلك لاختلاف بعضها عن بعضها الآخر بذكر سنة الولادة. إضافة إلى عدم تقديمها أي دليل يجزم، بأن أي منها هي الرواية الأكيدة.

لقد تبين لي أن سنة ولادة الجزار قد حددت بطريقه غير مباشرة، إذ اتفق اكثر من مؤرخ، ومنهم الجبرتي، الشهابي، البيطار[٦]، على أن الجزار، كان يبلغ الثامنة عشره من العمر،

---

[١] البيطار - حلية البشر، ص ١٢٩.

[٢] البستاني - احمد باشا الجزار، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦، ص ٣٧٣.

[٣] لوكروى - الجزار، ص ٧.

[٤] عمر عبد العزيز - محاضرات، ص ٥٤.

[٥] إسماعيل - الصراع الدولي (الوثائق الدبلوماسية)، ق ١، ج١، ص ١٦٨.

[٦] الجبرتي - تاريخ عجائب، ج٣، ص٤٧ ؛ الشهابي - تاريخ الجزار، ص٣٧؛ البيطار - حلية البشر، ص١٢٩.

عندما أخذه على باشا حكيم، برفقته إلى مصر، أثناء تسلمه ولايته الثانية لها، وهذا كان سنة ١٧٥٧م.

فتكون سنة ولادة الجزار، إن صح الإجتهاد، في ١٧٣٩م. وبهذا تكون الرواية التي وردت في الوثائق الدبلوماسية، هي الأقرب إلى السنة المعنية.

ب- انتقاله إلى استانبول وحياته في مصر.

يرجع الجزار في ولادته، إلى قرية " أودين أونيش "[١] من قرى البوسنة* ، لذلك أطلق بعض المؤرخين عليه لقب، احمد البشناقي[٢].

ولد الجزار في الجزء المسيحي من البوسنة، وكان والده خوريا أي أنه نصراني بالولادة[٣]. تعلم الجزار مهنة الحلاقة، فكان يهتم بمهنته ولا يجيد غيرها. وكان ضعيف الجسم ولا يجد العناية من أهله، بسبب خلقه للمشاكل مع الأخرين[٤].

أقدم الجزار في هذه الفترة، على اقتراف جرم أخلاقي، كان السبب في هروبه من مدينته، إلى الانخراط، في سلك البحرية العثمانية، فعمل فيها عدة أشهر، إلا أن هذا العمل، لم يعجب الجزار، بسبب منازعاته مع زملائه، من البحارة[٥].

عندما وصلت السفينة التي كان يعمل بها الجزار، فر منها إلى داخل استانبول، وأخذ يتنقل باحثا عن العمل، إلى أن اتصل بدائرة علي باشا حكيم، سنة ١٧٥٧م، فأسلم الجزار، وسمى نفسه احمد، وكان عمره وقتئذ ثمانية عشر عاما[٦].

كان علي باشا على وشك الرحيل إلى مصر، بسبب إنعام الدولة العلية عليه، بولايته على مصر للمرة الثانية، فأخذ الجزار برفقته إلى هناك، وبعد أن وصل إليها، بدأ الجزار يتنقل بها، إلى أن تعرف على أحد حكام السناجق، المعروف بـ صالح بك، الذي أخذه برفقته لأداء

---

(١) Huart, Djazzar Pasha, E.I, P. 1033.

* البوسنة هي جزء شمالي من يوغسلافيا، معظم سكانها من المسلمين، كانت في تلك الفترة ولاية عثمانية على الحدود.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٣٧.

(٣) حتي- تاريخ سوريا، ج ٢، ص ٣٣٧.

(٤) نوفل- كشف اللثام، ص ٤٣ ؛ الخوري- مصطفى اغا، ص ٥٨.

(٥) البيطار- حلية البشر، ص ١٢٩ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٤.

(٦) الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ٣، ص ٤٧ ؛ الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٣٧.

فريضة الحج، وعلمه بعض الشيء من الفروسية[١] ، وعند عودته، وجد أن علي باشا حكيم، قد فصل عن ولاية مصر، فانتقل إلى خدمة أحد الكشاف، المدعو احمد كاشف[٢] ، وبقي بخدمته حتى توفي.

أخذ الجزار يهتم بأمور الفروسية، ويطلع شيئا فشيئا، على أمور المماليك الداخلية، وفي سنه ١٧٦٠م تعرف على عبد الله بك، فانتقل إلى خدمته وأتم هذا تعليمه على الفروسية، فأمضى وقتا كافيا في تعليمه، على استخدام السلاح، وركوب الخيل. إلا أن عبد الله بك، قتل بعد ذلك على يد عرب البحيرة، فولد هذا الحدث أثرا عميقا في نفس الجزار، واضطر إثر ذلك الى الانتقال لخدمة أحد قادة المماليك، الملقب بذي الفقار، فقلده كشوفية البحيرة[٣] .

عندما تسلم الجزار هذا المنصب، أخذ يفتك بعرب البحيرة، الذين قتلوا مخدومه عبد الله بك، حتى لقب بالجزار، ويذكر الشهابي ذلك بقوله: " فصار احمد البشناقي، يرتصد عرب الهنادة ويقتل منهم إلى أن قتل أربعة من كبارهم... وكان يقول: هذا ثأر سيدي عبد الله بك "[٤] . كما أن الجبرتي، يذكر هذه الحادثة بقوله : " أمره عبد الله بك أن ينتقم من الذين قتلوا سيده ... وقتل واحدا وسبعين من كبارهم "[٥] . وترد روايات أخرى تقول أنه قتل سبعين رجلا من عرب البحيرة.

يلاحظ هنا أن الروايات اختلفت بعدد الذين قتلهم الجزار من عرب البحيرة، واتفقت على سبب التسمية (القتل) ومن هنا لقب احمد البشناقي بالجزار، وظل يحمل هذا اللقب حتى مات.

من هنا بدأت حياة الجزار، تنتقل من طور الشاب، الذي يبحث عن أسباب العيش، إلى المشاركة في عمليات التصفية السياسية، والجسدية، التي كانت تحدث في مصر، والتي امتنع عن المشاركة في البعض منها، كما سيتضح لاحقا، لأسباب خاصة به، فأصبح بذلك احد اطراف الصراع في مصر، فدرس احوالها جيدا وفهم اسرار اللعبة السياسية، وتمرس بقوانينها وكان قريبا من صنع القرار السياسي. فانضم إلى طائفة المماليك، واصبح له حضور مميز نظرا لشجاعته، وفروسيته ونال بذلك الإعجاب الكثير، من مثل علي بك الكبير، الملقب

---

[١] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج٣، ص ٤٨.

[٢] بمثابة المدير اليوم ويعمل على كشف أحوال المديريات ، انظر بني المرجة- صحوة الرجل، ص ٤٥٩.

[٣] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج٣، ص٤٧-٤٨ ؛ الشهابي- تاريخ الجزار، ص٣٨؛ لوكروى- الجزار، ص٤.

[٤] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٣٨.

[٥] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ٣، ص ٤٨.

بـ " بلوط قبان Bulut Kapan " (وتعني بالتركية قابض الغمام، بسبب طموحه)[١]، وهذا قلده السنجقية، وصار من جملة أمرائه، لكن علي بك تعرض للنفي إلى غزه، من قبل منافسيه، حيث كانت غزه والصعيد، هما المكانان المفضلان، للجوء الزعماء المنهزمين من القاهرة[٢].

خرج الجزار بصحبة مخدومه، ورافقه في منفاه، فتقرب بذلك إلى علي بك، اكثر من السابق، وعندما استرد علي بك السلطة عام ١٧٦٧م، عاد الجزار برفقته، فرقاه علي بك، ولقبه بـ " ميرميران "[٣]، فتحسنت معيشة الجزار اكثر من السابق، وأصبح غنيا، يملك الخيول المطهمة والأسلحة الجميلة، ويقبل الضيوف في بيته، ويشعر بميل إلى الفنون الجميلة، فأصبح بيته ملتقى الأدباء، والفنانين، وينزل هؤلاء عنده، ولا يدفعون له شيئا، غير قيامهم بحفلات الطرب، والغناء وإلقاء الشعر الارتجالي[٤].

سيطر علي بك على مقاليد الحكم في مصر، سيطرة تامة، وقام بطرد الوالي، المبعوث من قبل الدولة، وهو " عثمان باشا الكلحى "[٥]، وتوقف عن استقبال ولاة الباب العالي إلى مصر، واصدر عملة نقدية عليها اسمه بجانب اسم السلطان، وتوقف عن دفع المال الميري إلى الدولة[٦] إلا أن علي بك، كان يدرك أنه مهما بلغ ضعف السلطان العثماني، فانه يعتبر زعيم المسلمين وأي انفصال عنه أو ثورة عليه، لا يمكن أن يتقبلها المسلمون بسهولة[٧].

كل هذه الأحداث، كانت تتطلب من علي بك، أن يجمع إليه اكبر عدد ممكن من الرجال، الذين يثق بهم، ويعمل على التخلص من منافسيه في السلطة، والمواليين للباب العالي. فعزم على القضاء على شريكه، في الأحكام والتدابير، وهو " صالح بك " كونه لم يكن راضيا بإجراءاته[٨] فأمر الجزار بقتل صالح بك، ولكن هذا الطلب كان صعبا على الجزار، لما بينه وبين هذا الرجل من محبه ووعود، فاعتذر لعلي بك، بأنه متآخ مع صالح بك، وبهذا تقرر مصير الاثنين معا[٩].

---

[١] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ١، ص ٢٥٠ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٣٩٧.

[٢] رمضان- علي بك، ص ١٥٤ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٣٧١ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٢.

[٣] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج٣، ص ٤٨ ؛ البستاني- احمد باشا الجزار، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦، ص ٣٧٣.

[٤] لوكروى- الجزار، ص ٢٥ ؛ الخوري- مصطفى أغا، ص ٦٠.

[٥] ابن الصديق- غرائب، ص ١٨.

[٦] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ١، ص ٤١٦ ؛ ابن الصديق- غرائب، ص ١٨.

[٧] الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ١، ص ٣٧٨-٣٧٩ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٤٠٠-٤٠١.

[٨] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤١ ؛ جودت- تاريخ جودت، مج ١، ص ٣٤٦.

[٩] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٣٥ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦٠.

أخبر الجزار صالح بك، عما حدث بينه وبين علي بك، وعندما سأله الأول عن مصداقية قول الجزار، قال له : " نعم ... وأنت ايضا يلزمك أن تجرب رجالك، وتختبرهم كما اختبرت الجزار "[١]. بعد ذلك عمل علي بك، على التخلص من صالح بك، والجزار، فأصدر الأمر إلى محمد بك أبو الذهب "مملوك علي بك وساعده الأيمن بقتلهما، وقام المعني بقتل صالح بك، وتخفى الجزار بزي مغربي، وفر إلى بولاق، ومنها سافر إلى الإسكندرية، وبعد ذ لك ركب البحر إلى استانبول[٢] سنه ١٧٧٠م.

رابعا :- انتقال الجزار إلى الشام ومشاركته في الحرب إلى جانب الدولة العثمانية.

أ - وصوله إلى الباب العالي.

كان هناك ثمة تحالف عسكري، بين علي بك وظاهر العمر (زعيم الزيادنة في الجليل) ضد عثمان باشا الكرجي والي الشام، وليس ضد السلطان العثماني، أي أن الخلاف مع عثمان باشا وليس مع السلطان نفسه[٣]. حيث كانت الظروف مهيأة، للأعمال المشتركة بين الاثنين، فالدولة العثمانية منشغلة في حربها مع روسيا، (١٧٦٨-١٧٧٤م)[٤]. ويعلق على هذا " دي توليس De Taules " قنصل فرنسا في صيدا بقوله: " إن سلوك هذين المتمردين ظاهر العمر وعلي بك، هو نتيجة لمخطط اكثر اتساعا، وهما يناصبان العداء لكل وال يمكنه أن يقف حائلا دون أطماعهما ومشاريعهما "[٥]. كما يقول " شارل رو Charles Roux " حول ذلك الموضوع : " إن ظاهرا وعلي بك، قد وجدا في انشغال تركيا، بحربها ضد روسيا، فرصة لتقوية نفوذهما "[٦]. لكن كما ذكرت سابقا، فالتركيز في الحلف كان موجه ضد والي الشام.

وعندما وصل الجزار إلى استانبول،كان قد انتقل في حياته إلى مرحلة جديدة تختلف عما سبقها، فاستطاع بفضل حنكته، وتجربته السياسية في مصر، أن يتوصل إلى حاشية السلطان، ومن ثم إلى السلطان نفسه، فاستغل نقطة التحالف المذكورة آنفا، وحاول إقناع السلطان، بضرورة إرسال قوه، لانتزاع مصر، من يد علي بك، والتمس من السلطان، أن يعهد إليه

---

[١] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤٠.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤١ ؛ رمضان- علي بك، ص ٦٢.

[٣] ابن الصديق- غرائب، ص ٨٢.

[٤] رافق- بلاد الشام، ص ٣٧٠.

[٥] إسماعيل- الصراع الدولي "الوثائق الدبلوماسية"، ق ١، ج ١، ص ١٠٨.

[٦] Roux, les Echelles, P. 84.

بهذا المشروع[1] إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، إذ لم يجد أذانا صاغية إلى حديثه، حيث أن حاشية السلطان، كانت تجد أن الحرب طالت كثيرا، واتسعت، ولا تريد أن تزيدها اتساعا، بفتح جبهة مع علي بك، وظاهر العمر[2]. خابت آمال الجزار، في الوصول إلى مبتغاه، لكنه في الفترة التي مكثها في استانبول، وقربه من السلطان العثماني، وحاشيته، اكتسب فكرة جيدة، عن خبايا السرايا، وبعض الشيء من أسرار السياسة العثمانية، فرحل الجزار برفقة خادمه، الذي أحضره من مصر، " سليم " وعبده المكنى " بأبي داوود "[3] وتوجه بهما إلى الشام، ومنها إلى طرابلس، ثم انتقل إلى بيروت[4].

ب – التقاءه الأمير يوسف الشهابي واشتراكه في الحرب ضد ظاهر العمر وعلي بك.

لقد ترك الجزار استانبول، لما وجد نفسه، تائها بين أصحاب الطموح، الذين يبحثون عن فرصتهم في العاصمة، فتوجه إلى بلاد الشام، أرض الميعاد بالنسبة للمغامرين. وعندما وصل الجزار إلى بيروت، قام رجل يدعى، " شاهين القالب " بنقله إلى دير القمر[5]، في كانون الأول ١٧٧٠م وكان المتولي لحكم جبل الدروز، في هذه الفترة، هو الأمير يوسف ابن الأمير ملحم الشهابي، ومكث الجزار فترة قصيرة عنده، ومن ثم عاد إلى بيروت، ومنها إلى غزة، متخفيا بزي الأرمن[6]، ثم انتقل إلى مصر ومكث فيها ثلاثة أيام ثم عاد إلى الشام[7].

عاد الجزار إلى التقاء الأمير يوسف، مرة أخرى، واستطاع في هذه المرة، أن يستحوذ على قلب الأمير، فعينه هذا في حاشيته، وحدد له نفقه من جمرك بيروت[8].

أرسل علي بك حملة كبيرة، بقيادة محمد بك أبو الذهب، ووصلت إلى الرملة في ١٧– أيار– ١٧٧١م، فانضمَّ إليه أبناء ظاهر، وجميع عسكره. وقُدر جيش محمد بك أبو الذهب، بأربعين ألف (٤٠٠٠٠) مقاتل[9]، وتقدمت هذه القوات نحو دمشق، حتى وصلت إلى أطرافها، وأرسل أبو الذهب، رسالة إلى عثمان باشا، يطالبه بمغادرة دمشق، فجهز عثمان باشا قواته،

---

[1] لوكروى– الجزار، ص ٢٧.

[2] الخوري– مصطفى آغا، ص ٦٠.

[3] الشهابي– لبنان، ج ٢، ص ٩٦ ؛ العينطوريني، مختصر تاريخ جبل لبنان، المشرق، مج٥، ص ٥٢٩.

[4] العينطوريني– مختصر تاريخ جبل لبنان، المشرق، مج ٥، ص ٥٢٩.

[5] أنطوان المحامي– رواية جديدة عن حياة الجزار، أوراق لبنانية، ج ٤، ع ٢، ص ٦٥.

[6] الشهابي– تاريخ الجزار، ص ٤٧.

[7] الشهابي– تاريخ الجزار، ص ٤٨ ؛ أسعد منصور– تاريخ الناصرة، ص ٥٤.

[8] البيطار– حلية البشر، ص ١٢٩ ؛ مخول– عكا وقراها، ج ١، ص ٧٧.

[9] المرادي– سلك الدرر، ج ١، ص ٥٤. Volney, Travels, II, p. 86

وتوجه إلى جنوب دمشق[١]، إلا أن أبا الذهب، استطاع أن ينتصر، على عثمان باشا، في حزيران-١٧٧١م. وهرب عثمان باشا في ٦- حزيران[٢]، ودخل جيش أبي الذهب إلى المدينة في ٨- حزيران- ١٧٧١م، وتوترت الأوضاع في بلاد الشام، وإستانبول، وأرسل علي بك إلى محمد بك أبي الذهب يأمره، بأن يستولي على بقية بلاد الشام[٣]. إلا أن محمد بك أبا الذهب، انسحب بعد ذلك من دمشق، في ١٨- حزيران- ١٧٧١، وعاد مسرعا إلى مصر، ولم يعرف أحد سبب رحيله[٤]، وما يهمنا في هذا الموضوع، هو سيطرة محمد بك أبي الذهب، على السلطة في مصر، في شهر نيسان- ١٧٧٢م، وفرار علي بك بأمواله، وحاشيته، برفقة عدد من عسكره إلى حليفه ظاهر العمر[٥].

بعد أن انسحب محمد بك أبو الذهب من دمشق، عاد إليها عثمان باشا الكرجي، إلا أن هذا، عزل من قبل الدولة العثمانية، وعين بدلا منه " عثمان باشا المصري "، في نهاية ١٧٧١م، وأصدرت الدولة أوامرها، إلى الوالي الجديد، بمحاربة ظاهر العمر، وطلب هذا بدوره، المساعدة من الأمير يوسف، بأن يرسل إليه قوة، لمحاربة ظاهر العمر، وحليفه المعزول علي بك[٦].

أرسل الأمير يوسف، القوة المطلوبة منه، وكأن الجزار من ضمن هذه القوة، ويقود مفرزة، قوامها أربعين رجلا[٧]، فاجتمعت هذه العساكر، بالقرب من مدينة صيدا، وكانت هذه الجموع، تضم عسكر الشام، والدروز، من جهة، وعساكر الشيخ ظاهر العمر، وعلي بك، من جهة أخرى.

اشتبكت هذه القوات المجتمعة، في منتصف حزيران ١٧٧٢م، واستطاعت قوات ظاهر العمر، وحليفه علي بك، من السيطرة على المعركة، ومن ثم الانتصار، وانهزم عثمان باشا، وحليفه الأمير يوسف، وتمكن الجزار، أن يحافظ على العدد المتبقي من القوة، التي يرأسها[٨] وتوجه بهذه القوة إلى الأمير يوسف، وقد اكسبه هذا التصرف، شهرة واسعة، وزاد إعجاب

---

(١) ابن الصديق- غرائب، ص ٤٢-٤٣.

(٢) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٨٣ ؛ ابن الصديق- غرائب، ص ٤٣-٤٦ ؛ المرادي- سلك الدرر، ج ١، ص ٥٤.

(٣) الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ١، ص ٤٠٦.

(٤) بريك- تاريخ الشام، ص ١٠٦.

(٥) الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ١، ص ٤١٦ ؛ عبود الصباغ- الروض الزاهر، ص ٢١.

(٦) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤٨.

(٧) لوكروى- الجزار، ص ٥٤.

(٨) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤٨ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٥٦ ؛ منير الخوري- صيدا، ص ٢٧١.

الأمير يوسف به، وكانت تمييزا للجزار بقدرته القتالية، ومهارته على التخلص من المآزق، والمواقف الصعبة[١] .

كان هناك ثمة خلاف، ما بين الجزار، والأمير منصور، (عم الأمير يوسف)، سببه قرب الجزار من الأمير يوسف، وعندما عاد الجزار بالقوة المذكورة سابقاً، قام الأمير منصور برشوة احد المغاربة لأجل قتل الجزار، فكمن له هذا، وأطلق عليه الرصاص، فجرحه في عنقه، وعندما وصل الجزار مجروحاً، قام الأمير يوسف بقتل المغربي، وتم معالجة الجزار[٢] .

قرر عثمان باشا العودة إلى الشام، وطلب من الأمير يوسف أن يأخذ الجزار برفقته، وذلك بطلب من الأمير منصور، فوافق الأمير يوسف على ذلك، نظراً للضغوطات التي واجهها، من عثمان باشا، وعمه الأمير منصور[٣] .

خامساً:- حصار بيروت.

أ - تسليم بيروت إلى الجزار.

تعرضت بيروت للقصف من قبل الروس، في ١٨- حزيران- ١٧٧٢م، بعد أن طلب ظاهر العمر، من قائد الأسطول الروسي، التوجه إلى بيروت، لمهاجمة السفن العثمانية، الراسية على شواطئها. مما اضطر الأمير يوسف بعد ذلك، إلى طلب المساعدة، من عثمان باشا المصري، حيث كان الأمير مشغولاً، بحروبه مع المشايخ، الذين عارضوا الاشتراك معه، في حروبه ضد ظاهر العمر، فقرر الأمير أن ينقل ثروته إلى بيروت، وأن يضع عليها قائداً يثق به، فاختار الجزار لهذه المهمة[٤] . فطلب من عثمان باشا، أن يرسل له الجزار على رأس قوة من الأتراك، لكن عثمان باشا رفض أن تكون بيروت تحت قيادة الجزار وحده، ويجب أن يكون مع الجزار رجل آخر، من ذوي ثقته، فوافق الأمير يوسف، وعينوا الساري كخيا إلى جانب الجزار[٥] ، على أن يكون الجزار، قائداً أعلى للقلعة، والساري كخيا حاكماً على المدينة، وعينوا تحت قيادتها، ثمانمائة (٨٠٠) رجل من الأتراك، والمغاربة[٦] . إلا أن " سعد الخوري " مدبر

---

[١] بازيلي- سوريا، ص ٦١.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٤٩.

[٣] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٠ ؛ أسعد منصور- تاريخ الناصرة، ص ٥٥.

[٤] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٠.

[٥] البيطار- حلية البشر، ص ١٢٩.

[٦] إسماعيل- الصراع الدولي (الوثائق الدبلوماسية)، ق ١، ج ١، ص ١١٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٥٧.

امور الأمير يوسف، عرض عليه أن يكتب صكا على الجزار، وعلى باقي الأمراء، بحفظ بيروت من استيلاء الروس عليها، لكنه رفض[١].

في نهاية ١٧٧٢م، أرسل محمد أبو الذهب، كتابا إلى الأمير يوسف، يبلغه أنه إذا أرسل له رأس الجزار، فسيعطيه مئتي ألف (٢٠٠،٠٠٠) قرش[٢]، (بسبب كره أبي الذهب للجزار، منذ وجوده في مصر، وفراره منها) فرفض الأمير يوسف هذا العرض، واعتذر لأبي الذهب عن ذلك، بحجة عدم اغضاب الدولة العثمانية عليه، كون الجزار قد حضر بأمرها. ومن أهم الأسباب التي جعلت الأمير يوسف، يقدم على تسليم بيروت إلى الجزار، كانت بغضا بعمه، الأمير منصور، لأنه كان يقف بصف المشايخ المتاولة، والشيخ ظاهر العمر[٣].

قام الساري كخيا باحتلال صيدا، ولكن بعد أن سار إلى الحرب، لم تكن جيوش الأمير يوسف قد استعدت فانهزم الساري كخيا، مما اضطر عثمان باشا إلى استدعائه، وبقي الجزار وحده في بيروت، ونال بواسطة الأمير يوسف لقب (قائدا أعلى) واغلق المدينة، حيث كانت هذه الفرصة التي ينتظرها[٤].

ب - سيطرة الجزار على بيروت.

اهتم الجزار بترميم أسوار المدينة، وبناء أبراجها، وتجديد قلاعها، وهدم قصور الأمراء، كي يستخدم موادها للتحصينات[٥].

وعندما سمع الأمير يوسف بهذه الإجراءات، غضب وطلب من الجزار أن يترك بيروت، ويعود إلى الشام، إلا أن الجزار رفض هذا الأمر، وتمرد على الأمير يوسف[٦].

استمر الجزار في بناء الأسوار، والتحصينات، ومنع الجبليين من دخول بيروت، وأمر أتباعه بنهب ضواحي المدينة، فأحرق هؤلاء القرى، ونهبوا المواشي، وقبضوا على قرويين متواليين يعملون في خدمة الأمير يوسف، وقتلوهم[٧]، وصرف الجزار المال للجند، من خزينة

---

[١] الشدياق- أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٣٣٣.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٠.

[٣] جودت- تاريخ جودت، مج ١، ص ٣٧٣.

[٤] لوكروى- الجزار، ص ٥٨.

[٥] بازيلي- سوريا، ص ٦١.

[٦] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٢ ؛ العينطوريني- مختصر تاريخ جبل لبنان، الشرق، مج ٥، ص ٥٢٩.

[٧] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٢ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦١-٦٢ ؛ لوكروى- الجزار ص ٦٦.

الأمير يوسف، وكان يغدق عليهم، ويسميهم (حماة الشريعة)، فتجمع عند الجزار، عدد كبير من الجنود المغامرين في سوريا[1].

جهّز الأمير يوسف حملة لمحاربة الجزار، واتجه إلى بيروت، ولكن الجزار اظهر حسن نية، وطلب الاجتماع بالأمير، وكتب إليه أن يحضر بنفر قليل إلى قرب البلدة ليخرج إليه ويخاطبه مشافهة، فحضر الأمير إلى (المصطبة) قرب المدينة، فاظهر الجزار التواضع وتلطف بالأمير وأقنعه أن يعطيه مهلة أربعين يوم، فوافق الأمير يوسف تحسباً منه لقوة الجزار وعسكره، إضافة إلى وجود بعض اليزبكية الذين يحقدون على الأمير، فأقنعوه بقبول الفكرة[2]. وكان الجزار يريد بهذه الفترة، زيادة تحصيناته لبيروت.

بعد انقضاء المدة المتفق عليها، بين الأمير والجزار، كان الجزار قد حصّن المدينة تحصيناً كاملاً. وأحرق حارات الامراء والنصارى. وقص بعض الأشجار داخل وخارج المدينة، وجعل الكنائس، إسطبلات للخيل، واظهر العصيان. وفي غضون هذه الأحداث، وصل مركب لبيروت، وفيه حرير، بمقدار اربعمائه (٤٠٠) كيس ذهب فضبطها الجزار، وأرسل الرشاوي، لبعض أمراء ومشايخ الجبل، كي لا يعينوا الأمير يوسف عليه. واصطنع الجزار تمثالاً للأمير يوسف، وعلقه على أحد أبواب بيروت، وخرج عسكره المغاربة ينهبون من خارج المدينة، فعاد الأمير يوسف بجيشه، وحاصر بيروت، وحارب الجزار، فكاد الجزار أن ينتصر عليه، إلا أن الأمير يوسف، انسحب في الوقت المناسب[3].

ج – تحالف الأمير يوسف الشهابي مع الروس ضد الجزار.

أرسل الأمير يوسف رجلاً من خواصه، وهو " علي جنبلاط " (أحد أمراء الدروز) لبدء المفاوضات مع عدوه السابق، الشيخ ظاهر العمر، وكان الأمير يوسف قد قوى علاقته بعمه، الأمير منصور، نظراً لعلاقته الحميمة، مع الشيخ ظاهر العمر، وحليفه القوي الشيخ ناصيف النصار، (شيخ المتاولة)[4]، وطلب الشيخ ظاهر العمر بدوره، المساعدة من الحامية الروسية، التي كانت قادمة، لأجل مساعدة علي بك[5]، حيث انه مرتبط مع الروس بمعاهدات.

---

[1] لوكروى- الجزار، ص ٦٧ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦٢.

[2] جودت- تاريخ جودت، مج ١، ص ٣٧٤ ؛ الشدياق- أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٣٣٣-٣٣٤ ؛ الخوري- مصطفى اغا، ص ٦١.

[3] المنير- الدر المرصوف، ص ٣٦٨ ؛ الخوري- مصطفى اغا، ص ٦١-٦٢ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٧٣.

[4] لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٤٠. Volney, Travels, II, P. 22.

[5] العوره- ولاية، ص ٥. Jalbert, Beirut Crossroads, P. 75.

كان قدوم الروس إلى المنطقة، نابعا من سياسة روسيا التوسعية، على حساب الدولة العثمانية، فقد عقدت الدولة العثمانية عدة مؤتمرات مع روسيا، ولكن كان أكثرها يفشل، ففي مؤتمر بخارست، في ١٢-١١-١٧٧٢م، طلبت روسيا بقيادة " كاترين الثانية Catherine II " من مندوبها في المؤتمر، أن تتنازل الدولة لروسيا، عن حصن كريشن، وان تمنح المراكب الروسية، حرية الملاحة في البحر الأسود، وتصدير الحبوب من جنوب روسيا، وأن يكون لروسيا الحق، في حماية المسيحيين الأرثوذكس، في مناطق الدولة، وغير ذلك[١]. فرفضت الدولة العثمانية هذه الشروط، واستأنفت القتال بكل شده.

في هذا الوقت، كان علي بك،قد استقل بشؤون مصر، فاتصل مع قائد الأسطول الروسي، في البحر الأبيض المتوسط، ليمده بالذخائر والأسلحة، حتى يستقل بشؤون مصر رسميا[٢]. فأرسل إلى القائد " اورلوف Orlov " أحد أعوانه من المماليك يسلمه رسالة إلى كاترين الثانية، ورد " أورلوف " على رسالة علي بك برسالة ودية، واشتدت الروابط بعد ذلك بين أورلوف وظاهر العمر، وكثرت بينهما الرسائل، حيث يقول " رو Roux " : " ... رأى الروس في ثورة ظاهر وعلي بك، عاملا مساعدا لأغراضهم، فشجعوا تلك الشراكة، وكان سيان بالنسبة لهم، إذ حاربا متحدين، أو عمل كل منهما على انفراد، وفق ظروفه الخاصة. وكل ما كان يهمهم، أن تصادف تركيا متاعب داخلية، في الوقت التي كانت تناضل فيه عدوها في الخارج "[٣].

استمرت العلاقات بين علي بك والروس، إلى أن مات، ١٧٧٣م، فتحول جل اهتمام الروس، إلى حليفهم الثاني، (ظاهر العمر). وعندما طلب هذا المساعدة من الروس، لإخراج الجزار من بيروت، حضر الروس، واحضروا عدة مراكب، وبأحجام متعددة، وحاصروا بيروت في ٩-تموز-١٧٧٣، بقيادة " كوزاكوف Kozakoff " ، الذي عهد إليه بإدارة الحملة[٤].

---

(١) إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج١ ، ص ٢٣-٢٥ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٢٩٩.
Cohen, Palestine, P. 3.

(٢) نوفل- كشف اللثام، ص ١٩١ ؛ فريد المحامي- تاريخ الدولة، ص ١٥٨.

(٣) Roux, les Eehelles, P. 84 .

(٤) لوكروى- الجزار، ص ٧٤.

د - قصف بيروت وإخراج الجزار منها.

اتفق الروس مع الأمير يوسف، على ضرب المدينة، مقابل ستمائة (٦٠٠) كيس من الذهب، تدفع بعد نهاية الحصار، على أن يبقى الأمير موسى بن الأمير منصور، رهينة للروس، حتى يأخذوا المبلغ المتفق عليه[١]، وكان هذا اصعب موضوع في المفاوضات، وقد أجرى الروس بعض المحادثات مع الجزار أثناء هذه المفاوضات إلا أن الجزار، لم يقبل بأي من وجهات نظرهم[٢].

كان الروس يرغبون، في أن يقتصر عمل الدروز، على حراسه مخارج بيروت البرية، للحيلولة فقط دون هرب الجزار بك منها، حاملاً غنائمه معه[٣].وهم بذلك يطرحون فكرة عملهم، المناهض للدولة العثمانية، بأن شروطهم المترتبة على تقاضي الأجر على أعمالهم الحربية، وخوفهم من الدروز في الاستيلاء على أموال بيروت، نابع من هدفهم في القدوم إلى بيروت، وهو الأجر مقابل الحرب، لا الأطماع السياسية والإقليمية، في الاستيلاء على بيروت.

في اليوم الثالث من الشهر نفسه وضع الروس جميع سفنهم في خط واحد، قبالة قصر البحر، على مسافة لا تزيد عن رمية مسدس، وبدأوا بضرب المدينة، بالمدافع من البحر، في حين أن المتاولة والدروز، كانوا يطوقون المدينة من ناحية البر[٤]. وقصف الروس أحياء المدينة بشدة وعنف ، وقد بلغت طلقاتهم خلال أربع وعشرين ساعة، من ثلاثة إلى أربعة آلاف (٣،٠٠٠-٤،٠٠٠) قذيفة مدفع، وكان رد حامية المدينة ضعيفاً [٥].

نصب الروس ثلاث بطاريات، تبعد كل منها عن الأخرى مسافة كبيره، لإرهاب السكان، بالقصف في وقت واحد ومن عدة جهات، وقد قتل شقيق " ماركو فوانوفيتش **M. Voinovich** " بينما كان منهمكاً في نصب البطارية الأولى، واستطاع الروس بفعل ضرباتهم المستمرة، أن يفتحوا ثغرات كبيره في أسوار المدينة. ونشب الخلاف بين الروس والأمراء، على من هو الذي سيدخل المدينة، ويواجه جيش الجزار[٦]، وكان عدد الدروز، يتراوح بين عشرة آلاف، وأثنى عشر ألف (١٠،٠٠٠و١٢،٠٠٠) مقاتل، إلا أن صمود الجزار وجيشه، أمام ضربات الروس، صنع له الخشية، في نفوس الدروز وحتى الروس، وفي النهاية تم الاتفاق بين الطرفين،

---

[١] الشهابي- تاريخ، ص ٥٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٧٨. **Masson, Histoire, P. 291.**

[٢] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ٥٨.

[٣] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ٥٨.

[٤] جودت- تاريخ جودت، مج ١، ص ٣٧٥ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦٢.

[٥] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٦٠.

[٦] لوكروى- الجزار، ص ٨٠-٨٣. **Volney, Travels, II, P. 123.**

(الروس، الدروز)، بأن يرسلوا لحليفهم الشيخ ظاهر العمر، الكونت" فوانوفيتش **Voinovich** " ليتفاوض معه[١].

اعتمد الجزار كثيراً على القوات التي توافرت إلى جانبه في محاربة الروس فكان عدد الجيش الموجود في بيروت، يتراوح من اثنى عشر، إلى خمسة عشر ألف (١٢،٠٠٠-١٥،٠٠٠) مقاتل تركي، إضافة إلى جنود مغاربة يتراوح عددهم بين خمسمائة إلى ستمائة جندي[٢].

بعد أن فتح الروس عده ثغرات، في حصون المدينة، قرروا إعادة مدافعهم، وطواقمها، من البر إلى سفنهم، والإبحار بها، وبدأوا ينتظرون نتيجة مهمة القبطان " فوانوفيتش " في عكا، وما كادوا ينسحبون من مواقعهم على البر، مساء ١٧-أب-١٧٧٣م ، حتى قام الجزار بغارة، دك خلالها، دون أية صعوبة، كل ما قاموا بإنشائه، ثم أخذ بعد ذلك، يرسل حملات متواصلة، لمقاومة الدروز، وأذاع خبر بين المحاصرين، أن عثمان باشا سيأتي لإنقاذه، فاستولى على الدروز الهلع، وانسحبوا إلى مسافة ثلاثة فراسخ حول المدينة[٣].

بعد عشرة اشهر على إعلان الجزار لاستقلاله ببيروت، من الأمير يوسف، والتي حوصر في الشهور الأربعة الأخيرة منها، التزم المحاصرون بأكل الدواب، والكلاب لقلة الموارد[٤]. فعرض الجزار الصلح، وعرض خدماته، وطلب الأمان له ولمن معه، وأن لا يضروا أهل بيروت، بعد خروجه منها، وأن يسلم نفسه للشيخ ظاهر الغمر، فوافقوا على ذلك، وأرسل إليه الشيخ ظاهر العمر، رجل من خواصه، يدعى " يعقوب الصقلي " لإخراجه[٥]. وبعد أن خرج الجزار قام الأمير يوسف بتغريم أهل بيروت ستماية (٦٠٠) كيس ذهب، وسلمها للروس على حسب الاتفاق، بعد أن أبقى قائد الحامية الروسية رجلاً من قبله في القلعة، حتى يتم دفع باقي المبلغ المتفق عليه، مع الأمير يوسف[٦]، حيث بقي هذا خمسة شهور، من (تشرين الأول ١٧٧٣ إلى شباط ١٧٧٣م). يعلق قنصل فرنسا " دي توليس " على هذه النتيجة بالقول : " لم يكن صمود الجزار في الدفاع، إلا بسبب ضعف الهجوم، ولم يضع نفسه بين يدي الشيخ ظاهر، إلا بسبب فقدان المؤن لديه"[٧]. وقد بدا هذا واضحاً، من خلال مقاومة الجزار للهجوم

---

(١) إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٦٠. **Masson, Histoire, P. 291.**

(٢) إحسان النمر- تاريخ جبل نابلس، ص ١٥٧ ؛ إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ، ج ١، ص ١٦٠.

(٣) لوكروى- الجزار، ص ٧٩ ؛ إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٦٢ .

(٤) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٣ ؛ الشدياق- أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٣٣٤ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦٢.

(٥) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١٠٣ ؛ المنير- الدر، ص ٣٦١.

(٦) **Jalbert, Beirut, P. 75.**

(٧) إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٧٠ .

الروسي- الدرزي، وتردد هؤلاء في الدخول إلى بيروت، لمحاربة الجزار، الذي كان يستغل الفرص، في مباغتة الطرفين، نظرا لشجاعته، وكثرة عدد جنوده المغامرين، الذين يستمدون صمودهم من المصلحة واليأس[١]، فالمصلحة بالنسبة لهم، أن يستقل الجزار ببيروت، وتكون الموطن، الذي يوفر لهم سبل العيش، في ظل روح المغامرة، التي يرغبون بها، تحت قيادة رجل يتصف بصفة المغامر، مثل الجزار. واليأس من أن تسقط بيروت، بيد الدروز والروس، فتعود بهم الكرة إلى ما كانوا عليه.

بعد أن خرج الجزار من بيروت، توجه بصحبة يعقوب الصقلي إلى ظاهر العمر، واخذ معه نفرا قليلا من الجند، بالإضافة إلى الأموال الموجودة في بيروت، فاستقبله ظاهر بالبشاشة والإكرام، وأقام عنده أياما يسيرة، ثم وجهه ظاهر العمر، لجمع الأموال الأميرية، من نواحي جبل نابلس[٢] فذهب بهذا الشأن، وجمع الأموال من هناك، وانحاز إليه عسكر غريب من أهل المنطقة، فارسل له ظاهر أحد أبنائه، كي يقبض عليه، لكن الجزار انتصر عليه وغلبه، وقال له : " إن أباك قدر علي واعتقني، وها أنا قدرت عليك وأعتقتك، فاذهب واخبر أباك "[٣].

أخذ الجزار الأموال التي جمعها من مناطق ظاهر، وفر بها إلى دمشق، ومنها إلى غزه، حيث كان يوجد عثمان باشا المصري، وفرح هذا لقدوم الجزار وأعطاه الجزار جزءا من المال، الذي كان يحمله[٤].

لم يمكث الجزار في غزه إلا قليلا، حيث توجه بعد ذلك إلى استانبول، وحمل معه الجزء المتبقي من المال الذي تقرب به للباب العالي[٥]، وأخبر الدولة عما جرى في بيروت، وعن أحوالها، واشتكى على ظاهر العمر[٦].

---

[١] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٧٠ .

[٢] المنير - الدر، ص ٢٦٩ ؛ جودت- تاريخ جودت، مج ١، ص ٣٧٧ .

[٣] المنير - الدر، ص ٣٧٠ .

[٤] أسعد منصور - تاريخ الناصرة، ص ٥٥ ؛ الخوري- مصطفى اغا، ص ٧٢.
Masson, Histoire, P. 293.

[٥] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١١٤ ؛ فينة الموسوعة- الجزار، الموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص٩٣.

[٦] المنير - الدر، ص ٣٧٧.

سادسا:- استيلاء الجزار على ولاية صيدا.

أ - حملة حسن باشا الجزائري، ضد ظاهر العمر.

عندما وصل الجزار إلى استانبول، اخذ يتقرب إلى رجال الدولة، ويسعى إلى كسب رضى السلطان، ويقول الشهابي: " اخذ الجزار يتقرب إلى الأبواب السامية، ويتوصل لأرباب المراتب العالية، حتى استباح فيض مواهب السلطان وإنعامه، ودخل في بعض رجاله، وخدامه، فقلده الوزارة السنية، فنبغ بالخدمة الملوكية "[١] فاستطاع الجزار إثبات جدارته، كضابط يمتلك مواهب خاصة، وأن يكسب رضى السلطان، فقلده الوزارة وولاه متصرفا على "قرى حصار"[٢] وكان الجزار حازما، فطنا، يتقن استغلال الظروف، والمناسبات للوصول إلى المناصب الرفيعة.

أرسل محمد بك أبو الذهب إلى الدولة العلية في سنة ١٧٧٥م، يخبرها بمفاسد علي بك، حتى وفاته، وأنه يطلب من الباب العالي، السماح له بالمسير إلى الشام، لتأديب ظاهر العمر، واستخلاص مدن الإسلام من يده، وتحصيل أموال علي بك منه، فسمحت له الدولة العثمانية بذلك، فجهز حمله، وسار بها حتى وصل عكا، ففر الشيخ ظاهر بماله، ورجاله، إلى نواحي صيدا، واجتمعت إليه الشيوخ تهنئه، حتى ينالوا رضاه. إلا أنه وفي أثناء إقامته في صفد، مات هناك في حزيران ١٧٧٥م، ورجعت عساكره إلى مصر، في الذل والقهر، وحملوا جثمانه في تابوت، ودفنوه في الجامع، الذي بناه في مصر[٣].

أصدرت الدولة العثمانية، أوامرها إلى القبطان حسن باشا الجزائري (الذي عين قبطان باشا الأسطول العثماني في سنة ١٧٧١م) بالتوجه إلى الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الشام، بعد وفاة محمد أبو الذهب، وفشل حملته ضد ظاهر العمر[٤]. ورافق الجزار هذه الحملة بعد أن رقي إلى رتبة بكلر بك (له طوخين)*.

عين الجزار واليا على عكا، والسواحل الجنوبية الغربية لبلاد الشام[٥]، ومنحته الدولة لقب حامي الساحل السوري. وصل الجزار برفقة حسن باشا إلى صيدا، في تموز ١٧٧٥م،

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١١٥.

[٢] الخوري- مصطفى أغا، ص ٦٥.

[٣] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٥٤-٦٧ ؛ غرايبة- تاريخ العرب، ص ٤٩.

[٤] الصباغ- الروض الزاهر، ص ٣٣.

* طوخ: ذيل حصان معلق في سارية وفي أعلاه كره ذهبية، ويحق للسنجق رفع طوخ واحد. أما (البكلر بكي أي بك البكوات أو أمير الأمراء وهو لقب إداري عثماني) فله طوخين، والوزراء أو الباشوات لهم ثلاثة أطواخ، والصدر الأعظم خمسه، وأكثرهم رتبه هو السلطان حيث تتقدمه سبعة أو تسعة أطواخ. انظر، جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج ١١، ص ١٩٧ ؛ بني المرجة- صحوة الرجل، ص ٤٥٧ ؛

[٥] جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص. Huart, Djazzar Pasha, E.I, P. 1033.

حيث قام حسن باشا، بتسليم مدينة صيدا، إلى محمد باشا مليك (أحد سناجق حلب)، ثم استأنفت حركة الجيش باتجاه حيفا، واستولى عليها في ١٠- أب- ١٧٧٥م[١].

ب - نهاية ظاهر العمر.

أجرى حسن باشا الجزائري مفاوضات مع ظاهر العمر، وطلب منه أن يدفع الأموال الأميرية، المكسورة عليه[٢]، وعقد ظاهر مجلساً مع أعوانه للتداول في الأمر، فكانت النتيجة لهذا الاجتماع، متأرجحة بين الرأي بدفع المال، والرأي الأخر المعاكس، فكان رأي احمد آغا الدنكزلي (من أعوان ظاهر، ومتسلم مدينة صيدا)، أن يدفع ظاهر العمر الأموال المترتبة عليه للدولة[٣]، ويكون هو الوسيط بين حسن باشا وظاهر العمر.

أما بالنسبة للرأي المعاكس، فكان يمثله إبراهيم الصباغ، (متسلم جميع أموال ظاهر) فقد رأى عكس ما رآه الدنكزلي، بأن لا يدفع شيئاً من المال، وكان جوابه في هذا الموضوع : أن ظاهر لا يملك المال بل يملك الرصاص والرجال[٤].

يتضح أن هناك اختلافاً في الروايات، بين مؤيد لدفع المال، للتخلص من حسن باشا وحملته، ومعارض للدفع، والدعوة إلى الحرب، لكن ما يجدر بالإشارة ذكره، هو أن الدولة العثمانية، كانت تنوي التخلص من ظاهر العمر، سواء أنه دفع مال الميري، أم لم يدفع، فقد كانت هذه الحملة، مكملة لحملة محمد بك أبي الذهب الفاشلة، وكان الهدف منها التخلص من ظاهر العمر، والأسرة الزيدية، لما سببوه من متاعب ومشاكل للدولة، أثناء صراعها مع الدول الكبرى خاصة روسيا[٥].

أيضاً من الأدلة على نية الدولة بالتخلص من ظاهر، هو تعيين الجزار بديلاً له في عكا، وبهذا يتبين، أن الأموال الميري المكسورة على ظاهر العمر، هي تحصيل حاصل بالنسبة للدولة، سواء عن طريق قائد الحملة، حسن باشا، أو عن طريق الوالي الجديد لعكا، احمد بك الجزار.

---

[١] الصباغ- الروض الزاهر، ص ٢٣٢ ؛ الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤٤.

[٢] الصباغ- الروض الزاهر، ص ٣٤.

[٣] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٦٨.

[٤] بريك- تاريخ الشام، ص ١١٤ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٦٦ ؛ لوكروى- الجزار ص ١٠٧ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٩٤. Volney, Travels, II, P. 129.

[٥] الصباغ- الروض الزاهر، ص ٣٢-٣٣. Cohen, Palestine, P. P. 50-51.

ج – تولية الجزار صيدا، وتصفية النفوذ السياسي الزيداني.

كان للجزار دور مهم في إقناع الدولة، بالتخلص من ظاهر العمر، فقد عمل على إقناع الدولة، بإرسال حملة لاستخلاص صيدا، وملحقاتها، من يد ظاهر العمر.

وقد أيد هذا الرأي بعض المؤرخين، منهم (مشاقة ومانتران) بإشارتهم إلى أن وشاية الجزار بظاهر، لدى السلطان، كان لها أثر كبير، في حملة الجيش العثماني، ضد ظاهر العمر[١].

وصل الأسطول العثماني أمام عكا، في ١٩- آب- ١٧٧٥م، وحاصرها، وأمر حسن باشا بقصفها، فحاول ظاهر الفرار، لكن أحد المغاربة أطلق عليه النار، فأرداه قتيلاً، وتجمع الجند المغاربة حوله، وقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى حسن باشا، في ٢٢- آب- ١٧٧٥م[٢].

دخل حسن باشا عكا، بعد مقتل ظاهر، ونادى بالأمان للناس، وكان معظم سكان المدينة قد هربوا، إلى داخل البلاد، عند قدوم حملة حسن باشا، خوفاً من وقوع الحرب، وكان يرافقه الجزار، الذي حضر لتسلم منصبه الجديد، (والياً لعكا) وعادت المناطق التي كان يحكمها ظاهر العمر، إلى ولايتي، صيدا و دمشق[٣].

عندما باشر الجزار حكمه في عكا، عمل على ضبط أموال أعوان ظاهر العمر[٤]، حيث لم يكن لديه مال، ويقطن سرايا ظاهر المتهدمة، وبعض الجنود يقومون وحدهم على حراسة الباب. وكانت الحقول خاربة، ولا تعد بموسم طيب. والمدينة التي غادرها سكانها أشبه بمدينة أموات. لكن الجزار كان أقوى من أن يضعف أمام هذه المعطيات، فأخذ يجمع التركة المادية والإدارية، التي خلفها ظاهر العمر، وأعلن بأنه سيتملك الأثاث والبضائع، مما لا يطالب به أصحابه في ثلاثة أيام، فعاد أهالي عكا إليها، ومنعهم الجزار بعد ذلك من الخروج منها[٥].

عملت الدولة العثمانية، على توحيد النفوذ العثماني، في جنوب غرب بلاد الشام، الذي أصابه التدهور خلال الفترة السابقة ، فرأت في الجزار واليا، يتمتع بالشخصية القوية، الفذة، والطاعة التامة للدولة.

ظلت المنطقة الواقعة خلف عكا في الداخل، واغلب الجليل، تحت سلطة أبناء ظاهر، وخشي السلطان العثماني، أن يبقى الميناء في عزلة عن المناطق الداخلية، فقرر توسيع سلطة

---

[١] مشاقه- مشهد العيان، ص ٦٦ ؛ مانتران- تاريخ الدولة، ص ٥٧٨.

[٢] الصباغ- الروض الزاهر، ص ٣٦ ؛ الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١١٣ .

[٣] عمر عبد العزيز- تاريخ المشرق، ص ١٨١.

[٤] العورة- تاريخ ولاية، ص ٥٩.

[٥] لوكروى- الجزار، ص ١١٢-١١٤ ؛ عبد الغني عماد-السلطة، ص ٧٨-٧٦ .

الجزار، وترقيته إلى رتبة أعلى، ففي شهر كانون الأول ١٧٧٥م، حضر فرمان بترقية الجزار، إلى وزير بثلاثة اطواخ[١]. وتعيينه واليا على صيدا، بعد عزل محمد باشا مليك، الذي حاول أن يجمع الميرى، المفروض على جبل عامل، لكن المشايخ أمتنعوا عن إعطائه ما كانوا يدفعونه سابقا، وهو اقل بكثير مما طلب منهم، فوجدت الدولة بشخص الجزار، رجلا قادرا، على أن يثبت مركزية الحكم العثماني في المنطقة، وأن يقضي على أبناء ظاهر العمر[٢].

وثمة أسباب أخرى لتعيين الجزار واليا على صيدا، هو انه وفر للدولة، موقعا استراتيجيا هاما، في صراعها ضد ظاهر العمر، وذلك باشتراكه في الحروب مع الأمير يوسف، ضد ظاهر واعوانه، إلى استيلائه على بيروت واعلانه الولاء فيها للدولة العثمانية ضد ظاهر العمر، والروس، حيث يكون الجزار بهذا، قد أمن للسلطات العثمانية في دمشق، سبيل الاتصال بالأستانة، حيث كانت بيروت هي الميناء الوحيد المتبقي تحت الإدارة العثمانية، على طول الشاطئ، من مصر إلى طرابلس[٣]، إضافة إلى الخبرة، التي اكتسبها الجزار، عن السياسة العثمانية، أثناء ترحاله من والى استانبول.

لذا عملت الدولة العثمانية، على توطيد النفوذ العثماني، في جنوب غرب بلاد الشام، الذي أصابه التدهور في الفترة السابقة، وركزت الدولة على زيادة الفاعلية الإدارية فيها، مما أتاح للجزار، أن يكون الوالي الأقوى في صيدا، عبر تاريخها في القرن الثامن عشر[٤].

بعد أن تم القضاء على ظاهر العمر، استمر حكم أبنائه في معظم منطقة الجليل، ووجد الجزار أنه بدون التخلص من قوة الزيادنة، فأن سلطته، سوف تبقى سلطة اسمية[٥].

اتبع الجزار سياسة اللين في البداية، مع أبناء ظاهر، حتى يستميلهم إلى جانبه، عن طريق المسالمة، والمصادقة، والعروض السخية، وسمح لهم، ولأنصارهم، بدخول عكا، والخروج منها، كما يشاؤون، بل اعترف بهم رسميا حكاما على المناطق الخاضعة لهم[٦].

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١١٥ ؛ لوتسكي- تاريخ الاقطار، ص٤. Volney, Travels, II, P. 183.

[٢] سليمان- تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٦ ؛ يني جرجي- تاريخ سوريا، ص ٨١ .
Rafeq, The Province, P. 308.

[٣] مانتران- تاريخ الدولة العثمانية، ج ١ ص ٥٧٨ .

[٤] المصدر نفسه،ج ١، ص ٥٧٨.

[٥] لوكروى- الجزار، ص ١١٢ . Cohen, Palestine, P. 98.

[٦] سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٧ .

إلا أن علي ظاهر العمر، تمرد على الجزار، واهتم بتقوية جيشه، وبسط سلطته على معظم المناطق، التي كانت تحت حكم أبيه، واتخذ من صفد عاصمة له[١]، غير أن الجزار، جرد علي الظاهر من مساندة أخويه، فاعترف بحكم عثمان الظاهر لمنطقة شفا عمرو، وعينه شيخ مشايخ، واعترف بأحمد حاكما على منطقة طبرية[٢].

اشتد العداء بين الجزار وعلي الظاهر، وجرت معارك كثيرة بينهما، إلى أن استطاع الجزار أن يسيطر على الجزء الغربي من الجليل، حتى قرية الرامة شرق عكا بـ ٢٩ كم[٣].

تحصن علي الظاهر في دير حنا، ففرض الجزار الحصار عليها في شهر أيار سنة ١٧٧٦م واستمر محاصرا لها حتى شهر حزيران من السنة نفسها، واستعان الجزار بعد ذلك، بحسن باشا، فأعانه بمدفعين كبيرين، وثلاثمائة من رجاله، فتغلب الجزار بهذه الإمكانات، على قوة علي الظاهر، مما اضطر الأخير إلى الهرب. واستسلمت القوة الموجودة في دير حنا للجزار[٤]، فسيطر الجزار بذلك، على طبرية وبلاد صفد، فلم يعد بحاجة إلى أبناء ظاهر، فقام بتسليمهم إلى حسن باشا وهم (عثمان، صالح، صلاح الدين، سعيد) ونقلهم هذا إلى استانبول لمعاقبتهم[٥].

أما بالنسبة لعلي الظاهر، فقد استمر ينتقل من منطقة إلى أخرى، واستطاع بالنهاية القيسرلي آغا رئيس فرقة اللاوندية (رجال البحرية العثمانية) التي تخدم عند محمد باشا العظم (والي الشام) من قتل علي الظاهر، وتسليمه لمحمد باشا العظم، وهذا بدوره، أرسل رأسه إلى استانبول، لينال شرف إرساله للدولة العثمانية[٦].

وبهذا يكون الجزار، استطاع السيطرة التامة على الجليل، وأن يضبط أموره، وذلك بعد القضاء على أفراد الأسرة، التي كانت تحكم المنطقة، قبل تسلمه مهام ولايته لصيدا[٧].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 93.

(٢) Volney, Travels, II, P. 35.

(٣) Cohen, Palestine, P. 94.

(٤) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١١٨ ؛ بريك- تاريخ الشام، ص ١١٥. Volney, Travels, II, P. 136.

(٥) بريك- تاريخ الشام، ص ١١٥ ؛ الدبس- تاريخ سوريا، مج ٧، ص ٣٩٩ ؛ علي الزين- جبل عامل في عهد الجزار- العرفان، مج ٦١، ع ٨، ص ١١٤٥.

(٦) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٥-٧٦ ؛ بريك- تاريخ الشام، ص ١١٢ ؛ المنير- الدر، ص ٢٣.

(٧) بريك- تاريخ الشام، ص ١١٥. Cohen, Palestine, P. 98.

كان هناك تعاقب متسارع للولاة، الأمر الذي كان يحول بينهم، وبين أن تكون لهم سياسة أخرى، غير الإستقلال بأسرع ما يمكن للولاية، التي عهد بها إليهم لمدة محدودة، ففي النصف الأول من القرن الثامن عشر، تعاقب على صيدا أربعون واليا، وفي القرن الثامن عشر، نجح رجلان قويان في فرض سلطتهما، وهما ظاهر العمر، وأحمد باشا الجزار.

ففي الفترة التي بدأت فيها الإصلاحات الإدارية في صيدا، وفترة الحكم الطويل، استطاع الجزار الوصول إلى السلطة، وأن يثبت حكمه في صيدا، والمناطق التابعة لها، تحت حكم الدولة العثمانية.

الفصل الثاني

سياسة الجزار في الحكم وعلاقته بالدولة العثمانية والقوى الأخرى المجاورة

أولاً : سياسة الجزار العامة في الحكم.

ثانياً : علاقة الجزار بالدولة العثمانية.

أ - سياسته تجاه الدولة حتى سنة ١٨٠٢.

ب- حصار يافا.

ج- رضى الدولة عن الجزار.

ثالثاً : علاقة الجزار بحكام مصر.

أ - سياسته تجاه حكام مصر.

ب- نظام نامه مصر ونتائجه على الجزار.

رابعاً : ثورة المماليك.

أ - تحالف المماليك ضد الجزار.

ب- هزيمة المماليك.

خامساً : علاقة الجزار بالقوى البدوية.

سادساً : علاقة الجزار بولاة دمشق.

أ - المرحلة الأولى (١٧٧٥-١٧٨٣).

ب-المرحلة الثانية (١٧٨٥-١٨٠٤).

سابعاً : علاقة الجزار بالشهابيين.

١- علاقته بالأمير يوسف.

أ - المرحلة الأولى (١٧٧٥-١٧٨١).

ب-المرحلة الثانية (١٧٨٣-١٧٨٩).

٢- عهد الأمير بشير ابان حكم الجزار لولاية صيدا.

أ - نهاية الأمير يوسف.

ب- المرحلة الأولى (١٧٩١-١٧٩٩).

ج- المرحلة الثانية (١٨٠٠-١٨٠٤).

ثامناً : علاقة الجزار بالمتاولة.

أ - مرحلة التعايش السلمي معهم.

ب- موقعة يارون.

ج- مرحلة الصراع معهم والقضاء على نفوذهم.

أولا:- سياسة الجزار العامة في الحكم.

لقد أثبت الجزار، من خلال مشواره السياسي، أنه أحد رجالات السياسة المحنكين، الذين ظهروا في القرن الثامن عشر. وكان لسياسته في شتى المجالات والعلاقات، الدور الأكبر في صنع دولة، داخل دولة. فقد كان الجزار فطنا، ذكيا يتحسس الأحوال، ويتبصر عواقب الأمور، ولديه إلمام بفنون الإدارة. فكثيرا ما كان يطوف المحلات، الداخلة في إيالته وهو متخف، كما كان يتجول في لبنان، ويسمع أقوال الناس عنه[١].

تخلى الجزار عن مدينة صيدا، التي تعاقب جميع الباشوات، الذين حكموا الولاية، على الإقامة فيها، وإدارة الحكم منها، حيث كان الجزار على معرفة تامة، بما يصيب الولاة العثمانيين، حين تشعر الدولة بأنهم قد قووا وأصبحوا يشكلون خطرا عليها. وبما أن عكا منيعة الجانب، لتحصيناتها القوية، بينما كانت صيدا مهددة من كل الجوانب، وبدون تحصينات، فقد اختار الجزار عكا، لتكون مقرا لإدارة الولاية[٢]. وكان يقيم عشرة اشهر في عكا، وما تبقى من السنة في صيدا. وهكذا بدأ الجزار حكمه حصين الموقع، حازم الإدارة، متمسكا بالسلطة بكل السبل المتاحة. يقول لوكروى : " كان الجزار مضطرا أن يرشي الوزراء، وأعضاء الديوان، حتى نساء السلطان أحيانا، ليحصل على التجديد "[٣]. فالجزار يعلم، أن استمراره في الحكم، مبني على قدر المال الذي يرسله للسلطان. فقد قال يوما : " السلطان كالبنات، يعطي نفسه، لمن يعطيه أكثر "[٤].

إضافة إلى أنه، كان يستقدم الجنود المطاردين، والمحكوم عليهم بالإعدام، ويجعل منهم حامية له، لا يعصون أمره، ولا يطيعون غيره[٥]. لذلك يتفق الشهابي والخوري في أن سياسة الجزار الحازمة والقوية مكنته من السيطرة على دفة الحكم، طيلة فترة حكمه. ومثال سياسته الحازمة، قتله الجماعي لكثير من أهل عكا، عندما تسلمها[٦].

---

[١] نوفل- كشف اللثام، ص ٢١٧ ؛ الخوري- مصطفى أغا، ص ٦٦.

[٢] الفقيه- جبل عامل، ص ٢٥٩.

[٣] لوكروى- الجزار، ص ١٣٥.

[٤] الريحاني- النكبات، ص ١٣٤.

[٥] لوكروى- الجزار، ص ١٢٠.

[٦] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١١٢-١١٣ ؛ الخوري- مصطفى أغا، ص ٦٥-٦٦.

وبقدر ما تحدثت مصادر ومراجع، عن ظلم الجزار، تحدثت أخرى، عن دهائه وحنكته، ومنهم غيز فيقول : " كان الجزار سياسياً داهية "[١].

ويتضح ظلمه، في قتله الكثير من الخلق، في سبيل ديمومة سلطته. لكن هذا لا ينفي جوانبه الإيجابية، فقد كان يطعم الفقراء، ويوظف من شوه أجسادهم، ويزوج أرامل الرجال الذين قتلهم[٢].

أما ما يصف به الجزار نفسه، عند مقابلته للكولونيل الفرنسي " سيباستيان Sebastiani" في ٢٠- تشرين الأول- ١٨٠٢ فيقول : " إن الناس يقولون أن الجزار، رجل غليظ الكبد، خشن الطبع، وهو في الحقيقة، قاس بعدل، أو عادل بقساوة، وإني اطلب إليك، أن ترجو من القنصل الأول " بونابرت " أن لا يبعث إلي بمفوض للشؤون التجارية، من ذوي العاهات، إني أريد رجلاً سليماً، لا عرج فيه، ولا عور، حتى لا ينسب إلي، أني كسرت ساقه، أو سملت عينه "[٣].

يمكن وصف سياسة حكم الجزار، بقول رافق : " حكم الجزار مدة طويلة ... وحافظ على سلطته بالقوة ... واعتمد في قوته على المماليك ... ورضي السلطان بوجوده، رغم ازدياد سلطته وبطشه، بسبب قوته، وإخضاعه القوى المحلية والخارجية "[٤].

وبغض النظر عما سبق، يمكن لنا أن نستشف سياسة حكم الجزار، من خلال علاقاته مع الدولة العثمانية، والقوى الأخرى التي كان لها تأثير، في محيط حكم الجزار.

---

[١] غيز- بيروت، ص ٨٥.

[٢] هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٦.

[٣] إسماعيل- الصرع (الوثائق)، ق١، ج١، ص ٢٤٩.

[٤] رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٥.

ثانيا – علاقة الجزار بالدولة العثمانية :-

أ- سياسته تجاه الدولة حتى سنة ١٨٠٢.

اثبت الجزار في فترة حكمه ولاءه للدولة العثمانية، خلافا لما عرف عنه من خيانة، وغدر. ففي الفترة التي استبدت فيها العصبيات، والقوى المحلية، بالسلطة في مناطقها، ودخلت في منازعات محلية، مع جيرانها، ومع العصبيات المجاورة، من أجل النفوذ، كان الجزار ينفذ مطالب الدولة، قدر استطاعته. وفي الوقت نفسه، كان يعمل على بناء موقع لنفسه، بين القوى المتصارعة، لكنه لم يخرج على الدولة، في وقت كان يمكنه فيه بسهولة، أن يفعل. فقد توافرت له القوة، والمال، والجيوش، لكنه استمر على ولائه للدولة، وكان أحد عناصرها المؤثرة، في صراعها ضد القوى المحلية[1].

بدأ الجزار، سلسلة حياته السياسية، بوقوفه إلى جانب الدولة العثمانية، ضد أعدائها. ومثال ذلك، وقوفه ضد الروس، عندما اخذ بيروت من الأمير يوسف الشهابي، وإعلانه الولاء والطاعة للدولة فيها. (انظر الفصل الأول)

كان الجزار يسعى للفوز ببركة الباب العالي، فأنزل ضربات شديدة بالإقطاعيين، والمشايخ في فلسطين، وجنوب لبنان، فرضي السلطان بوجوده رغم ازدياد سلطته وبطشه [2].

فالدولة بحاجة إلى وال قوي، لاستعادة سلطتها على فلسطين. لكن المكانة التي أمنها الجزار لنفسه بسرعة، تقود الباب العالي إلى التفكير، في نقله إلى منصب يكون فيه، تابعا اكثر انصياعا. لكن الباب العالي لم ينجح في مسعاه، ففي عام ١٧٨٢م، جرى التفكير في إرساله واليا على البوسنة، لكنه رفض الإذعان لذلك. وفي عام ١٧٨٤م جرى التفكير في إرساله إلى مصر، لمحاربة البكوات، لكنه تملص من هذه المهمة، وفي سنة ١٧٨٨م جرى تعينه واليا على الرقة، إلا انه فضل عكا عليها[3].

رغم المحاولات السابقة من الدولة، للتقليل من سلطة الجزار، بإبعاده عن عكا، إلا انه لم يعلن عصيانه ضدها، ولم تعلن بدورها غضبها عليه، إلا سنة ١٨٠٢م،عندما حاصر يافا، ويقول جودت بذلك : " على الرغم من أن أركان الدولة، كانوا في خوف دائم، من اكتسابه القوة في تلك

---

(١) جب و بوون- المجتمع، ج٢، ص ٢٣١ ؛ التميمي- الولايات، ص ٦٢.

(٢) توما- فلسطين، ص ٦٥ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٥ ؛ مخول- عكا، ص ٧٩.

(٣) مانتران- تاريخ الدولة، ج١، ص ٥٨٠.

المناطق، إلا انهم لم يجرؤوا على اقتلاعه منها، وبقدر ما كان له معارضون من الوزراء، كان له ايضاً مدافعون عنه[١].

إن الخلعة التي يقدمها السلطان للجزار، وغيره من الحكام، تتم كل سنة، وهذه الممارسة مهمة، في كل أرجاء الإمبراطورية العثمانية. فكانت أوقات التجديد تمر على الجزار بصعوبة. كان عليه أن ينال من السلطان، تجديداً في كل سنة، وفي كل سنة، كان يخاف أن يخسر هذا التجديد. ويعتمد بقاء الوالي في ولايته، في الدرجة الأولى، على قدرته على جمع الضرائب، وإرسالها للسلطان[٢].

نجح الجزار سنة ١٧٨٥م في فرض رأيه على الدولة العثمانية، بتعيينه حاكما على ولاية دمشق، وتعيين نائبيه سليم وسليمان في صيدا وطرابلس، نظرا لقوته الاقتصادية والعسكرية. إضافة إلى سخائه تجاه الأستانة، الذي هيأ له أن يحكم سوريا كلها، ويلقب بنائب السلطان في سوريا، وحاكم لبنان[٣].

رغم أن الجزار كان حراً في ولايته، بشكل شبه كامل، إلا انه حافظ على أسطورة طاعته، وولائه للسلطان. أما الباب العالي، فلم تكن تخاطره بطبيعة الحال، أية أوهام، فيما يتعلق بطاعة الجزار، حيث انه كان يراعي الأشكال اللائقة للاحترام، وإيرادات الولاية تدفع بانتظام، ومهما تأخر الجزار بالتزاماته هذه إلا انه كان يوفي بها[٤].

عندما أعلنت الدولة الحرب على فرنسا سنة ١٧٩٨م، أرسلت للجزار سبعمئة (٧٠٠) جندي، للوقوف إلى جانبه في الحرب ضد الفرنسيين. فطلب الجزار من الدولة أن تحيل منصب الشام له، فوافقت على ذلك، فأخذ الجزار منصب أمير الحج، ووالي الشام وطرابلس، وملحقاتها، ومتصرف القدس ونابلس، وسر عسكر الحجاز، على أن يجهز جيشا كبيرا لمساعدة العثمانيين في طرد الفرنسيين من مصر[٥]. إلا أن سياسة الجزار الحذرة جعلته ينتظر في عكا ويرسل قوة غير كبيرة حتى يحافظ على قوته الضخمة[٦].

---

[١] جودت- تاريخ جودت، ص ٣٧٨.

[٢] شوفاليه- مجتمع جبل، ص ١٨١ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٣٥ ؛ سليمان- ولاية صيدا، تاريخ العرب والعالم، ع ١٧، ص ٤٤.

[٣] مانتران- تاريخ الدولة، ج١، ص ٥٨١،٥٧٨ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٢٠ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٤٠. Volney, Tranvels,II,P.183.

[٤] مانتران- تاريخ الدولة، ج١، ص ٥٨١ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٣٧.

[٥] سجل محكمة القدس- رقم ٢٨٦، ص ٦٣ ؛ سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص ٣٢٧.

[٦] عوض- فتح مصر، ص ٣٠١.

بعد انتصار الجزار على " بونابرت Bonaparte "، قوي بأسه، ورأى في نفسه الرجل القوي، الذي يأتمر بأمره الجيش القوي، فحاول السلطان سليم الثالث، الذي تولى السلطة في (١٧٨٩-١٨٠٧)، أن يحد من نفوذ ولاته، خاصة الجزار، فخاض نضالاً عنيداً ضد ميول ولاته الإنفصالية(١). ووصلت الشكاوي الكثيرة على الجزار، خصوصاً من الفرنسيين، الموجودين في صيدا، وعكا. ولكن دون جدوى، حيث يقول "براون Browne " : " من المشكوك فيه، أن الباب العالي، كان قادرا على معاقبة الباشا "(٢).

حضر وزير الصدارة العثمانية " يوسف ضيا باشا " سنة ١٨٠٠م لمحاربة الفرنسيين، وإخراجهم من مصر، ولم يقدم له الجزار أي معونة تذكر. فاقتطع هذا بعض المناطق من لبنان، للأمير بشير الشهابي، ومنحه الحكم الذاتي فيها، إلا أن الجزار رفض هذا الإجراء، مستغلاً تذمر الفلاحين، من الأمير بشير، وأعاد تلك المناطق إلى حكمه المباشر(٣). وعندما عاد الصدر الأعظم من مصر، قام بتعيين محمد باشا أبو مرق، أحد قادة ضيا باشا، متولياً على مدينة يافا، سنة ١٨٠٢م، فأثار هذا الحدث، حفيظة الجزار، الذي كان يأمل، من الدولة العلية، أن تضيف إلى حكمه ولاية مصر، نظراً لانتصاره الباهر على الفرنسيين(٤). فتغيرت سلوكيات الجزار من هذه اللحظه، لكنه لم يعلن الثورة على الدولة.

ب - حصار يافا :-

كان الجزار يطمع في أن يتولى حكم ولاية مصر، خاصة بعد استشارته من قبل الدولة، سنة ١٧٨٥م، لمعرفة أنسب الوسائل التي تعاد بها مصر، إلى حظيرة الدولة العثمانية، وتأديب المماليك، القائمين على الحكم فيها. وظلّ هذا الحلم يراود الجزار، متوقعاً في أي لحظة أن تمنحه الدولة ما أراد. وبعد انتصار الجزار على الفرنسيين، في عكا، توقّع أن يكون هذا هو الوقت المناسب، الذي طالما انتظره بفارغ الصبر، إلا أن أفعال ضيا باشا، المذكورة سابقاً، عصفت بأحلام الجزار أدراج الرياح. وكانت ردة فعل الجزار تجاه الدولة، أن امتنع عن مساعدة الجيش العثماني، المتوجه إلى مصر(٥).

(١) لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.

(٢) Macalister, Brownes, Travels,P.E.F.Q.S, P. 138 .

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٧ ؛ المنير- الدر، ص ٤٧١ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.

(٤) التميمي- الولايات العربية، ص ٦٩.

(٥) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٩٥، تاريخ الجزار، ص ١٣٧.

توجه الجزار لحصار يافا، سنة ١٨٠٢م، لطرد محمد أبي مرق، المتولي للحكم من قبل الدولة. وأرسل أبو مرق الشكاوي للدولة بحق الجزار، فأرسلت الدولة للجزار بان يكف عن حصار يافا، إلا أنه لم يرتدع[١]. فأعلنت الدولة غضبها على الجزار، وان على عبد الله باشا والأمير بشير الشهابي أن يكونا في نصرة أبي مرق. وأصدرت الدولة فرمانا بهذا الخصوص، إلى متسلم طرابلس، مصطفى آغا بربر : " قد انتشرت الأوامر العلية على سائر الأطراف ... أن كل من يتبع الجزار قد خرج عن الطاعة، ووجب على كل مسلم قتاله، بموجب فتوى شريفة ... وأن المذكور، في تاريخ هذا النطق، قد إنطرد، وبعد من الدولة العلية ... ويكون معلوم عند الجميع، أن الجزار، مغضوب الله والرسول، وقد حل قتاله وجاز "[٢].

وأرسلت الدولة بعد ذلك، الإمدادات إلى أبي مرق، إلا أن سوء حظه، كان يجعل الرياح تجذب السفن التي تحمل الإمدادات، إلى شواطيء عكا، فيستولي عليها الجزار[٣]. وشدد الجزار الحصار على يافا، فأكل الناس الدواب لقلة الإمداد[٤].

استطاع أبو مرق الفرار من يافا خفية. وعند الصباح سلم أهل يافا المدينة إلى عسكر الجزار، فأرسل الجزار متسلما من قبله إلى يافا، ورجع عسكر الجزار إلى عكا سنة ١٨٠٣م[٥].

ج- رضى الدولة على الجزار :-

بعد استيلاء الجزار على يافا، وهروب أبي مرق منها، اعتذر الجزار للباب العالي، وأرسل إليه المال والهدايا، وبرر له حصاره ليافا، انه كان بسبب، معاملة أبي مرق القاسية وظلمه، وتعديه على رعايا الدولة العلية، وأن أوامر الدولة للجزار بالفك عن المدينة، لم تصل إليه، إلا بعد دخوله لها[٦]. ويرى " باركر Barker " أن الجزار لم يتمرد على الدولة أثناء حصاره يافا، بقوله : " لا يمكن القول أن الجزار باشا، كان متمردا على الباب العالي، بل كان يقر بالسلطة العليا للسلطان، وقد انفق كثيرا في المحافظة على ولايته "[٧].

---

[١] الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٩٥، تاريخ الجزار، ص ١٣٧.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٥٩-١٦٢ ؛ العورة- تاريخ ولاية، ص ٧٧. Cohen, Palestine, P. 63.

[٣] العورة- تاريخ ولاية، ص ٧٧ . Cohen, Palestine, P. 63.

[٤] الشهابي-لبنان، ج٢، ص ٣٧٠ ؛ العورة- تاريخ ولاية، ص ٧٧.

[٥] الشهابي-لبنان، ج٢، ص ٣٧٠ ؛ العورة- تاريخ ولاية، ص ٧٧ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٤٠،٢٤١.

[٦] الشهابي-تاريخ الجزار، ص ١٦٢؛ العورة- تاريخ ولاية، ص ٧٩.

[٧] Barker, Syria, I, P. P. 60-62.

رضيت الدولة على الجزار بعد ذلك، خاصة وأن الخطر الوهابي، اشتد في الحجاز، فقامت بعزل عبد الله باشا عن ولاية الشام، وتولية الجزار على ولايتي مصر والشام وصيدا وطرابلس وسر عسكر الحجاز[1].

وبهذا يكون الجزار، قد توصل إلى الحلم الذي طالما بحث عنه، وعمل من اجله، ويلخص " طيباوي Tibawi " علاقة الجزار بالدولة، بقوله : " إن الحكومة العثمانية، دعمت الجزار في وظيفته لفترة طويلة على نحو استثنائي، حيث نجح في تأكيد سلطته شمالا إلى طرابلس، وجنوبا إلى الحدود المصرية، دعما استثنائيا عن غيره، لأنه نجح في تثبيت سلطته بفعالية، على الرؤساء المتمردين ... ونجح في إرسال الحصة التي تعهد بإرسالها على نحو منتظم، إلى الخزانة الإمبراطورية ... ووضع الموانيء البحرية مثل طرابلس وبيروت وصيدا وعكا تحت سيطرة الحكومة المباشرة "[2].

ثالثا :- علاقة الجزار بحكام مصر.

- سياسته تجاه حكام مصر.

بدأت علاقة الجزار، بمماليك مصر، منذ صباه، وقد كانت حياته السياسية في مصر، بين مد وجزر. فمرة يشارك في اللعبة السياسية ويمتنع في الأخرى عن المشاركة، لأسباب خاصة به. وما نود الوصول إليه، هو التكوينات السياسية، التي تشكلت لدى الجزار، أثناء وجوده في مصر، والتي عملت بدورها، على تزويد الجزار، بالمعلومات الكافية عن مصر، وعن حكامها المماليك.

كان الجزار يحقد على محمد بك أبي الذهب، الذي إنفرد بالسلطة، بعد هروب الجزار من مصر، سنة (١٧٧٠)، وسقوط علي بك الكبير. وكان هذا الحدث، يعزز قدرا كبيرا من الحقد، على ورثة أبي الذهب، من المماليك المحمدية، وهم إبراهيم بك، ومراد بك، فكانت العلاقة التي تربط الجزار بهؤلاء، علاقة غرماء، يضمر كل منهم الشر لغريمه[3].

ونظرا للبعد الجغرافي، ما بين حكم الجزار في بلاد الشام، وحكم المماليك في مصر، كانت العلاقات السياسية، ما بين الطرفين، هادئة نوعا ما، بغض النظر عما كان يضمره، كل من الطرفين، للآخر من الأحقاد. إضافة إلى أن الجزار، بفضل سياسته المرنة، كان يعمل دائما، على

---

[1] سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص ٣٢٧، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٨٤ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٣٨-٢٣٩.

[2] Tibawi- A Modern History, P. 31.

[3] التميمي- الولايات العربية، ص ٦٤.

أن يبقى في وسط الميزان، العثماني – المصري. فعندما كان فرمان التجديد، يتأخر عن الجوار، كان يرسل لمماليك مصر الهدايا، ويشاورهم في الثورة على الدولة، متوقعا أنها ستنحيه عن الحكم. وكان المماليك بدورهم، يرسلون للجزار بالموافقة، لكن عندما تجدد الدولة حكم الجزار، لسنة أخرى، كان يرسل قواته، إلى بلاد الدروز، مقنعا المماليك، أن حربا غير متوقعة منعت الثورة[١].

أصدرت الدولة العثمانية، سنة ١٧٨٤م، أمرا إلى الجزار، بتجهيز حملة لتدمير المماليك في مصر، نظرا لثرائه، ووفرة قواته. وفي الوقت نفسه، تلقى الجزار الرسائل من المماليك، يذكرونه بتعهداته السابقة، بالتمرد معهم ضد السلطان العثماني. غير أن الجزار، استطاع التخلص من هذا المأزق، بالتلويح للطموحين في الأسرة الشهابية، بمنصب الأمير الحاكم، لخلق حرب أهلية بينهم، فتكون حجته قوية، لعدم مشاركة أي من الطرفين، أو الوقوف إلى جانبه[٢].

- نظام نامه مصر ونتائجه على الجزار.

عندما فكرت الدولة العثمانية، في ثمانينات القرن الثامن عشر، بإتخاد إجراء لتأديب مماليك مصر، وإعادة الولاية إلى حظيرة الدولة، في إطار توجه الدولة، في ذلك الوقت، إلى العودة إلى المركزية، واستعادة نفوذها، على ولايتها التي فقدتها، على مدى سنوات الضعف والتأخر، أرسلت إلى الجزار، للاستفادة من خبرته، ومعرفة رأيه، بأنسب الوسائل التي تعاد بها مصر، إلى حضيرتها.

لاشك في أن الجزار، بذل جهدا كبيرا، في سعيه للحصول على ولاية مصر، وتملكها والسيطرة عليها[٣]. فعندما أرسلت له الدولة، سنة ١٧٨٥، لتركن إليه في النصيحة، بشأن تأديب طغاة مصر، وجد أن هذه هي الفرصة، التي كان ينتظرها للوصول إلى مبتغاه، وكان رده على الإستجواب السابق، مبنيا على (من هو الشخص، الذي يستطيع أن يضبط أمور مصر، ويعيدها إلى نفوذ الباب العالي)، ويقدم وصفا لنوعية الأفراد، وأعداد القوات، الواجب إرسالها إلى مصر. ثم يصف الطريق، التي تسلكها الحملة العثمانية، لغزو المنطقة، ويحدد خطط سير الجانب البري من الحملة، حيث تمر هذه، في بعض المناطق التابعة لنفوذه، مثل دمشق، وخان يونس. ويصف البلاد المصرية بالتفصيل، فيتحدث عن نيلها، وموانئها، وقلعتها، وبواباتها، وفئات المصريين،

---

[١] لوكروى- الجزار، ص ١٣٦-١٣٧.

[٢] لوكروى- الجزار، ص ١٤٢-١٤٣ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب، ع ٥٥، ص ٥٣.

[٣] التميمي- الولايات العربية، ص ٦٥.

وعاداتهم. ويعدد أمراء المماليك، ومناصبهم، ورتبهم، ويصف حالة الحامية العسكرية العثمانية، في مصر. وبعد ذلك، يسهب بالشرح عن إيرادات الولاية، وموارد كل مصدر، من مصادر الإيرادات. كل ذلك، يدل على سعة إطلاع الجزار، بأحوال مصر، والسعي إلى إقناع الدولة، بأنه الشخص الملائم لهذه الحملة، حيث يورد وصفاً لهذا الشخص بما يلي : من الضروري، أن يكون قائد الحملة، قد سبق له وذهب إلى مصر، واقام فيها لسنوات عديدة، وشارك في الأمور الهامة فيها، وأن يكون شخصاً فطناً، لطبيعة وتكوين كل طبقة، من طبقات أهل مصر، إضافة إلى أن يكون في غاية الرشاد، والذكاء، والتدبير، والمتانة، والثقة. وكل هذه الأمور، خصوصاً سابقة العمل في مصر، تنطبق على الجزار[١].

بعد الملاحظات التي أبداها الجزار، تجاه السؤال الموجه إليه، توقع أن تناط به، قيادة الحملة، الموجهة إلى مصر، إلا أن الدولة، كلفت حسن باشا الجزائري بذلك، سنة ١٧٨٦م، وظل الجزار، ينتظر الفرصة لحكم مصر، وقد خذلته الدولة مرة أخرى، سنة ١٨٠٠م، عندما قامت بإرسال جيش، لتخليص مصر من يد الفرنسيين. وقد سلمت قيادته، إلى الصدر الأعظم (يوسف ضيا باشا)[٢].

بعد ذلك، وفي سنة ١٨٠٣، وجهت له الدولة، ايالة مصر، والشام، وسر عسكر الحجاز للتخلص من المماليك في مصر، والوهابين في الحجاز، إلا أن الجزار، لم يستطع القيام بمهام وظيفته الجديدة، بسبب مرضه. وعرفت الدولة بذلك، فأرسلت إبراهيم باشا قطار اغاسي بدلاً منه[٣]. إلا أن هذا لا يعني أن الجزار لم يصدر كتباً بشأن تسلمه ولاية مصر، فقد ورد في السجلات، كتباً موجهة إلى الحكام، والمتسلمين من قبل الجزار، تحمل اسمه وتوقيعه، والولايات الملحقة بحكمه[٤].

---

(١) انظر كل من بكر- الدولة العثمانية، ص ١٢٣-١٢٧. Shaw, Ottoman Egypt, P. P. 3-41.
التميمي- الولايات العربية، ص ٦٥-٦٩.

(٢) الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٩٥.

(٣) نوفل- كشف اللثام، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٤) سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص ٣٤٧، ٣٨٤.

رابعاً :- ثورة المماليك .

أ- تحالف المماليك ضد الجزار.

توجه سليمان باشا، وسليم باشا، برفقة عدد كبير من العسكر، لمحاربة الأمير يوسف سنة ١٧٨٩. وبعد خروجهم، ظهرت خيانة للجزار من مماليكه، فقد قام هؤلاء، بمغامرات غرامية مع حريمه[١]، وبالرغم من قوة الجزار، وسياسته المتينة، في إدارة ولايته، إلا أنه لم يستطع منع حدوث هذه الخيانة.

غضب الجزار لما حدث، وعاقب زوجاته بعنف، ثم استعد للانتقام من المماليك، الذين غدروا به، إلا أن هؤلاء، استطاعوا الفرار من وجه الجزار، والالتجاء إلى أحد أبراج عكا[٢]. وكان برفقة هؤلاء، أخو سليم باشا، ويعمل بمهنة حصندار (حافظ الحصن) وهدد هذا، بنسف عكا، إن لم يتركهم الجزار يخرجون منها، حيث كان البرج، يحتوي على كمية كبيرة من البارود[٣]. اضطر الجزار إلى الخضوع، لمطالب المماليك، وترك لهم المجال، بأن يخرجوا من عكا، فتوجه هؤلاء، إلى حيث سليم باشا، وعسكره، مما أثار سليم باشا، وأعلن الثورة على الجزار.

إلا أن الجدير بالذكر هنا، هو سبب الثورة، فقد اتفق الكثير من المؤرخين، أن السبب الرئيس في الثورة، هو تلقي سليم باشا، الإشارة من الدولة، للقيام بثورة ضد الجزار، وتوليته بدلاً منه[٤]. وأن الخيانة التي حدثت، هي بتدبير مشترك، بين المماليك، حتى يثيروا بخيانتهم، غضب الجزار عليهم، فتكون ردة فعله، هي سبب الثورة.

يتضح مما سبق، أن الدولة، هي التي حرضت على الثورة ضد الجزار، إلا أن ذلك، يبدو ضعيفاً نوعاً ما. فمن خلال علاقة الجزار بالدولة، يتضح غير ذلك، فهو يدفع الميري بانتظام، ويقر بالسلطة العليا للسلطان، والسلطان راض بوجوده، أي ليس له سابقة التمرد على السلطان[٥]. وبالإضافة إلى ذلك، فهنالك سؤال يطرح نفسه، كيف يمكن لسليم باشا، أن يفرط بأخيه (الحصندار) بما أن خطة الثورة، تبدأ من عكا، ومن بين يدي الجزار؟.

---

[١] بازيلي- سوريا، ص ٧٤.

[٢] نوفل- كشف اللثام، ص ٢١١ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٥٣.

[٣] لوكروى- الجزار، ص ١٥٤.

[٤] المنير- الدر، ص ٤١٢ ؛ الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ٤٩.

[٥] رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٥. Volney, Travels, II, P. 183 ؛ Barker, Syria, I, P. 61.

يمكن لنا القول، أن السبب في هذه الثورة، هو الصراع على النفوذ، بين الجزار وكبار مماليكه، ولم تكن لها سابقة التخطيط، حيث يورد الشهابي هذا بقوله : " أما المماليك، حين وصلوا عند سليم باشا، واخبروه بما جرى، حرر عرض حال إلى الجزار، وترامى عليه، والتمس لهم العفو ... إلا أن الجزار، جاوبه بخشونة، وأمره أن يطردهم من عنده "[١].

ونظراً لمعرفة سليم باشا السابقة للجزار، فقد تيقن أن الجزار، سيهلك المماليك ويهلكه معهم[٢]. وكانت هذه، بداية الثورة على الجزار، في ٣-أيار-١٧٨٩م. فأمر الجزار بإغلاق أبواب عكا.

عزم سليم باشا، على استمالة العساكر، الموجودين برفقته، والنهوض بهم على الجزار. وكان عددهم يزيد على ألفي (٢،٠٠٠) عسكري، وكان سليم باشا محبوباً، ويميل إليه العساكر[٣]. فاستطاع سليم باشا، أن يستميل العسكر، وأن يقنع سليمان باشا، حاكم صيدا بإسم الجزار، في الوقوف إلى جانبه في الثورة[٤].

أرسل سليم باشا الكتب والرسائل، إلى العمال على الولايات، والى الأمراء والمشايخ، يدعوهم فيها، إلى المشاركة لجانب المماليك، في الثورة ضد الجزار، فاستطاع أن يستميل الكثير منهم، وعلى رأسهم، الأمير يوسف الشهابي، كما تلقى سليم باشا، الدعم من الفرنسيين، الذين عانوا من منافسة الجزار لهم في التجارة[٥].

ب- هزيمة المماليك .

اجتمعت العساكر في مدينة صيدا، ثم توجهت إلى صور، فحاصروها، وملكوها بقوة السيف[٦]. ثم توجه سليم باشا، بما اجتمع لديه من العسكر، إلى عكا. وعزم أن يلقي عليها الحصار، معتمداً على ضيافة الأهالي، والجنود، اكثر من اعتماده على أسلحته، في اقتحام أسوار عكا.

---

[١] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩٣.

[٢] الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٤٣.

[٣] الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٤٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٥٣.

[٤] الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٤٣، تاريخ الجزار، ص ٩٣.

[٥] الشهابي- لبنان،ج ١، ص ١٤٤، تاريخ الجزار، ص ٩٣ ؛ الشدياق- أخبار، ج٢، ص ٦٩.

[٦] نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٧.

لم يبقَ لدى الجزار، سوى عدد قليل من الجند، وضابط وحيد من المماليك، إسمه " جو لاق عثمان " ومعه نفر قليل من الارناؤوط[١]، فأمر الجزار، بالتعبئة العامة في المدينة، فانضم إلى جنده، بعض أهلها، والصناع والبناءون، وقلدهم السلاح[٢].

وكان الطقس في هذه الأثناء، بارداً، والسماء مليئة بالغيوم، فاستحسن الجزار هذه الظروف، وأمر عسكره بفتح أبواب المدينة، والخروج منها في منتصف الليل، للانقضاض على المماليك، مستغلاً عنصر المفاجأة، ونوم الجند داخل الخيام، من شدة البرد.

بدأ الجزار بتنفيذ مخططه، في نفس الليلة، فخرج على رأس عسكره، وسارت البغال بهدوء، تجر الصناديق والمدافع، متسلقة التلة، التي تشرف على ميدان القتال، ونصبوا المدافع على شكل صفوف، وبدؤوا بإطلاق النار، وركض جند الجزار، وقطعوا قيود الخيل، وجزوا رؤوس النائمين، ولم يستطع ضابط، أن يجمع جنده، في هذه الساعة، في وسط ضجة الخيول والجمال، التي استولى عليها الخوف[٣].

وبدأ جيش سليم، يفر من المعركة. ويعلق الشهابي على هذا الحدث، بقوله : " فجفلت خيولهم، وتضعضعت نصولهم ... وهاجوا فتلاحموا وتلاطموا، فاهلكهم رجالهم برجالهم، واختلط آخرهم بأولهم ... وولوا مدبرين، لا يصاحب رجلاً رجل "[٤].

بعد هذا الانتصار العظيم، الذي حققه الجزار، أرسلت له الدولة العثمانية، أكاليل الغار، وهنأته بانتصاره، وكان هذا الحدث، مفاجأة كبرى لمن ساندوا المماليك في ثورتهم[٥].

بقي الجزار بعد ذلك، سيد الموقف في بلاد الشام، ولم يهدد سلطته، خطر كبير كهذا، إلى أن نزل الفرنسيون في مصر، في صيف سنة ١٧٩٨م.

---

[١] الشهابي- لبنان، ج١، ص ١٤٤ ؛ المنير- الدر، ص ٤١٢.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩٤ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢١٣.

[٣] الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ٤٩ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص٢١٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٥٩-١٦٠.

[٤] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤٤.

[٥] الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٦٩-٧٠ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٦٢ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٤-٧٥.

خامسا :- علاقة الجزار بالقوى البدوية.

بدأت القبائل البدوية، في البادية السورية، والجزيرة العربية في القرن الثامن عشر، تشكل ضغطا متزايدا، على المناطق المستقرة. وهذه القبائل هي : العنزة في سوريا الشمالية، والصقر في سوريا الجنوبية، إضافة إلى أنصار الدعوة الوهابية في الجزيرة العربية[١].

بذل الجزار جهودا كبيرة، لتكوين حكومة مركزية، فاصطدم بهذا الاجراء، مع القبائل البدوية، التي ترفض مثل هذا القيد، تجاه تحركاتها. فوجد الجزار نفسه، تحت الضغط البدوي المتجدد، لذا بدأ ببناء تحصينات، في مناطق استراتيجية، كمحاولة منه للقضاء على هجمات (بني صقر، والعنزة وبني صخر، والسردية). وحتى تكون هذه التحصينات فعالة، لابد أن تبنى ضمن حدود فلسطين، في المناطق التي تعبر منها هذه القبائل، في طريقها إلى داخل فلسطين[٢].

فانشأ الجزار التحصينات في طبرية، والتي سيطرت على النقاط الكبرى لدخول البدو، من شمال وجنوب بحيرة الحولة، خصوصا إلى الجنوب، عند التقاء نهري اليرموك والأردن، والتي تستخدمها القبائل البدوية، للدخول إلى فلسطين، من البادية السورية[٣]، ويقول " كوهن " : " أكد الجزار في رسائله إلى الباب العالي، أن هذه التحصينات يجب أن تبقى سليمة، فإذا ما هدمت، فإن القبائل سوف تدخل إلى صفد، وطبريا، وشفا عمرو، وعكا واللجون، والقدس، والرملة، ويافا، والخليل، ونابلس، وسوف تكون قادرة على قطع الطريق إلى دمشق، وهذا ما يجب تجنبه، بأي ثمن "[٤].

كما اقترح الجزار على الدولة، أن يبقى في هذا التحصين قوة دائمة، قوامها خمسون (٥٠) رجلا مشاة مدربين، إضافة إلى ثلاثمائة (٣٠٠) جندي من الفرسان، يبقون في المدينة، للدفاع عن أهلها، على أن تكون هذه القوة من الأتراك[٥].

أخذ الجزار الموافقة من الدولة، على ما أقترح عليها، فتمكن من السيطرة على جنوب الجليل، وقام بعد ذلك، بوضع حاميات أخرى، في نقطة دخول القبائل البدوية الشرقية إلى

---

(١) جب وبون- المجتمع، ج ٢، ص ٢٣٣-٢٣٤ ؛ ضحى الشطي- توسع البدو، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج ١، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٢) Cohen, Palestine, P.P. 104-107.

(٣) توما- فلسطين، ص ٥٧. Cohen, Palestine, P. 104.

(٤) Cohen, Palestine, P.P. 104.

(٥) جب وبون- المجتمع، ج ٢، ص ٢٣٤. Cohen, Palestine, P.P. 105.

فلسطين، من الجولان وحوران، ونقاط أخرى شمال الجليل، وهذه بدورها منعت قوات والي دمشق والقبائل البدوية الساكنة في منطقة القنيطرة، من الدخول إلى فلسطين، من الطريق الشمالي[١].

إلا أن هذا لا يعني، أن الجزار استطاع بهذه التجديدات، وضع الخط النهائي لغزوات القبائل البدوية في سوريا، لكنها جعلت البدو يتجنبون ولاية صيدا، مبتعدين عن الاصطدام المباشر بالجزار، فقد هاجمت القبائل البدوية، (بنو صخر والعنزة)، مقاطعة صفد، وطبريا، وشفا عمرو. ودمر بنو صقر الخزانات المائية خارج عكا، كردة فعل على إجراءات الجزار، فأرسل الجزار قواته في صيف ١٧٨٣م، ودمر البدو بقسوة[٢].

ولم يتوقف الجزار عند كسرهم عسكرياً، بل انتزع منهم الف رأس من المواشي، وطرحها في المدن، إلى حدود غزة. وعندما حاولوا استردادها، وحضروا إلى الجزار من أجل ذلك، إقترح عليهم شراءها من مقتنيها[٣].

استمر الجزار بجمع الضرائب من البدو بالقوة، حيث كان يرسل من وقت لآخر، قوة مسلحة ضد هذه القبائل، ومعها تعليمات بأخذ جزء من الماشية. وقد اعتبر هذا فيما بعد ضريبة تفرض على شيوخ القبائل. وعلى هؤلاء دفع النقود بدل الحيوانات، في حال أرادوا استردادها[٤] وبهذا يكون الجزار، قد استطاع إخضاع القبائل البدوية، (الصقر، وبني صخر، وعنزة) بشكل خاص. فرأى هؤلاء أن الجزار عدو، لا يستطيعون مواجهته، لضخامة قوته العسكرية، فهو قادر على أن ينتصر في أي صراع معهم، لقلة التكافؤ ما بين القوتين[٥]. ودون أن يتمكن الجزار، من السيطرة بشكل كامل على البدو، فإنه توصل، بفضل عمليات وقائية وقمعية، إلى تأمين الحماية لمناطق السكان المستقرين، واحتواء تغلغل قبائل بدوية جديدة[٦]. ويقول مشاقة بهذا : " الجزار أول الوزراء في سوريا، الذي ابتدأ في القضاء على قوة العشائر، التي إنتهى وجودها سنة ١٨٦٠ "[٧].

---

[١] الشدياق- أخبار، ج ١، ص ٢٣٩.

[٢] لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٤٠ . Cohen, Palestine, P. 107.

[٣] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٤٠٨ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٨٨.

[٤] بازيلي- سوريا، ص ٨٨ . Cohen, Palestine, P. 107.

[٥] Cohen, Palestine, P. 109.

[٦] مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٧٨.

[٧] مشاقة- منتخبات، ص ٤.

سادساً :- علاقة الجزار بولاة دمشق.

أ - المرحلة الأولى (١٧٧٥-١٧٨٣)

كان الجزار يعتمد في البداية، على قوته العسكرية، في علاقته مع ولاة الشام، خاصة وأنه كان يطمح دائماً، في أن يكون المتولي لأمور الشام. فقد عمد إلى تأسيس قوة في مقر حكمه، لحماية ولايته من الشرق. وقد بدأ العداء بين الجزار، وولاة الشام، منذ قدومه إلى عكا، سنة ١٧٧٥م. فحاول والي الشام آنذاك، وهو محمد باشا العظم، أن يضم ميناء عكا، إلى أحد أفراد أسرته، معتمداً على الاهتمام الكبير، الذي يوليه الباب العالي، لهذا الميناء. وقد رفض حسن باشا، أن توضع عكا بكاملها، تحت تصرف حاكم صيدا[١]. ويورد " كوهن " إحدى روايات مؤرخ عثماني، بقوله : " من البداية، كان برود بين محمد باشا العظم، والجزار"[٢]. إلا أن هذا البرود، لم يؤد إلى مواجهة مباشرة، بين الطرفين، لكنه وسع العداء، الذي كان محدوداً، في المنطقة الحدودية الفاصلة بين الايالتين. وبدأت الخلافات، تأخذ مداها الحقيقي، بين الجزار ووالي دمشق، محمد باشا العظم، عندما اتجه الأمراء الشهابيون، إلى الولاة لمحالفتهم، في صراع بعضهم مع البعض الآخر.

والتجأ الأمير، سيد احمد الشهابي، إلى محمد باشا العظم، لمحاربة الأمير يوسف الشهابي، وحليفه الجزار، سنة ١٧٨١م. وقد استطاع الأمير يوسف، وعسكر الجزار، أن يقهروا سيد احمد، وعسكر محمد باشا العظم، ويصل إلى قلعة دمشق[٣]. وكان هذا الإجراء من محمد باشا، تحدياً حقيقياً لسلطة الجزار، مما زاد من زغبته، في تولي حكم دمشق. ومع ذلك، كان الجزار يسيطر بشكل كامل، على المناطق التي تخضع لنفوذه. ويقول " رافق " : " لا سيما أن إمكانية، تسلط محمد باشا العظم، على القوى المحلية خارج دمشق، كانت محدودة بسبب سيطرة الجزار، واهتمامه بإخضاع أمراء جبل لبنان، والمتاولة، وحين حاول محمد باشا التدخل، في منازعات أمراء جبل لبنان، لم يستطع الثبات أمام منافسة الجزار "[٤].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 64.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٥.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٤ ؛ الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٤٣.

(٤) Rafeq, The Province, P. 301.

كان الجزار، يقوم بمساهمة كبيرة، في تزويد قافلة الحج، بالمال والعسكر، ولكنه بدأ يقلل من ذلك، كوسيلة ضغط غير مباشرة، على الدولة، لتحيل إليه منصب ولاية دمشق[١].

عندما توفي محمد باشا العظم، في شهر نيسان ١٧٨٣م، توقع الجزار، أن تقلده الدولة ولاية دمشق، لملء الفراغ الذي تركه، محمد باشا العظم، الذي استمر حكمه عشر سنوات متتالية (١٧٧٣-١٧٨٣). ولم يكن يراود الجزار، أدنى شك في توليه لهذا المنصب[٢]، إلا أن الدولة خيبت آماله، حينما أسندت ولاية الشام لمحمد باشا عثمان، لكن هذا، لم يمكث إلا ثلاثة أشهر ومات، ثم جاء المنصب، لأخيه درويش من بعده[٣]. ولم ترد إشارة في المصادر إلى أن خلافاً وقع بين الجزار ووالي الشام الجديد.

ب - المرحلة الثانية (١٧٨٥-١٨٠٤)

ظل الجزار بدوره، يسعى للحصول على خكم ولاية دمشق، والسير بقافلة الحج، حتى أنعمت عليه الدولة العثمانية، في ١٢-٣-١٧٨٥م، بتعينه والياً على الشام، وأميراً للحج، وعينت نائبه، سليم باشا حاكماً لصيدا، ومقداد باشا، حاكماً لطرابلس، إلا أن تعين الأخير، أزعج الجزار، لأنه كان يأمل، أن يتولى هو، أو أحد رجاله، حكم طرابلس، وقد رفض مقداد باشا هذا المنصب، فأحال الصدر الأعظم الجديد، يوسف باشا، حكم ولاية طرابلس، إلى سليم باشا، أحد رجال الجزار[٤]. ويورد " كوهن " سبب تعيين الجزار ورجاله، في هذه المناصب، بقوله : " كان هنالك عسكريون، في باب السلطان، منهم من يفضل الجزار لهذا المنصب، والآخر يعارض ذلك ... واعتمد المؤيدون للجزار في حجتهم، على قوة الجزار الاقتصادية"[٥].

كان تنافس الأمراء الشهابيين فيما بينهم على حكم جبل لبنان، أحد الأسباب الرئيسة، في خلافات الجزار مع ولاة الشام، فعندما فر الأمير يوسف، من وجه ابن عمه، الأمير بشير، استعان بوالي الشام، إبراهيم باشا الدالاتي، سنة ١٧٨٩م. فقدم له هذا العسكر، وأقر له حكم بلاد جبيل. وعندما علم الجزار بهذا، أرسل العسكر ووضعهم تحت قيادة بشير الشهابي. وقام هذا بطرد ابن عمه. وبعد ذلك، أي سنة ١٧٩٠م عزل إبراهيم باشا، عن ولاية دمشق، وتولى الجزار

---

(١) Cohen, Palestine, P. 65.

(٢) نوفل- كشف اللثام، ص ٢٠٦ ؛ الفقيه- جبل عامل، ص ٢٧٥.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٤ ؛ بني المرجه- صحوة الرجل، ص ٤٦٥.

(٤) نوفل- كشف اللثام، ص٢٠٧ ؛ مانتران- تاريخ الدولة، ج١، ص٥٧٨-٥٧٩ ؛ الفقيه- جبل عامل،ص٢٧٥

(٥) Cohen, Palestine, P. 67.

بدلا منه[1]. وأقر الجزار واليا على دمشق، وأميرا لقافلة الحج الشامي، لمدة خمس سنوات. وأثناء تولي الجزار هذه الفترة (١٧٩٠-١٧٩٥) حاول إخضاع متسلم مقاطعة جنين (يوسف الجرار) الذي كان يتحصن في قلعة سانور، لكن حملاته كانت فاشلة، لمناعة القلعة، وانشغال الجزار بأمور السياسة، والإدارة في دمشق، والحروب الدائرة بين الأمراء الشهابيين، وعزله عن الشام أثناء الحصار، سنة ١٧٩٥م[2].

تولى الشام بعد عزل الجزار، عبد الله باشا العظم[3]. وكان هذا يكره الجزار، حيث كان الجزار الوالي الوحيد في القرن الثامن عشر، الذي استطاع أن يحد من نفوذ أسرة آل العظم. فهو مثلهم، حكم مدة طويلة، لكنه أستطاع المحافظة على ولايته (صيدا) واستمر واليا عليها، ومد نفوذ ولايته، ومركزها عكا، على الولايات الأخرى، ومنها دمشق[4].

حدثت عدة مناوشات، بين عسكر الجزار، وعسكر عبد الله باشا، وكانت الانتصارات تارة لعسكر الجزار، وأخرى لعسكر عبد الله باشا[5].

التجأ الأمير بشير الشهابي سنة ١٨٠٠ إلى عبد الله باشا العظم، عندما تولى الشام، للمرة الثانية في السنة نفسها فأمده هذا بالعسكر، واصدر مرسوما إلى أمراء ورعايا جبل الشوف، بطاعة الأمير بشير الشهابي، ونبذ أبناء الأمير يوسف الشهابي. وهذه مقتطفات من المرسوم : " أنه قد طرق مسامعنا، ما أبديتموه من العصاوة (العصيان)، في قبولكم أولاد الأمير يوسف، حكاما عليكم، مع أنكم محققين، بأن جناب افتخار الأمراء الكرام ... الأمير بشير الشهابي ... هو منصب من لدى الدولة العلية ... وان من منكم خرج من تحت أوامره، فيكون وقع تحت، غضب مولانا السلطان "[6].إلا أن الدروز، الذين عرفوا الجزار، لم يهتموا. لهذا المرسوم، فاضطر الأمير بشير الشهابي، إلى مصالحة الجزار فيما بعد.

غضبت الدولة العثمانية على الجزار، سنة ١٨٠٢م، عندما حاصر يافا، فاستغل عبد الله باشا هذا الحدث، وجمع قواته، وتوجه بها إلى طرابلس، للنيل من مصطفى آغا بربر متسلم طرابلس، وحليف الجزار. واستمر هذا في حصار المدينة، حتى سنة ١٨٠٣، وكان الجزار يرسل

---

[1] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩٩-١٠٠.

[2] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٠٢-١٠٤ ؛ المنير- السدر، ص ٤٤٧-٤٤٨ ؛ الركيني- جبل عامل، مج ٢٩، ص ٦٧٩ ؛ مشاقة- منتخبات، ص ١٥.

[3] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٠٤ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦١ .

[4] رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٥. Cohen, Palestine, P. 65.

[5] العبد- تاريخ حسن، ص ٣٣-٣٤ ؛ الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٢٢.

[6] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٤٣-١٤٤.

الإمدادات لحليفه، ولكن دون جدوى، وعندما أعلن الجزار ولاءه للدولة، استطاع إقناعها، أن عبد الله صار (وهابيا)*. فعزلته الدولة وعينت الجزار بدلا منه[١].

نلاحظ مما سبق، أن العداء كان يشتد، بين الجزار، وولاة الشام، وخاصة إذا كانوا من أسرة آل العظم، حتى أنه يندر أحيانا، وجود إشارة إلى خلافات، حدثت بين الجزار، والولاة الآخرين لدمشق. كما يتضح ايضا، أن السياسة العثمانية، كانت بعيدة عن ساحة الخلافات، بين الولاة، بل كان التركيز لديها، منصبا على إرسال الضرائب السنوية للخزينة، وإبعاد الخلافات التي تنشب بين الولاة، عن عرقلة قافلة الحج الشامي[٢].

سابعا :- علاقة الجزار بالشهابيين.

-علاقته بالأمير يوسف.

أ - المرحلة الأولى (١٧٧٥- ١٧٨١).

يتبين لنا من خلال البحث في علاقات الجزار، مع القوى المجاورة له أن علاقته بالشهابيين كان لها نصيب الأسد، في كتب المؤرخين. ومن المتوقع أن السبب يعود في ذلك، أن أغلب المؤرخين، الذين تناولوا سيرة الجزار، أخذوا عن ماكتبه الأمير حيدر الشهابي، الذي ركز في تناول سيرة الجزار، على علاقته بأقربائه الشهابيين.

أما بالنسبة لعلاقة الجزار بالشهابيين، فقد بدأت منذ قدومه إلى بلاد الشام، والتقائه بالأمير يوسف الشهابي. ولكن ما يهمنا في هذا الموضوع، هو علاقته بهم أثناء ممارسته السلطة، في ولاية صيدا.

لقد عرف الأمير الشهابي الحاكم، في مختلف المصادر والمراجع، بأمير الدروز، وكان تنصيبه عادة، من السلطان العثماني، عن طريق والي صيدا. وكانت مدة ولايته سنة واحدة، قابلة للتجديد، فتوجب بذلك على الأمير يوسف الشهابي، أن ينال الخلعة من الجزار.

---

* أي صار من أتباع المذهب الوهابي الذي انتشر في الجزيرة العربية.(أنظر الياس صدقة- نفح العنبر، تاريخ العرب والعالم، ع ٢٥، ص٣١)

[١] إلياس صدقة- نفح العنبر، تاريخ العرب والعالم، ع ٢٥، ص ٢٨-٢٩ ؛ الخوري- مصطفى أغا، ص٧٨ ؛ عماد- السلطة، ص ٧٩.

[٢] عماد- السلطة، ص ٩٦. Cohen, Palestine, P. 65.

وعندما تولى الجزار صيدا، أرسل له الأمير يوسف التهاني والهدايا، فقبلها وطيب خاطره. وعندما حضر حسن باشا قيصرلي إلى بيروت، يطلب الأموال الأميرية، أظهر له الأمير يوسف، وصولات بدفع جزء من المبلغ، المترتب عليه، ودفع الباقي نقدا، فانسر حسن باشا لهذا، ونصب الأمير يوسف أميرا على جبل الدروز، ومدينة بيروت، وبلاد جباع، والبقاع، وعاد بعد ذلك إلى عكا(١).

غضب الجزار لهذا الإجراء، وأرسل العسكر لضبط بيروت، وجميع أملاك شهاب، وسيطر رجال الجزار على بيروت، وطلب الجزار من الأمير يوسف، الأموال عن ثلاث سنوات مضت. فشكاه الأمير يوسف إلى حسن باشا، فعاد الأخير إلى بيروت، وزجر الجزار، وأخرج عسكره منها(٢).

كان الأمير يوسف، قد أخبر مشايخ النكديين، بقدوم عسكر الجزار إلى بيروت، وطلب النجدة منهم، فكمن هؤلاء لعسكر الجزار، في مكان يقال له " السعديات "، قرب نهر الدامور، بين بيروت وصيدا، في شهر نيسان سنة ١٧٧٦، وكان برفقتهم منتا (٢٠٠) رجل(٣). أما عسكر الجزار، فكانوا من طائفة اللاوند* الأقوياء، واستطاع هؤلاء التغلب على النكديين، والسيطرة على المعركة، وقتل الكثير منهم، وقبض على الشيخ محمود بن أبي فاعور، والشيخ واكد بن الشيخ كليب، وتركوا الشيخ بشير مجروحا بين القتلى، ما بين حي وميت، وعاد عسكر الجزار إلى صيدا(٤).

أرسل الأمير يوسف الشهابي، إلى حسن باشا، يخبره بما حدث. وكان الأخير يحقد على الجزار، حيث إن ولاية صيدا، توجهت للجزار دون رضاه. فعندما علم بما حدث، توجه لمقابلة الجزار، فاعتذر له هذا، بأن ما حدث، كان دون علمه، وسافر حسن باشا القيصرلي إلى استانبول، واعدا الأمير يوسف، بعزل الجزار من منصبه(٥).

طلب الأمير يوسف من الجزار، أن يطلق سراح الشيخين النكديين، إلا أن الجزار رفض ذلك، إلا بشرط أخذ فدية عليهم، بقيمة مئة ألف (١٠٠) قرش، فوزع الأمير يوسف المبلغ على

---

(١) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٢-٧٣.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١١٧-١١٨ ؛ رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٧.

(٣) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١١٧ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦٨.

* طائفة من الجنود الأتراك الأقوياء، عرفوا بالفساد حتى أصدر السلطان العثماني فرمانا بإبطال طائفتهم فتفرقوا في الأقطار ودخلوا في خدمة الولاة وأصحاب العصبيات. (انظر البديري- حوادث، ص ٣٢)

(٤) الشهابي- لبنان، ج١، ص ١١٨ ؛ الشدياق- أخبار، ج١، ص ١٦٨ ؛ كرد علي- خطط، ج ٢، ص ٣١٣.

(٥) المنير- الدر، ص ٣٨٢ ؛ أسعد منصور- تاريخ الناصرة، ص ٥٦.

أهالي بيروت، وأرسل الجزار قائد عسكره، " مصطفى آغا قرامنلا " سنة ١٧٧٧، لأخذ المبلغ من الأمير يوسف.

رفض الأمراء اللمعيون دفع المبلغ المستحق عليهم، فالتمس الأمير يوسف من قرامنلا، قائد عسكر الجزار، أن يتوجه إلى بيروت، لمعاقبة اللمعيين، فأحرق هذا محصولهم، وقتل جماعة منهم ثم داهم الشويفات، فصده رجالها، فخرجت بيروت من يد الأمير[١].

وقع خلاف بين الأمير يوسف، ومشايخ النكديين، بسبب عدم قدرته على إخراج الرهائن، الموجودين في سجن الجزار. فاتفق مع الأميرين، سيد أحمد وأفندي أخوي الأمير يوسف الشهابي، أن يحلوا مكانه في الحكم، وآزرهم مشايخ آل جنبلاط، وعرضوا ذلك إلى الجزار، في شباط ١٧٧٨، فوافق الجزار، مقابل أن يدفعوا خمسة عشر ألف (١٥) قرش، ووجه إليهم التزام حكم جبل الدروز[٢]. ويقول غيز : " لم يفت الجزار، ما تضمر بعض الأسر اللبنانية لبعضها الآخر، من أحقاد يزكيها التنافس، فعمل بذكائه على إنماء تلك الحزازات في نفوسهم. وكان يعرف نيات آل شهاب، ومطامعهم السياسية، فيتملقهم تارة، ويزعجهم طوراً، ويعللهم، ويؤملهم أميراً بعد أمير، بكرسي الحكم، ووفقاً لهذا المنهج، كانت تباع خلعة الولاية بالمزاد العلني "[٣].

كما يؤيد ذلك كل من مخول وسليمان، بأن الأمارة في لبنان، كانت تباع بالمزاد، والأمراء الشهابيون، يتسابقون في إرضاء الجزار، وابتياع الرتب[٤].

استطاع أحد الفلاحين، المدعو " حنا البيدر " فك أسر الشيخين النكديين، وتخليصهما من سجن الجزار. فغضب الجزار، وأرسل إلى الأميرين، يطالبهم بمئتي (٢٠٠) كيس*. على الأولاد، ورأس حنا البيدر، فأرسلوا له أربعين (٤٠) كيساً، استرضاءاً لخاطره، فكف الجزار عن النكديين، ووجه الخلعة إلى الأميرين للسنة التالية[٥].

شكا الأميران أخاهم يوسف، بأنه يقوم بمراسلات مع أكابر البلاد، ويؤلبهم ضد الأميرين، فيعطل مال الميري. فحضر الجزار بنفسه إلى بيروت، وأرسل عسكره لمحاصرة جبيل. وكان

---

[١] الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦٨، أخبار، ج ٢، ص ٣٣٨-٣٣٩.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٨ ؛ الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٤٠.

[٣] غيز- بيروت ولبنان، ج٢، ص ٨٥.

[٤] مخول- عكا، ص ٨٠ ؛ سليمان- قراءة في التاريخ، تاريخ العرب والعالم، ع ١٠٢، ص ١٥.

* مصطلح بدأ استخدامه في القرن السابع عشر، ويقدر ب ٥٠٠ قرش. (انظر اسامه شاهين- الأوضاع النقدية، لبنان، ص ٣٣٨)

[٥] المنير- الدر، ص ٣٨٧ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦٨ ؛ الخوري- صيدا، ص ٢٧٤.

المتسلم بها، الأمير حيدر الشهابي، من قبل الأمير يوسف، وبالوقت نفسه أرسل " أسعد بك طوقان " أحد زعماء نابلس، ليهدد أكابر البلاد، ويتوعدهم من قبل الجزار. لكن في السر، أمر طوقان، أن يراود الأمير يوسف على الحكم، مقابل مائة ألف (١٠٠،٠٠٠) قرش، فوافق الأمير على هذا العرض. وفي الحال، قام الجزار بفك الحصار عن جبيل، ووجه الخلعة إلى الأمير يوسف، فهرب الأميران، سيد أحمد وأفندي، وهرب النكديون إلى الشيخ ناصيف النصار، أحد زعماء المتاولة، وأرسل الأمير يوسف لضبط أرزاقهم وممتلكاتهم[١].

في بداية سنة ١٧٧٩، غدر الأمير بأخويه، أفندي وسيد أحمد، فقتل الأول، ونجا الثاني والتجأ إلى آل جنبلاط، الذين أبقوه عندهم[٢]. ويذكر نائب القنصل الفرنسي بصيدا، " رينار Renard "، في تقرير موجه لحكومته، في ١١ نيسان ١٧٨١، هذه الحادثة بقوله : " أن ٩_ كانون الثاني، يظل يوما لا ينسى في تاريخ الجبل ... حيث شوهد الأميران، يدخلان ديوان أخيهما، كأنهما قاطعا طريق، وكان الأمير أفندي، البادىء بإطلاق النار على أخيه، إلا انه اخطأه، فما كان من الأمير يوسف، عندئذ، وبحركة لا شعورية منه، إلا أن قتله، بطعنة خنجر[٣].

هدأت الأوضاع في لبنان، وبدأ الأمير يوسف بجمع الأموال، لإستيفاء ما هو مطلوب منه للجزار. وفي الوقت نفسه كان الجنبلاطيون والعماديون، يجمعون العسكر لمقاتلة الأمير يوسف، ثأرا للأمير أفندي، وإعادة الأمير سيد أحمد إلى دفة الحكم، حيث استنجد هذا بوالي الشام، " محمد باشا العظم "، الذي كان يبغض الجزار، فأرسل الأخير العسكر، لنجدة الأمير يوسف، بقيادة مملوكه " سليم باشا "، الذي أحضره من مصر، والتقى الطرفان في شهر آب ١٧٨١، في أرض قب الياس بالبقاع، واستطاع عسكر الجزار في النهاية، السيطرة على المعركة، ودمر قوات الدروز، وقوات والي الشام المساندة لها، وهرب الأمير سيد أحمد إلى وادي التيم[٤].

[١] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٢٥-١٢٦ ؛ المنير- الدر، ٣٨٤.

[٢] المنير- الدر، ص ٣٨٣ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٢. Ismail, Documents, II, P. 360.

[٣] Ismail, Documents, II, P. 360.

[٤] الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٤٣، ١٦٩ ؛ الزين- جبل عامل، العرفان، ع ٨، مج ٦١، ص ١١٥٤ ؛ سويد- التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٣٦.

ب - المرحلة الثانية (١٧٨٣-١٧٨٩).

هدأت الأوضاع في جبل الدروز إلى أن أصدر الجزار أمرا إلى الأمير يوسف، بمداهمة مقاطعة " مرجعيون "، التابعة لولاية صيدا، والواقعة تحت حكم الأمير إسماعيل الشهابي (خال يوسف) الذي كان يحكم حاصبيا، التابعة لولاية دمشق، سنة ١٧٨٣. فعلم إسماعيل بهذا الإجراء، وأسرع إلى الجزار، وعرض عليه ثلاثمائة ألف (٣٠٠،٠٠٠) قرش، مقابل أن يعيد له " مرجعيون "، وأن يوليه كذلك على الشوف، فوافق الجزار، ووجه له شروط الالتزام، ووضع بتصرفه ألفي (٢،٠٠٠) جندي من جنوده، إضافة إلى جند إسماعيل نفسه[١].

اشترك الأمير سيد أحمد، إلى جانب الأمير إسماعيل، وجرت بينهم وبين الأمير يوسف عدة معارك، أشهرها كانت في منطقة جباع، شمال صيدا في شهر حزيران سنة ١٧٨٤م. وقد انتصر فيها عسكر الجزار، بقيادة الأميرين، على عسكر الأمير يوسف وأتباعه[٢]. وفر الأمير يوسف على أثر هذه المعركة، إلى بلاد عكار. وتوجه الجزار بنفسه إلى بيروت، لطلب المال من الأمير إسماعيل، وسيد أحمد، حيث شرع في رمي الأثقال على البلاد، لجمع الثلاثمائة ألف (٣٠٠،٠٠٠) قرش[٣].

كان للأمير يوسف علاقات حميمة، مع المتقدمين في باب الجزار، فاتصل بهم ليستعطفوا له الجزار، كي يعيده للحكم. وطرح هؤلاء الفكرة على الجزار، مقابل ثلاثمائة ألف (٣٠٠،٠٠٠) قرش، يتعهد بها الأمير يوسف لخزينة الجزار. ويبدو أن موافقة الجزار، كانت بسبب عجز الأميرين، عن جمع الأموال الضريبية من البلاد، وثبت له أن الأمير يوسف، أقدر على ضبط الأمور، وجباية الأموال[٤].

توجه الأمير يوسف وكاهيته (مدبر أموره)، سعد الخوري، إلى عكا، لمقابلة الجزار، لنيل الخلعة منه لحكم البلاد. وفي هذه الأثناء، كان الأمير منهمكا في جمع الأموال، لإيرادها للجزار، إلا أن الجزار، وجه الخلعة للأمير يوسف، على أن يبقى كاهيته، رهنا على المبلغ المطلوب منه، ووجه بصحبته العسكر، لطرد الأمير إسماعيل، والأمير سيد أحمد من البلاد. فسار الأمير يوسف بسرية وسرعة تامتين، حتى لا يشعر به خاله إسماعيل، وعندما وصل إلى دير القمر مقر الحكم، قبض على خاله، واستطاع أخوه الفرار، فوضع خاله في السجن، ومن ثم

---

(١) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٣٥-١٣٦ ؛ نوار- وثائق، ص ٢٣. Ismail, Documents, II, P. 361.

(٢) Ismail, Documents, II , P. 421.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٣-٨٥ ؛ المنير- الدر، ص ٣٩٣-٣٩٦.

(٤) سويد- التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٤٤.

قتله، في كانون الثاني ١٧٨٥، وأخفى الأمير يوسف هذا، حيث أن الجزار أمره بعدم قتل إسماعيل[١]. ولم يطلب من الأمير يوسف عدم قتل إسماعيل، إلا لأجل إعادته إلى ساحة المنافسة الشهابية، في أي وقت أراده الجزار.

توسط قنصل فرنسا بعد فترة، لإخراج سعد الخوري من السجن، فوافق الجزار، بعد أن دفعت له القنصلية الفرنسية، المال المتبقي على الأمير يوسف، وبعد وصوله إلى جبيل، مات فيها[٢].

يقول لوكروى : " أن الأمير يوسف، دفع الالتزامات المتوجبة عليه عدة مرات، لكن الجزار كان ينكر وصولها "[٣]. وهذا الذي دفع بقنصل فرنسا إلى التدخل في الأمر، حيث كان سعد الخوري، ورقة رابحة في يد الجزار، لأخذ أكبر قدر ممكن من المال، من الأمير يوسف.

في عام ١٧٨٦م، استطاع الأمير يوسف الظفر بأخيه، عن طريق، رجاله، فسمل عينيه[٤]. وقام الأمير يوسف بمراسلة الأمير بشير، أخي الأمير إسماعيل، بعد أن فر إلى حوران، عندما قتل أخاه، فطمنه الأمير يوسف، وتعهد له بالأمان، فحضر المذكور إلى دير القمر، بناءاً على الضمانات التي قدمها له يوسف، وعند وصوله، أمر الأخير بقتله، سنة ١٧٨٨[٥].

بعد أن تخلص الأمير يوسف من خصومه، ضمن بأنه لم يبق له منافسون، فمنع إيراد الأموال المعتادة لجهة الجزار، وأظهر العصيان ضده، فاستغل الأمير علي، ابن الأمير إسماعيل هذه الظروف، وكان يكره يوسف، لأنه قتل أباه. وتوجه إلى الجزار ليعلن له ولاءه، طالباً حكم البلاد، فقبله الجزار بإكرام، وأعلن له الخلعة، ووجه بصحبته العسكر بقيادة " سليم باشا الصغير " لقتال الأمير يوسف، إلا أن ثورة المماليك على الجزار سنة ١٧٨٩، غيرت مجرى الأحداث، فعاد العسكر عن الدروز[٦].

بعد أن استطاع الجزار، هزيمة المماليك، غضب على الأمير يوسف، لأنه اشترك في هذه الثورة، فأرسل عسكراً كثيراً، بقيادة الأمير علي، المذكور سابقا، لتأديب الأمير يوسف،

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤١ ؛ المنير- الدر، ص ٣٩٧-٣٩٨ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٢.

[٢] المنير- الدر، ص ٣٩٨.

[٣] لوكروى- الجزار، ص ١٤٦.

[٤] الدبس- تاريخ سوريا، مج ٧، ص ٤١٥ ؛ سويد- التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٤٥.

[٥] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩١.

[٦] بازيلي- سوريا، ص ٧٣ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٦٥.

واستعد هذا كذلك، لمواجهة جيش الجزار، فجرت موقعة بين العسكرين، في ١٣ آب ١٧٨٩م، كانت الغلبة فيها للجزار، بقيادة الأمير علي[١].

- **علاقته بالأمير بشير.**

أ - **نهاية الأمير يوسف.**

في سنة ١٧٨٩م، تنازل الأمير يوسف الشهابي عن الحكم، لإبن عمه الأمير بشير بن قاسم الشهابي، الملقب بـ " بشير الثاني الكبير ".

ترد عدة روايات، في سبب تنازل الأمير يوسف عن الحكم، حيث يتفق الشهابي ونوفل، على أن الأمير يوسف، وجد نفسه غير قادر على عسكر الجزار، فجمع أهالي البلاد، وقال لهم أن يختاروا واحدا من أبناء عمه[٢].

أما المنير، فقد انفرد في روايته بالقول : " أرسل الجزار إلى الأمير يوسف يأمره، بأن يعطي مرجعيون إلى الأمير علي بن إسماعيل، فرفض الأمير يوسف ... وانتشرت قصة رفض الأمير يوسف بين الناس . فغضب عليه الكثير، ووقفوا ضده، فهرب الأمير يوسف إلى جبيل، وسلم الجزار مكانه الأمير بشير "[٣].

يبدو مما سبق، أن رواية المنير هي الأقرب إلى الصحة، حيث إن الأمير يوسف سلك أصعب الطرق للبقاء في الحكم، ومنها قتله الكثير من المقربين إليه، في سبيل السلطة، إضافة إلى أن الأمير بشير، قام بملاحقة الأمير يوسف، لطرده من البلاد، بعد تعيينه مباشرة، مما يتضح أن تنازل الأمير يوسف عن الحكم كان بالإكراه. بعد أن حصل الأمير بشير على شروط الالتزام من الجزار توجه لطرد الأمير يوسف من البلاد. ففر الأمير يوسف من دير القمر إلى جبيل وتبعه الأمير بشير إليها، فوقعت بينهما معركة في وادي الميحال، قرب جبيل، فانتصر الأمير بشير[٤]. وفر الأمير يوسف إلى الشام، واستجار بواليها، فعاد بشير إلى دير القمر، وعاد عسكر الجزار إلى عكا[٥].

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤٤-١٤٥ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٠٣-١٠٨.

[٢] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤٦ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢١٥.

[٣] المنير - الدر، ص ٤١٤.

[٤] الدبس- تاريخ سوريا،، مج٧، ص ٤١٧-٤١٨.

[٥] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩٩ ؛ شيخو- بيروت في عهد الشهابيين، المشرق، مج ٢٤، ص ٢٧٠.

في بداية سنة ١٧٩٠م، منح " إبراهيم باشا الدالاتي " والي الشام، حكم بلاد جبيل إلى الأمير يوسف، فعلم الجزار بذلك، ووجه العسكر بقيادة الأمير بشير، لطرد الأمير يوسف. فعاد يوسف إلى الشام، ومنها إلى حوران. وأرسل للجزار يلتمس منه الصفح، ويطلب الأمان، فأمنه الجزار، وتوجه يوسف إلى عكا، وبرفقته كاهيته، غندور الخوري، ابن سعد الخوري، وبقي في عكا خمسة شهور. فعلم بشير بهذا، وأرسل إلى الجزار، تحسبا منه أن ينصب الأمير يوسف، بدلا منه، فطمنه الجزار، وفي الوقت ذاته، اتفق مع الأمير يوسف، أن يحكم البلاد، ببدل ألفي (٢،٠٠٠) كيس ذهب، ويبقى غندور الخوري، رهينة عنده، حتى يتم تسديد المبلغ[١]. فأرسل الجزار المكاتيب، إلى أكابر البلاد، تعلن رضاه على الأمير يوسف، ويأمرهم بالطاعة له. وحين بلغ الخبر إلى الأمير بشير، ذهب إلى عكا، وزاد عما دفعه الأمير يوسف، وقبل الجزار ذلك، وأعاده إلى الحكم، بعد أن حرر عليه سندا بمبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة (٣،٥٠٠) كيس ذهب، يدفعها أقساطا. وأمر بإرجاع الأمير يوسف، وكاهيته إلى السجن[٢].

عندما علم أهالي جبل الدروز بما حدث، أعلنوا العصيان على الأمير بشير، في ٢٢ حزيران ١٧٩١، وكان الجزار على وشك الخروج إلى الحج، فأمر بقتل الأمير يوسف.

تذكر معظم المصادر، أن سبب قتل الأمير يوسف، هو شك الجزار به، انه سبب الثورة، التي حدثت في بلاد الدروز[٣].

يبدو أن النهاية بالموت، والتي كانت تبدو لنا أكيدة، بعد رحلة طويلة من التجاذب الصعب، والتعامل الشاق، بين الأمير والوزير، كان لابد من ضحية لها. إلا أن ذلك لم يعن إطلاقا، نهاية الصعوبات في وجه الأمير بشير. فقد وجدت أدوات للصراع الشهابي، تمثلت في الأميرين حيدر وقعدان، ومن ثم أولاد الأمير يوسف[٤]. خلع الدروز الأمير بشير في شهر تموز ١٧٩١، وعينوا الأميرين حيدر وقعدان، ولم يستطع الأمير بشير دخول البلاد، حتى عاد الجزار من الحج، فتوجه الأمير بشير إلى المزيريب*، لاستقبال الجزار، فأرسل الأخير بصحبته عددا من العسكر، وأرسل معه مرسوما إلى الدروز، يقول فيه : " لقد بينا لكم الأفعال الردية، وغير

---

(١) المنير - الدر، ص ٤١٨-٤٢٠ ؛ شيخو - بيروت في عهد الشهابيين، المشرق، مج ٢٤، ص ٢٧٠.

(٢) الشهابي - تاريخ الجزار، ص ١٠٣ ؛ الشدياق - أخبار، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٣) الشهابي - تاريخ الجزار، ص ١٠٦-١٠٧ ؛ المنير - الدر، ص ٤٢١ ؛ الدبس - تاريخ سوريا، مج ٧، ص٤٢٥-٤٢٦ ؛ باز - مذكرات، ص ٦-٧ ؛ مشاقة - منتخبات، ص١٤-١٥ ؛ الخوري - صيدا، ص ٢٨٣.

(٤) سويد - التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٦١.

* هي قلعة مزيريب، من أعمال حوران، تقع على طريق قافلة الحج الشامي، يمكث بها الحجاج من ٨-١٥ يوم للراحة، بناها السلطان سليم، سنة ١٥٢٢. انظر المعلوف - دواني القطوف، ص ١١٨.

المرضية، سالكين بها .. وبعدتم عن القول المبين .. وطلب منكم افتخار الأمراء الكرام، ولدنا الأمير بشير الشهابي، الخدامة حكم قولكم، فإذا انتم بمعزل عنها ... فاعلموا وتحققوا، إن سلكتم في قدم الطاعة، وكنتم خاضعين إليه، فعليكم من طرفنا أمان الله .. وإن بقيتم على حالكم، وسوء أعمالكم، فإنني بكم ظافر، ولأتركنكم كالأمس الغابر، سلموا تسلموا، وإن عاندتم تندموا "[١].

يمكن تقسيم فترة حكم الأمير بشير إبان تولى الجزار لصيدا إلى مرحلتين هما : (١٧٩١-١٧٩٩) و (١٨٠٠-١٨٠٤).

ب- المرحلة الأولى (١٧٩١-١٧٩٩).

سار الأمير بشير إلى حاصبيا، في ١٤- تشرين الأول-١٧٩١م. وجرت عدة معارك، بين عسكر الجزار، بقيادة الأمير بشير، وبين الدروز، بقيادة الأميرين، حيدر وقعدان، واستمرت المعارك بين الطرفين، حتى ١٢- أذار- ١٧٩٢م. ثم أمر الجزار العسكر بالعودة، بعد أن خسروا الكثير[٢].

كان يرافق الأمير بشير، بعض مشايخ آل جنبلاط، متسلمي جبل الشوف، وبعض من أمراء أبي اللمع، متسلمي بلاد المتن، الذين أرسلوا إلى أقاربهم، ليقفوا مع الأمير بشير. فصار أهالي البلاد، يرغبون في دخول الأمير بشير إلى المنطقة، وحكمها. لكن الجزار، دعا الأمير بشير إليه، في ٢٣- أذار- ١٧٩٢م، ووضعه ضمن إقامة جبرية في صيدا، برفقة أخيه الأمير حسن، لعدم مقدرته على السيطرة، على الجبل[٣].

أيقن الدروز، انه لا يمكنهم الوقوف في وجه الجزار، على طول الوقت، فأرسلوا له يعتذرون، وان ما قاموا به، كان بسبب ضرائب الأمير بشير الباهظة، وتعهدوا له بأربعة آلاف (٤،٠٠٠) كيس ذهب، مقابل تعيين الأميرين، حيدر وقعدان، حكاما عليهم، فوافق الجزار واستمر الأميران، يحكمان البلاد، ويرسلان الأموال للجزار، حتى سنة ١٧٩٤م. فشعرا بعدم مقدرتهما، على إكمال مشوار الحكم، نظرا لتأفف الناس، من الضريبة المفروضة عليهم. فأجتمعوا مع أكابر البلاد، وقرروا أن ينصبوا أبناء الأمير يوسف، حكاما بدلا منهما، ويكون

---

[١] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٠٩-١١١.

[٢] المنير- الدر، ص ٤٣١ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٤٣.

[٣] الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٤٣-١٤٤.

جرجس باز، أبن اخت سعد الخورى، وصيا عليهم، حتى يبلغوا سن الرشد، وأرسلوا إلى الجزار بذلك، فأبدى موافقته[١].

قام الجزار بتقليد الأمير بشير، حاكما على البلاد، في نيسان- ١٧٩٤، لعدم مقدرة أبناء يوسف وجرجس، على تطويع البلاد وفرض الضريبة التي أرادها، فسار الأمير بشير إلى دير القمر، وفر أبناء الأمير يوسف إلى المتن. ولم يستطع الأمير بشير القبض عليهم، فأزعج هذا الجزار، وأمر قادة عسكره، بأن يقبضوا على الأمير بشير، واخيه حسن، والشيخ بشير جنبلاط، ويحضروهم إلى سجن عكا[٢].

أعاد الجزار أبناء الأمير يوسف إلى الحكم، في تشرين الثاني سنة ١٧٩٤، لكن حكمهم كان قصيرا، لأنهم لم يقدموا الأموال المطلوبة منهم. وأعاد الأمير بشير، حاكما على البلاد، بعد أن أمضى سنة كاملة في السجن، وأبقى عنده زوجته، واحد أبنائه، وزوجة بشير جنبلاط، كرهائن على الأموال المطلوبة من الأمير بشير[٣].

استعان أبناء الأمير يوسف بوالي الشام، " عبد الله باشا العظم " لحرب عسكر الجزار، بقيادة بشير، في كانون الثاني ١٧٩٦، إلا أن بشير، استطاع أن يهزمهم، ويطردهم من البلاد. وضبط أموالهم، وأموال المشايخ الذين آزروهم، وقام بإرسالها للجزار. لكن هذه الأموال، لم تكف بما طلبه الجزار، ففرض ضريبة الشاشية* على الدروز. ولجأ المشايخ الفارون، إلى أبناء الأمير يوسف، وتوجهوا جميعهم إلى الجزار في عكا، سنة ١٧٩٧[٤]. وقبلهم الجزار بصدر رحب، لكنه أبقى الأمير بشير في الحكم، كالمعتاد.

حاصر الفرنسيون عكا سنة ١٧٩٩م، فأرسل الجزار إلى بشير، يطلب منه معونة عسكرية، لكن الأخير، أعتذر له، بأن البلاد ليست بيده، ولا تطيعه، وفي الوقت نفسه، أرسل " بونابرت Bonaparte " إلى الأمير بشير، يدعوه إلى الاشتراك إلى جانب الفرنسيين، ضد الجزار، في ٢٠- آذار- ١٧٩٩م. لكن بشير، لم يرد على هذه الرسالة، فكتب له يعاتبه، لعدم الرد على الرسالة الأولى. ووقعت هذه في يد الجزار، فسر من الأمير بشير، وطلب منه المساعدة

---

(١) المنير- الدر، ص ٤٣٨ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦٠ ؛
شيخو- بيروت في عهد الشهابيين، المشرق، مج ٢٤، ص ٢٧١.

(٢) المنير- الدر، ص ٤٤٠-٤٤٣ ؛ غيز- بيروت، ج ٢، ص ٨٦-٨٨.

(٣) المنير- الدر، ص ٤٤٤ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦٩-١٧٠ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٥.

* هي ضريبة تفرض على كل ذكر بالغ بمقدار قرشين، أنظر الشهابي- لبنان، ج١ ، ص ١٣٥.

(٤) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٢١-١٢٢ ؛ المنير- الدر، ص ٤٥٠-٤٥٣.

مرة أخرى، لكنه إعتذر ثانية[1]. ويقول سليمان : " لما قدم نابليون بونابرت، في حملته الشهيرة على مصر، وبلاد الشام، لم يتمكن أعيان الإمارة الشهابية، من اتخاذ موقف موحد منها "[2].

يبدوا من هذا، أن الأمير بشير، كان ينتظر نتيجة الصراع، الدائر في عكا، للإنضمام إلى المنتصر، بغض النظر عمن هو.

بعد رحيل الفرنسيين عن عكا، نشأت ثمة صداقة بين الأمير بشير والسر " سدني سميث Sidney Smith " قائد الأسطول الإنجليزي، في البحر المتوسط، الذي طلب من الجـــزار، أن يصفح عن الأمير بشير، وان يخرج ابنه وزوجته من السجن، لكن الجزار رفض ذلك[3].

عزم الجزار على إرسال أبناء الأمير يوسف، ليحكموا بدلا من الأمير بشير، فهو يعرف، أن بإمكانه تجنيد هؤلاء الأخوة، ضد بعضهم البعـــض، وان يزيـــد الضرائـــب والرســوم كمـــا يشتهي[4].

ج - المرحلة الثانية (١٨٠٠-١٨٠٤)

توقف الجزار، عما كان عازما عليه من تدبير، ضد الأمير بشير، بسبب قـــدوم وزيـــر الصدارة العثمانية " يوسف ضيا باشا " متجها إلى مصر لحرب الفرنسيين، وعندما علـــم الأمـــير بشير بقدومه، توجه لمقابلته، وشرح له أوضاع البلاد، وما يعانيه الأهالي من ظلم الجزار، بأخذه الأموال والضرائب الكثيرة، دون توقف[5].

غضب الصدر الأعظم، لما سمع من الأمير بشير، وأصدر أمرا فـــي شبـــاط- ١٨٠٠م يقضي بتعيين الأمير بشير، حاكما على جبل الشوف، ووادي التيم، وبعلبك، والبقاع، وبلاد جبيل،

---

(١) بازيلي- سوريا، ص ٧٨ ؛ إسماعيل- تـــاريخ لبنـــان (الوثـــائق)، ق ١، ج ١، ص ٢٤٤ ؛ سويد- التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٩٥.

(٢) سليمان- قراءة في التاريخ السياسي، تاريخ العرب والعالم، ع ١٠٢، ص ١٦.

(٣) المنير- الدر، ص ٤٧٢ ؛ نوار- وثائق، ص ٢٤.

(٤) بازيلي- سوريا، ص ٨٦-٨٧.

(٥) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٧.

ولا تعود هذه المناطق، تابعة لولاية صيدا، بل تورد الأموال الأميرية منها مباشرة بواسطة الأمير الشهابي، إلى الدولة العثمانية، كما كان في زمن الأمراء المعنيين(١).

وبهذا الإجراء، تكون لبنان قد خرجت من يد الجزار، وأصبح الأمير بشير خاضعا للباب العالي مباشرة. لكن سياسة الجزار وحنكته، حالتا دون ذلك. فأرسل إلى الدولة، يشكو لها تذمر الفلاحين من الأمير بشير، فأعاد بذلك المناطق السابقة الذكر، إلى حكمه(٢).

وجه الجزار العسكر، بقيادة أبناء الأمير يوسف، لمحاربة الأمير بشير، في ٢٤- تشرين الثاني- ١٨٠٠م، في دير القمر، فتيقن بشير، أنه لا يستطيع المجابهة، بسبب ميل أهالي البلاد لحكم أبناء الأمير يوسف، فتوجه إلى المتن، ولم يتبعه غير مشايخ آل جنبلاط. وبعث بمكتوب إلى الصدر الأعظم، في يافا، في ٢٨- تشرين الثاني- ١٨٠٠، يشكو له الجزار(٣).

توجه الأمير بشير إلى بيروت، وتلقى رسالة من الأميرال الإنكليزي " سميث " يدعوه فيها لمقابلته في العريش، ليقابله بالصدر الأعظم، فيشكو له من الجزار، وتم ذلك، ووعده الصدر الأعظم بالانتقام من الجزار، عند إنتهائه من حرب الفرنسيين(٤).

في ١٦- أيار- ١٨٠١م، أرسل الجزار إلى أبناء الأمير يوسف العسكر، كي تأخذ الأموال الأميرية، فأرسلوا له عشرين ألف (٢٠،٠٠٠) قرش، واعتذروا له عن قلة ما استطاعوا إرساله. فغضب الجزار لذلك، وطلب أن يوفوه بمواد عينية، بدلا من المال، فقام أبناء يوسف، بتنفيذ ما طلبه الجزار. فهاجت الناس لهذا الإجراء، وقرروا طردهم، وتنصيب الأمير بشير حاكما عليهم، دون إذن من الجزار(٥).

أرسل الأهالي وفدا منهم، يطالبون بشير، بالعودة إلى البلاد، وتسلم الحكم فيها، حيث كان معتصما في عكار(٦).

---

(١) المنبر- الدر، ص ٤٧١ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٣٧.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٨-١٤٠ ؛ المنير- الدر، ص ٤٧٦-٤٧٩ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦١ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٤٠ ؛ المنير- الدر، ص ٤٧٩.

(٤) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٤٧.

(٥) المنير- الدر، ص ٤٧٩-٤٨٠ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٤٢٠-٤٢٢ ؛ الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٧١ ؛ حكمت حداد- لبنان، ص ٧٩ .

(٦) الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٧٥-٣٧٦ ؛ سويد- التاريخ العسكري، ج ٢، ص ١٩٦.

في ١٦- تشرين الأول- ١٨٠١، أعلن الأمير بشير الحرب على الجزار، وكان أبناء الأمير يوسف قد تحصنوا في دير القمر، مع عسكر الجزار، فوصلها الأمير بشير، في ٢- تشرين الثاني- ١٨٠١م. وعلم أنه لا يستطيع دخولها، فعرج إلى بعقلين، المقابلة لدير القمر، وأرسل إلى باز، للإتفاق على أن يحكم جبل الدروز، ويحكم باز وأبناء يوسف جبيل، فتم الإتفاق على ذلك. إلا أن باز، غدر بالأمير بشير، ولم يحفظ الإتفاق، فجمع العسكر، واتجه لمحاربة الأمير بشير، ولكن بشيرا استطاع قهره، مما اضطره إلى طلب الهدنة والعودة إلى الإتفاق السابق. فوافق بشير، على ذلك، وعندما علم الجزار بهذا الإتفاق، دعا عسكره للعودة، خوفا عليهم من اجتماع الدروز، وبعدها سار الأمير بشير وجرجس باز، سوية إلى دير القمر، وتولى أبناء الأمير يوسف، منطقة جسر المعاملتين، إلى طرابلس. أما جبل الدروز إلى نهر الكلب، فيحكمه الأمير بشير، وتعطى كسروان لأخيه حسن، ويبقى باز مع الأمير بشير، مدبرا لأموره[١].

أثارت هذه الحادثة، جنون الجزار، لأنه يعرف، أن لبنان منيع في وجه جيشه، طالما عاش أهله في وئام. واستمر فترة ثلاث سنوات، يبحث عن البديل، ويزرع الشقاق، ويزكي الخصومات في جبل لبنان، إلى أن استطاع أن يستميل إليه، بعض مشايخ العماديين. وهؤلاء، اختاروا الأمير عباس أسعد الشهابي، وأخذوه إلى الجزار، ليعلنه حاكما على البلاد، فسر الجزار لذلك، وخلع عليه الالتزام، وارفقه سليمان باشا، الذي عاد إلى الجزار، بعد الخيانة التي حصلت منه، ومن المماليك، في ١٧٨٩م، ووجههم إلى الجبل، لطرد الأمير بشير، وأولاد يوسف[٢].

في ١٠- آب- ١٨٠٢، دخل الأمير عباس، بعد فرار الأمير بشير منه، إلى البلاد لكنه وجد مقاومة قوية من الأهالي، لميلهم إلى الأمير بشير. وجمع الأمير بشير العسكر، وهزم الأمير عباس، مما اضطر الجزار أن يستدعي الأخير، لأنه أدرك انه أضعف من أن يكون الأداة، التي يسيطر بها على الجبل. فأمر عباس أن يقيم في وادي التيم، وان يعود الجيش إلى عكا[٣].

تقدم الأمير سليمان، ابن الأمير سيد أحمد الشهابي إلى الجزار، كي يحكمه على البلاد ويكون برفقته الأمير عباس، فوافق الجزار، وأرسل اليهما العسكر لطرد الأمير بشير إلا أن تمرد

---

(١) المنير- الدر، ص ٤٨٠-٤٨٢ ؛ باز- مذكرات، ص ٨ ؛ حكمت حداد- لبنان، ص ٨٠.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٥٠-١٥٦ ؛ المنير- الدر، ص ٤٨٩-٤٩٢ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦١.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٥٨ ؛ الشدياق- أخبار، ج ١، ص ١٦١؛ حكمت حداد- لبنان، ص ٨٠.

يوسف الجزار، حال دون مهمة الأميرين، فوجههما الجزار نحو قلعة سانور. في نهاية سنة ١٨٠٢م[١].

أرسل الأمير بشير إلى الجزار، يستعطفه، ويطلب منه السماح، وأنه مستعد لما يفرضه الجزار عليه، مقابل أن يسمح له بحكم البلاد. ونظرا لانشغال الجزار في حصار قلعة سانور، أبدى موافقته على ما طلبه بشير، في تشرين الأول- ١٨٠٣م، ورحبت الناس بهذا القرار، ففر الأميران إلى بيروت، ودفع الأمير بشير أربعمائة ألف (٤٠٠،٠٠٠) قرش، عن الضرائب المتأخرة في السنوات المنصرمة، وخمسمائة ألف (٥٠٠،٠٠٠) قرش كأتاوة سنوية. واطلق الجزار سراح الرهائن الموجودين في سجنه. وأصدر مرسوما للأمير بشير، جاء فيه : " بعد التحية والسلام ... فلأجل صدوقيتك، وخدماتك ... صفحنا عن خطاك وعفونا عنك، فالمراد أن تكون طيب الخاطر، وان تثبت على صدق الخدامة، وإن شاء الله، تشاهد ما يسرك، واعلم ذلك، واعتمده غاية الاعتماد والسلام "[٢].

لقد مد الجزار نفوذه على حساب الشهابيين، وتدخل في شؤون الإمارة الداخلية مما سبب الانقسام السياسي، بين أعيان الإمارة. ويعلق سليمان على ذلك بقوله : " إن تدخل الجزار هذا، لم يكن يبلغ درجة الخطورة، لولا طغيان شهوة السلطة والحكم لدى بعض الأمراء الشهابيين من جهة، وانسياق كبار المقاطعجيين الدروز، إلى حلبة الصراع، بغية إحراز بعض المكاسب السياسية، من جهة أخرى "[٣].

---

[١] اوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨٢ ؛ حكمت حداد- لبنان، ص ٨١.

[٢] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٦٥-١٦٦.

[٣] سليمان- قراءة في التاريخ السياسي، تاريخ العرب والعالم، ع ١٠٢، ص ١٥.

ثامناً – علاقة الجزار بالمتاولة.

أ – مرحلة التعايش السلمي معهم.

ينقسم المتاولة إلى ثلاث عائلات، بيت علي الصغير، بقيادة الشيخ، ناصيف النصار في بلاد بشارة، وبيت منكر، بقيادة محمد الحسن، وبيت بني صعب، بقيادة الشيخ، حيدر الفارس، في مقاطعة الشقيف(١).

بدأت علاقة الجزار بالمتاولة، منذ توليه حكم ولاية صيدا، فوقفوا إلى جانبه، في حربه ضد علي الظاهر، في شهر أيار ١٧٧٦، عندما تحصن في دير حنا(٢).

بعد ذلك، قام الجزار، بزيارة مدينة صور، مقر شيخ المقاطعة المتوالي. ويقول الزين : " زار الجزار مدينة صور، في أول سنة من سني حكمه، ونزل عند الشيخ، حمد العباس . وهذا فيه من المعاني، ما يشف عنه، أن الجزار، كان يحرص على تطمين المتاولة، وتوثيق الصلة بينه وبينهم "(٣). كما أن الجزار عمل على تأكيد هذه الصلة، بزيارته الثانية إلى مدينة صور، واجتماعه مع الشيخ ناصيف النصار(٤). ونلحظ من هذا، أن العلاقة بين الجزار والمتاولة، بدأت علاقة ودية، تخللها رضى كل من الطرفينن عن الأخر، وما يؤكد ذلك، مساعدة المتاولة للجزار، في حربه ضد أبناء ظاهر.

كان الجزار يعلم أن المتاولة، قوة لا يستهان بها، ولذلك حاول منذ البداية، أن يكسبهم إلى صفه. ويؤكد ذلك سليمان بقوله : " كان بإمكان كل شيخ، أن يجند عند الحاجة، مائتين وخمسين، إلى ثمانمائة رجل، وإذا اجتمعوا معا، فإنهم يشكلون قوة مثالية "(٥).

بعد أن تخلص الجزار، من سلطة أبناء ظاهر، توجهت أنظاره نحو المتاولة، بما أنهم القوة المجاورة، وغير الخاضعة لأي سلطة، تخرج عن نطاق سلطة شيخ المقاطعة. فأرسل لهم يطلب الأموال الأميرية، المؤجلة، فرفضوا، وحشدوا حصونهم بالمقاتلين، والأسلحة واستعدوا للقتال. فجهز الجزار حملة لتهديم قلاعهم وحصونهم، وجمع المال الميري، من الملتزمين في

(١) أحمد رضا- (المتاولة أو الشيعة في جبل عامل)- المقتطف، مج ٣٦، ص ٢٣٨ ؛
رافق- بلاد الشام، ص ٢٣٤ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار- تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٥.
Cohen, Palestine, P. 98.

(٢) بريك- تاريخ الشام، ص ١١٥ ؛ الركيني- جبل عامل في قرن، العرفان، مج ٢٨، ص ٣٥٠.

(٣) علي الزين- جبل عامل في عهد الجزار، العرفان، مج ٦١، ج ٨، ص ١١٤٧.

(٤) المصدر نفسه، مج ٦١، ج ٨، ص ١١٤٧.

(٥) سليمان- مقاومة سياسه، تاريخ العرب والعالم، ع ٨، ص ١٤٥-١٤٦.

المنطقة، لكن مشايخ جبل عامل قرروا تجنب العاصفة، التي قد تتسبب، في تدمير ونهب بلادهم[١]. وقرروا الإتجاه إلى عكا، للتباحث مع الجزار حول شروط الصلح، فتطوع الشيخ قبلان، حاكم صور، للقيام بهذه المهمة. وتم الاتفاق، على أن يدفع المتاولة في سنة ١٧٧٦، مبلغ مئة وخمسين (١٥٠) كيس ذهب، وأن يدفعوا مئة وخمسين (١٥٠) كيساً أخرى، خلال سبعة أشهر و ثلاثمائة (٣٠٠) كيساً، خلال سنة ١٧٧٧م، ووافق الجزار على ذلك. وطلب من زعماء المتاولة، الاشتراك بقواتهم، في الحملة التي ينوي القيام بها، على جبل الدروز، إلا انهم اعتذروا عن ذلك[٢]. ووقفوا موقف الحياد، من الحملة التي يزمع الجزار القيام بها، وهنا لابد من السؤال، لماذا اتخذ المتاولة هذا القرار؟ بما أنهم حلفاء الجزار في الأمس، وأصدقاؤه في الحاضر.

يتفق كل من الزين والفقيه، في سبب رفض المتاولة، للاشتراك في هذه الحرب، بإبداء الأسباب التالية : وهي رغبة المتاولة، بعدم العودة، إلى حياة الكر والفر، التي كانت سائدة، في النصف الأول، من القرن الثامن عشر، في جبل الدروز، وجبل عامل، كما أن الاشتراك في الحملة المرتقبة على جبل الدروز، يحتاج إلى نفقات باهظة، ستؤدي إلى مضاعفة نفوذ الجزار، على حساب المتاولة، إضافة إلى السبب الأقوى للرفض، وهو أن خضوع وولاء الدروز للدولة، سوف يوجه الأنظار إليهم فيما بعد[٣].

قبل الجزار عذر المتاولة، وذلك بسبب خوفه على قواته، التي تريد الزحف إلى جبل الدروز، بعدم عرقلة سيرها، أو التصدي لها أثناء مرورها في بلادهم.

شهدت الفترة الممتدة بين (١٧٧٦-١٧٨١م)، سلسلة من الفتن الداخلية، في جبل الدروز، استفاد منها شيوخ المتاولة، فامتنعوا عن دفع الميري المتوجبة على بلادهم، وتعدوا على القوافل التجارية، التي كانت تجتازها، في طريقها من صيدا إلى فلسطين[٤].

وفي سنة ١٧٧٧م أرسل الجزار قواته، الموجودة في بلاد الشوف، للقبض على المتاولة، في بعلبك وزحلة، ومصادرة أموالهم، وتجريم أعيانهم ومشايخهم. فألقوا القبض على محمد الحرفوش شيخ المتاولة في بعلبك، ووضعوه في الحبس، وداهموا زحلة، ونهبوها[٥].

---

[١] سليمان- مقاومة سياسة، تاريخ العرب والعالم، ع ٨، ص ١٤٦.

[٢] الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ١٦١-١٦٢.

[٣] على الزين- جبل عامل في عهد الجزار - العرفان، مج٦١، ع ٨، ص ١١٤٦؛
الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ١٦٢.

[٤] الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ١٦٤.

[٥] المنير - الدر، ص ٣٨١ ؛ كرد علي- خطط، ج ٢، ص ٣١٤.

ب - موقعة يارون.

استمرت المناوشات الجارية بين المتاولة، والجزار، إلى أن جمع الجزار قوة قوامها ثلاثة آلاف (٣،٠٠٠) رجل، وجعلها بقيادة مملوكه سليم باشا، ووجهها نحو بلاد المتاولة[١]. وتختلف الروايات في سبب إرسال هذه الحملة، نحو بلاد المتاولة، فالزين يرى أن السبب في إرسال حملة الجزار إلى المتاولة، هو أنه عندما قتل الأمير يوسف الشهابي أخاه الأمير أفندي، خاف من نقمة الأهالي، ففر إلى عكا، وعند وصوله إلى بلاد المتاولة، التقاه الشيخ ناصيف النصار، وعرض عليه أن يسلمه بلاده، فوصلت الأخبار للجزار[٢].

يبدو مما سبق، أن هذا القول مشكوك فيه، حيث لا يمكن أن يكون هذا سبباً، في ثورة وغضب الجزار على المتاولة. كما أن الأمير أفندي، قتل في سنة ١٧٧٩م، فلماذا تذكر الجزار موقف ناصيف سنة ١٧٨١م.

ويروي الزين قصة أخرى، في أن السبب الرئيس للحملة على المتاولة، هو أن الجزار أراد الانتقام من الأمير إسماعيل الشهابي، حاكم حاصبيا، بسبب شكوى اليهود عليه، وعند مرور جيشه عبر بلاد المتاولة، تفاجأ به الشيخ ناصيف النصار، وتوقع انه قادم لحرب المتاولة، فخرج على رأس ألف (١،٠٠٠) فارس، للتصدي للحملة[٣].

ويمكن القول أن هذا السبب ضعيف نوعاً ما، فكيف استطاع ناصيف النصار، أن يجمع بهذه السرعة، قوة مقدارها ألف فارس، بما انه تفاجأ بعبور الجيش من بلاده.

أما سليمان وتوما، فيوردان رأياً اكثر دقة، وهو أن امتناع المتاولة عن دفع الميري، والهجمات المستمرة من قبل المتاولة على جيش الدولة، كانت السبب في إرسال الجزار لحملته إلى بلادهم[٤]. ومن المرجح أن يكون هذا هو السبب في إرسال الحملة. وبالنسبة لمجريات المعركة، فقد التقى جيش الجزار بقيادة سليم باشا، بجموع المتاولة بقيادة الشيخ ناصيف النصار، في قرية " يارون " الواقعة ضمن بلاد بشارة، في ٢٣- أيلول- ١٧٨١م. وانتهت هذه المعركة

---

[١] الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٢٦٤.

[٢] الزين- جبل عامل في عهد الجزار، مج ٦١، ع ٨، ص ١١٥٦.

[٣] المصدر نفسه- العرفان، مج ٦١، ع ٨، ص ١١٦١.

[٤] سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٩ ؛ توما- فلسطين، ص ٥٦-٥٧.

بمقتل الشيخ ناصيف النصار، وأخيه أحمد، وما يقارب ثلاثمائة إلى أربعمائة (٣٠٠-٤٠٠) من مقاتليه، في حين خسر سليم باشا ثلث قواته[١].

- مرحلة الصراع معهم، والقضاء على نفوذهم.

فر بعض المتاولة الذين سلموا من هذه الواقعة إلى بعلبك، حيث آل الحرفوش، والبعض الأخر إلى بلاد عكار[٢]. وسبيت النساء، حيث كانت المرأة تباع بـ ثلث قرش[٣]. ويصف الشهابي ما حل بالمتاولة بقوله : " بعد موت هذين البطلين (ناصيف وأخيه) هربت بني متوال واخلوا البلاد، وتفرقوا فى كل شعب وواد، وعساكر الجزار دخلت بلاد بشارة"[٤].

بعد أن انتهت المعركة، تقدم سليم باشا إلى بلاد بشارة، لتحطيم القلاع السبع الرئيسة فيها : (هونين، وتبنين، وبارون، وميس، وصربا، وجباع، وشمع) واستولت العساكر على مدينة صور[٥].

صمد الشيخ حيدر الفارس الصعبي برجاله، في قلعة الشقيف، وفشلت جهود سليم باشا لاحتلال القلعة[٦]. وأمضى شهراً كاملاً في حصارها، ولم تستطع عساكر الباشا تحقيق أي كسب، بسبب رداءة القنابل المستعملة، وجهل المحاصرين باستخدام سلاحهم، وشجاعة المحاصرين الذين ابدوا بسالة، في الدفاع عن أنفسهم، خشية أن يصيبهم ما أصاب أبناء ملتهم[٧].

وعندما طال الحصار على قلعة الشقيف، أرسل الشيخ حيدر الفارس إلى الجزار يعلمه بأنه مستعد أن يسلم القلعة للجزار شخصياً. فسر الجزار لذلك[٨]، لأن حصار قلعة الشقيف لفترة أطول، كان أمراً صعباً على الجزار، بحيث يكلفه نفقات باهظة، ويؤدي إلى إزالة الهيبة والخوف، التى كان يثيرها اسم الجزار، بعد احتلاله حصن دير حنا، وانتصاره على الشيخ ناصيف النصار.

---

(١) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٣ ؛ الزين- جبل عامل- العرفان، مج ٦١، ع٨، ص ١١٥٦ ؛ كرد علي- خطط، ج ٢، ص ٣١٥. Cohen, Palestine, P. 101.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٣ ؛ الركيني- جبل عامل في قرن- العرفان، مج ٢٨، ع ٤، ص ٣٥٠.

(٣) المنبر- الدر، ص ٣٨٧.

(٤) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٣.

(٥) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٣ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص٥٠.

(٦) الفقيه- جبل عامل، ص ٢٦٥ ؛ علي مروة- تاريخ جباع، ص ٣٥٣-٣٥٦.

(٧) سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٥٠ ؛ الفقيه- جبل عامل، ص ١٦٦.

(٨) سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٥١.

فحضر الجزار شخصياً إلى القلعة، في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٧٨١، وتسلم القلعة من الشيخ حيدر الفارس[١].

عمل الجزار بسياسة اللين، تجاه المتاولة، بعد الهجرات الجماعية التي قاموا بها من مناطقهم، فقرب شيخ مدينة صور إليه، وأقطع الشيخ حيدر الفارس وأتباعه، إقطاعاً ليعيشوا فيه، ويكون لهم كملك[٢].

اتبع الجزار هذه السياسة السلمية، ليضمن تأهيل المنطقة بالسكان، وزراعة الأراضي الخصبة، في هذه المناطق، إلا أن المتاولة، لم يرضوا بهذا الحال، ففر الشيخ حيدر وجماعته إلى دمشق، وظل شيخ صور وأتباعه، ينتظرون الفرصة الملائمة، للتخلص من حكم الجزار، والعودة إلى حكم بلادهم بأنفسهم.

انتشرت إشاعات في بلاد عاملة، بأن الباب العالي سوف يرسل حملة بحرية وبرية، لتدمير الجزار، في ٨- أيار- ١٧٨٢. وعند مرور إحدى البوارج التجارية الفرنسية، وبرفقتها سبعة عشرة مركباً، من أعالي شواطئ مدينة صور، ظن العامليون أنها حملة القبطان المزعومة، فأعلنوا العصيان على الجزار، وكان الأخير في هذا الوقت، يقوم بتفقد بعض المدن التابعة لحكمه، إلا أن قواته نجحت في هذه المرة، بتدمير نفوذ المتاولة تقريباً[٣].

بعد الدمار الذي لحق بجبل عامل، أقام الجزار ضباطه حكاماً على مقاطعاته، وحكم تلك البلاد حكماً مباشراً، مما رفع مكانته في الأستانة[٤]. ويسلط العورة الضوء، على الأذى الذي لحق بالمتاولة، بقوله : " كان الجزار مجرداً سيف الظلم على المتاولة، يأخذ رجالهم إلى ورشة عكسا (بالسخرة) فيحشرهم السائقون بسرعة الجري، وبسبب ضيق الطريق، كانوا يسقطون في البحر، بالخمسين والستين "[٥].

شكل الشيخ فارس ناصيف النصار، واخوته، وباقي المشايخ، الذين فروا إلى بعلبك وعكار، فرقاً انتحارية، هدفها الإيقاع بعمال الجزار، والفتك بهم. كما كانوا يأخذون الميري من

---

(١) الفقيه- جبل عامل، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) الركيني- جبل عامل في قرن، العرفان، مج ٢٨، ص ٩٥١.

(٣) الركيني- جبل عامل في قرن، العرفان، مج ٢٨، ص ٩٥٢ ؛ الفقيه- جبل عامل، ص ٢٦٩ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٣ ؛ توما- فلسطين، ص ٥٧.

(٤) الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٢٧٠ ؛ توما- فلسطين، ص ٥٧.

(٥) العورة- تاريخ ولاية، ص ٣٥.

السكان بالقوة، وعرف هؤلاء بإسم الطياح، أي قطاع الطرق[١]. فأقام الجزار مراكز كثيرة تدعى (السردله)، وضع فيها العسكر وأرسلها للبحث عنهم في بلاد عاملة، لكنها كانت تعود خائبة. ثم عين الجزار عساكر من العامليين أنفسهم، ومع ذلك، لم يجد هذا الإجراء نفعا[٢].

استغل الطياح انغماس الجزار، في القتال الدائر بين أفراد آل شهاب والجزار، في الشوف. فزادوا من هجماتهم على القوات القليلة المتبقية في بلادهم، وتشجع الكثير من المتاولة الذين فروا إلى دمشق، فحضر حوالي ستمائة (٦٠٠) فارس منهم، وشكلوا مع الطياح قوة مهاجمة، وانضم إليهم حوالي الألف، من فلاحي جبل عامل[٣].

بلغ المتاولة أن الدروز، عمدوا إلى حرب الجزار، فنظموا صفوفهم للأخذ بثأرهم من الجزار، وتوجهوا إلى قلعة تبنين، وأحاطوا بها، وفتحوها، وقتلوا المتسلم فيها من قبل الجزار، وقتلوا معه مئتي (٢٠٠) نفر[٤] .

غضب الجزار عندما سمع ذلك الخبر، واحضر قواته المنتشرة في جبل الدروز، ووجهها إلى جبل عامل، في شهر حزيران سنة ١٧٨٤. وقصف أربعة قرى عاملية، ودمرها تدميرا كاملا. وتمكنت قواته من الانتصار على الطياح، وبعد أن أعاد النظام إلى جبل عامل، ترك جانبا من قواته التي أرسلها إلى هناك، للحفاظ على الأمن فيها، وسحب ما تبقى منهم، لاستخدامه في حملة جديدة على جبل الدروز[٥].

عندما تولى الجزار ولاية الشام، سنة ١٧٨٥م، توزعت قواته بين ولايات صيدا وطرابلس ودمشق، كما اخذ الكثير من العسكر برفقته، لجمع الميري من نابلس، فوجد المتاولة أن هذه فرصتهم للقيام بالثورة مرة أخرى ضد الجزار، وقرروا أن يستهلوا مخططهم، بالهجوم على صور، وذبح عساكر ومتسلم الجزار فيها، لكن سليم باشا علم بالمخطط قبل تنفيذه، فاصدر امرا إلى متسلم مدينة صور، باعتقال المشايخ والأعيان والمتآمرين، وإرسالهم إلى عكا.

---

[١] العورة- تاريخ ولاية، ص ٣٤ ؛ سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٥٢ ؛ الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٢٧٠.

[٢] الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٢٧٠.

[٣] سليمان-مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٥٧.

[٤] المنير – الدر، ص ٣٩٤.

[٥] الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٢٧٢.

وفي ٢٤- أيار- ١٧٨٦، نفذ الجزار بهم عقوبة الإعدام، فخوزق أربعة وثلاثين منـــهم، علـــى أبواب المدينة(١).

استطاع بعض المتاولة الفرار، والالتجاء إلى الأمير يوسف الشهابي. وكان الجزار علـــى وشك الخروج بقافلة الحج، فخشي أن يستغل هؤلاء فرصة غيابه، ويتعاونوا مع الأمير الشهابي الحاكم، للانتقام لما أصابهم على يد الجزار. فأمر سعد الخوري المرهون لديه، بالكتابة إلى الأمير يوسف، يطلب منه إلقاء القبض على العامليين، الموجودين عنده. فاستجاب هذا لما طلبه الجزار، وسلمهم إلى سليم باشا نائب الجزار في عكا، ولم يراع الأمير يوسف أصول الضيافـــة. ويقـــول الشهابي: " قبض الأمير يوسف، على بني علي الصغير الشيعة ... وأرسلهم إلى عكا، إلى سليم باشا ... ولم يحفظ الجوار ويرعى الزمام، وفي وصولهم إلى الباشا المذكور، قتلهم، ولام النـــاس الأمير يوسف على ذلك "(٢).

بعد هذا الحادث هدأت الأوضاع في بلاد المتاولة، وسيطر الجزار على الأمور، ســيطرة تامة، إلى أن ظهر الأمير جهجاه الحرفوش في بعلبك، سنة ١٧٨٨م وكـــان هـــذا علـــى صلـــة حميمة مع الأمير يوسف الشهابي، فاشترك معه في حربه ضد الأمير علي الشهابي في تشريـــن ثاني ١٧٨٨م. مما اضطر الجزار، أن يرسل المساندة إلى الأمير علي الشهابي، وجـــرت بينـــهم معركة في ١٣- آب- ١٧٨٩م انتصر فيها الأمير علي وعسكر الجزار، على الأمـــير يوســـف وجهجاه الحرفوش(٣).

تحصن جهجاه الحرفوش في بعلبك، فأرسل الجزار قوة للإيقاع به واتباعه من المتاولـــة، بقيادة ابن عم جهجاه الأمير بشير الحرفوش. وحاصر هذا بعلبك مدة نصف شهر ولـــم يســـتطع دخولها فأمدهم الجزار بالعسكر، فهرب جهجاه(٤)

جمع جهجاه المقاتلين، وتوجه بهم إلى بعلبك، حيث مقر حكم أبناء عمـــه بشـــير وقاســـم الحرفوش، حيث ولى الجزار بشير بدل قاسم، ليكون حاكما على المدينة، واستطاع جهجاه دخول بعلبك، وقتل ابن عمه بشير، ونظم جهجاه صفوفه مرة أخرى، فجمع الرجـــال، وبـــدأ بمناوشـــة عسكر الجزار. ويقول المنير: " في نهاية سنة ١٧٩١، جمع جهجاه الرجال ... ودخل بعلبك في منتصف الليل، ووزع الرجال في أرجاء المدينة، وعندما بدأ إطلاق الرصاص، ارتعـــب جيـــش

---

(١) الفقيه- جبل عامل في التاريخ، ص ٧٥.

(٢) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٤١.

(٣) الشهابي- لبنان، ج١، ص١٤٤-١٤٥ ؛ المنير- الدر، ص ٤١٣ ؛ الشدياق- أخبار، ج١، ص ١٠٣-١٠٨.

(٤) المنير- الدر، ص ٤٢١.

الدولة، وظن أن هناك عددا هائلا من الجيش، دخل المدينة، ففر معظمهم، وقتل الذين بقوا في المدينة "[١].

حكم جهجاه بعلبك سنة ١٧٩٦، فأرسل الجزار العسكر للقبض عليه، إلا انه استطاع الفرار، واللجوء إلى والي الشام، " عبد الله باشا العظم "، الذي أرسل خلاع حكم بعلبك إلى الأمير جهجاه الحرفوش[٢].

عندما انتهى حصار عكا من قبل الفرنسيين، سنة ١٧٩٩م، غضب الجزار على المتاولة، لأنهم كانوا يحضرون الأمتعة للفرنسيين، فأهلكهم بالقتل، والحبس، والحفر، والبناء[٣]. وقد جاء متاولة صفد ايضا لمعاونة الفرنسيين، في حربهم ضد الجزار، بقيادة الشيخ صالح، أحد أحفاد ظاهر العمر[٤]، ولم ترد إشارة إلى اشتراك هؤلاء فعليا، في الحرب إلى جانب " بونابرت Bonaparte ".

ظل الجزار مسيطرا على بلاد المتاولة، والعمل على إبادة كل حركة، تشير إلى ظهور المتاولة في ساحة النزاع السياسي.

يعلق بازيلي على هذا الموضوع، بقوله : " هكذا كانت تغادر القبائل والأسر، مسرح سوريا السياسي، واحدة إثر الأخرى، تاركة مكانها للتأثير المباشر للسلطة الحكومية، التي ترث اكثر التقاليد تجردا من الأخلاق "[٥].

---

[١] المنبر - الدر، ص ٤٢٧.

[٢] المصدر نفسه، ص ٤٤٤-٤٤٥.

[٣] السبيتي - جبل عامل في قرنين، العرفان، مج ٥، ع ١، ص ٢٣.

[٤] نوفل - كشف اللثام، ص ١٩٩ ؛ بازيلي - سوريا، ص ٧٧.

[٥] بازيلي - سوريا، ص ٧٢-٧٣.

الفصل الثالث

حملة نابليون على عكا ودور الجزار في صدها

أولاً : الحملة الفرنسية على الشرق.

أ - جذور التفكير بالحملة الفرنسية.

ب- أهداف الحملة.

ج- إنطلاق الجيش الفرنسي نحو فلسطين.

د- علاقة الجزار بالفرنسيين.

ثانياً : تنظيم الحملة الفرنسية.

أ - عدة الحملة وعتادها.

ب- سير الحملة.

ج- الزحف نحو يافا واحتلالها.

د- تفشي الطاعون بالفرنسيين.

ه- إحتلال حيفا.

ثالثاً : الزحف إلى عكا.

أ - سياسة بونابرت تجاه الأهالي في فلسطين.

ب- ثبات الجزار.

ج- حصانة عكا.

د- الوصول إلى عكا.

ه- حصار عكا وشجاعة الجزار.

رابعاً : مجريات الحصار واحداثه.

أ - الجو العام للحصار.

ب- متابعة الحصار.

ج- الحرب النفسية.

د- القتال خارج عكا.

خامساً : فشل الحملة الفرنسية في إحتلال عكا.

أ - جلاء الفرنسيين عن عكا.

ب- أسباب الجلاء.

ج- نتائج الحملة.

أولاً: الحملة الفرنسية على الشرق.

أ - جذور التفكير بالحملة الفرنسية

بقيت سياسة الدول الكبرى، تجاه قضايا الشرق، تتأرجح بين أخذ ورد، إلى أن اندلعت نار الثورة الفرنسية في باريس، وقضت على النظام الملكي فيها، وأقامت بدلاً منه، نظاماً جمهورياً ثورياً سنة ١٧٩٢، تألبت عليه الدول الأوروبية المحافظة، بقيادة النمسا وبريطانيا وروسيا. وكان من مهام لجنة السلامة العامة، التي تشرف على شؤون الجمهورية الناشئة، أن تهيء أسباب الدفاع عن البلاد، وإفشال المحاولات الخارجية لإحباط الثورة[١]. فبعد أن قضى الجنرال " نابليون بونابرت **Napoleon Bonaparte** " على الجيش النمساوي، في إيطاليا الشمالية، أدرك رجال الثورة، وأعضاء اللجنة، ومجلس الإدارة في باريس، أهمية نشر مبادئ الثورة في أوربا، وفي حوض البحر المتوسط، وبدا لهم أن التوسع في الشرق، يسهم إلى حد كبير، في احباط الحصار البري، والبحري، الذي عمدت الدول الأوربية إلى فرضه على فرنسا. وكان مبعوثوها وعملاؤها في الخارج، قد زودوا أرباب العهد الجديد في باريس، بتقارير وافية، عن بلاد الشرق وغناها، وامكاناتها الاقتصادية والتجارية الكبيرة، وأهميتها الاستراتيجية على طريق الهند، وكانت جميعها تؤكد على أهمية مصر في هذه المجالات[٢]. فأدرك الساسة الفرنسيون أهميتها، وأن احتلالها يشكل وسيلة فعالة، لحصر النفوذ الانجليزي المتزايد في الهند. لكنها ارادت في البداية، ارسال حملة إلى انجلترا لغزوها، وأوكلت هذه المهمة إلى " بونابرت "، الذي زار الساحل الشمالي لفرنسا، لدراسة القضية. إلا انه توصل إلى الاستنتاج، بعدم نجاح الفكرة، بسبب قوة الاسطول الانجليزي، ولذلك طرح فكرة، ارسال حملة لاحتلال مصر[٣].

كان " بونابرت " مشبعاً بفكرة غزو الشرق، لا إنجلترا. فترد إشارات تدل على تفكيره المسبق للقيام بهذه الحملة، ومنها قوله : " سأنفخ روح الثورة في سوريا، التي ارهقتها مظالم الجزار، وازحف إلى دمشق، فحلب، فينضم المظلومون والموتورون إلى جيشي، في كل مدينة وقرية أصل اليها، ثم أدق باب القسطنطينية، وأطيح بالإمبراطورية التركية، و أنشيء في الشرق امبراطورية عظمى جديدة، تكون موضع إعجاب الاجيال المقبلة، وتجدد مركزي في التاريخ،

---

[١] إسماعيل- الصراع (الوثائق). ق١، ج١، ص ٢٨.

[٢] المصدر نفسه، ق ١، ج ١، ص ٢٨.

[٣] **Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 18 .**

وقد اعود إلى باريس عن طريق ادرنة وفينا، بعد أن اكون قد قضيت على البيت المالك في النمسا "[١] .

أصبحت فكرة غزو الشرق من قبل الفرنسيين، امراً لابد منه. وقد وجد " بونابرت " الكثير من الساسة الفرنسيين، الذين شجعوا هذه الفكرة، فترد مذكرة سرية وجهها " تاليران Talleyrand " وزير الخارجية إلى حكومة الادارة في باريس، بتاريخ ١٣- شباط- ١٧٩٨، تدل على البدء في المحادثات، بشأن توجه الفرنسيين إلى منطقة الشرق وخاصة مصر، التي ستكون قاعدة انطلاق لهم، نذكر منها : " إن احتلالنا لمصر، سيحدث في ميادين التجارة الاوروبية ثورة، لا مفر لبريطانيا من تحمل نتائجها ... وإذ تحتل فرنسا القطر المصري، وتصبح بفعل هذا الاحتلال صاحبة السلطان على طريق السويس، يزول من خاطرها كل تفكير برأس الرجاء الصالح، وبمن يهيمن، أو لا يهيمن عليه ... وبالإضافة إلى هذا، أقول أن مصر، تصلح قاعدة لحملة على الهند، وعلى كل حال، فإن احتلالها يضع في يدنا، انجح الوسائل لطرد بريطانيا من الهند، بشن غارة عليها عن طريق قناة السويس، يكفي للقيام بها، جيش لا يزيد عدده على خمسة عشر الف (١٥٠٠٠) مقاتل ... اما في مصر ... فجيوش المماليك تكاد تكون عزلاء من السلاح، وان الشعب المصري، لن ينتصر لحكام، استنزفوا عرقه ودمه، وانزلوا به كل ضروب الظلم "[٢] .

يعتبر هذا التقرير، نقطة التحول في سياسة فرنسا حيال الشرق، ومع أن الحملة المنتظرة إلى الشرق، وجدت معارضة من الكثير من الساسة الفرنسيين، وذلك لأسباب كثيرة منها : الوجود البريطاني الكبير في المنطقة، وسياسة التعاون والصداقة مع السلطان، التي تتنافى مع ارسال الحملة، إلا أن " تاليران " و " بونابرت " كانا يؤكدان أن احتلال مصر، لا يعني انتزاعها من السلطان، وان الجيوش الفرنسية، لن ترسل إلى مصر لمحاربة العثمانيين، بل للقضاء على مظالم المماليك، الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان، وباتوا عملاء سافرين لسياسة بريطانيا[٣] . لذلك فان السلطان لن يعلن الحرب على فرنسا. هذا بالإضافة إلى تحمس " تاليران " للحملة، لإبعاد الجنرال " بونابرت " عن فرنسا، فكان يهيء له، أسباب الابتعاد عن البلاد[٤] .

---

(١) اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ٧٣.

(٢) إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج١، ص ١٩٢-١٩٣ ؛ اميل خوري- السياسة، ج١، ص ٨٢-٨٣.

(٣) اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ٨٤-٨٥.

(٤) إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ٣٠ ؛
Watson, Bonaparte's Expedition, P.E F.Q.S, P. 18.

استطاع " تاليران " التغلب على خصومه، وكثر مؤيدوه بين اعضاء حكومة الادارة، فقررت هذه أن تترك له، ولـ " بونابرت " معاً، امر تنظيم الحملة، سياسياً وعسكرياً، فتولى الأول الناحية السياسية منها، وترك الشؤون العسكرية للثاني[١].

بدأ " تاليران " يجري اتصالاته مع الباب العالي، ويؤكد له صداقة فرنسا للدولة العثمانية. فكتب إلى " روفن Roffen " القائم باعمال السفارة الفرنسية في استانبول، يأمره بأن يخبر السلطان سليم الثالث، بأن فرنسا مستعدة لوضع اسطولها تحت تصرفه، اذا كانت له رغبة في استعادة شبه جزيرة القرم، من روسيا[٢]. ولكن الحكومة العثمانية، بقيت متخوفة من نوايا الفرنسيين، ولكن ازدواجية " تاليران "، والسياسة الفرنسية، استطاعت اقناع السفير العثماني في باريس، أن الحملة التي تستعد القوات الفرنسية، لشنها موجهة ضد بريطانيا، لاحتلال بعض الجزر اليونانية، وقطع طرق المواصلات على بريطانيا، في المتوسط. وتمكن " تاليران " بواسطة المال، من استمالة ترجمان السفير العثماني، " كودريكا Codrica " الذي كان يقوم بدور الوسيط، بين علي أفندي (سفير الدولة العثمانية في باريس)، وبين الخارجية الفرنسية، لمعرفته باللغة الفرنسية. فكان هذا الترجمان، يقدم لسفيره المعلومات المغلوطة، التي كانت تمليها عليه، اوساط الخارجية الفرنسية[٣].

وإن دل هذا على شيء، فإنه يدل على أخطاء العمل الدبلوماسي، وعيوبه، عندما يكون السفير جاهلاً، بلغة البلاد التي يعمل فيها، فيترك شؤون التفاوض لآخرين، يتحدثون باسم دولته.

---

[١] اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ٨٥.

[٢] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٩٣ ؛ اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ٨٥ .

[٣] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ٣١.

ب - أهداف الحملة

تم تجميع الحملة الفرنسية، في مرفأ طولون، في النصف الأول من شهر أيار، سنة ١٧٩٨. وفي الثامن عشر من الشهر نفسه، انطلقت الحملة متوجهة إلى مصر، حيث وصلت إلى السواحل المصرية، في ٢٩- حزيران- ١٧٩٨، فألقت مراسيها أمام الاسكندرية. وفي شهر تموز، استطاع الفرنسيون أن يهزموا المماليك في مصر، في معركة الأهرام، التي وقعت في قرية (أمبابة) في ٢١- تموز- من السنة نفسها، ففر إبراهيم بك واتباعه إلى غزة، ومنها إلى عكا، أما مراد بك، فقد فر إلى الصعيد[١].

رغم الجهود التي بذلتها السياسية الفرنسية، في اقناع السلطان، أن الحملة الفرنسية، الموجهة إلى الشرق، ليست إلا للقضاء على المماليك في مصر، ولمحاربة بريطانيا، إلا انها فشلت في النهاية. وظهرت الدبلوماسية البريطانية، متفوقة بإقناعها للسلطان، بإعلان الحرب على فرنسا، وقد تم هذا في ٢-أيلول-١٧٩٨، فقطع السلطان العثماني، العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا، واعتقل " روفن "، وحجز أموال السفارة الفرنسية وممتلكاتها إلى أن تعود مصر إلى السلطان، وينسحب الفرنسيون منها، فأصدر الباب العالي بيانا في ٩-أيلول، كإعلان للحرب على فرنسا[٢].

أصدرت الدولة العثمانية أمرا، إلى سائر ولاة بلاد الشام، ومنهم الجزار، بمحاربة الفرنسيين، وطردهم من مصر، وأرسل السلطان للجزار سبعمائة (٧٠٠) جندي[٣]. إلا أن الجزار، كان أحذر من أن يسير إلى مصر، متخذا خطة الهجوم، فأرسل قوة إلى العريش، وأخذ يستعد ويزيد من تحصينات عكا، ويعد ما يلزم من معدات الحرب. ووجه الرسائل إلى الأمراء، والشيوخ، يدعوهم فيها إلى التضامن لمحاربة الفرنسيين. كما منع المراكب القادمة من الوصول إلى شواطنه[٤].

قام الباب العالي، بتوزيع المنشورات على الضباط الفرنسيين، يقلل بها من عزيمتهم على الثبات في مصر، فقام " بونابرت " بالمقابل، بتوجيه كتاب إلى السلطان، يذكره فيه بالأعمال، التي قام بها لمصلحة الأتراك، كتخليص الأسرى المسلمين، الذين كانوا في مالطا، وتسفيره لقافلة

---

[١] الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ١٦ ؛ اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ٩٤ ؛
Holt. Egypt. P. P. 155-156

[٢] إسماعيل- الصراع (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ١٩٦-٢٠٠ ؛ اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ١٠٩.

[٣] نوفل- كشف اللثام، ص ٢٢٤.

[٤] سجل محكمة نابلس- رقم ٦ ، ص ٣٤٧ ؛ سجل محكمة القدس- رقم ٢٨٠، ص ٢٢ ؛
الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٩٠-١٩١؛ الترك- حملة بونابرت، ص ١١٧ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٨٤.

الحج، وإبقائه للعلم العثماني، يخفق بجانب العلم الفرنسي، فوق المآذن المصرية، وانه لا يضمر له إلا الخير[١].

كما حاول أن يوضح له، أن الهدف من احتلاله لمصر، هو رفع شرائع الدين، وإبقاء السكة (النقود)، والخطبة في المساجد، باسم السلطان[٢]. ووجه " بونابرت " خطاباً آخراً إلى الجزار، نذكر منه : " لست أريد محاربتك، اذ لم تكن عدوي ... فإذا أمضيت في حمايتك، لإبراهيم بك، على حدود مصر، فإني اتجه إلى عكا "[٣]. لكن الجزار لم يعبأ بالرد، فأردف " بونابرت " رسالة أخرى يقول فيها : " انني لم آت إلى مصر محارباً المسلمين، بل جئت لمحاربة المماليك، وأعتقد أنني عملت لصالحك، لأنهم كانوا اعداءك ... وقد بعث اليك بهذا الخطاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على ميولي، في أن اكون معك، على صفاء وسلام ... وأؤكد أنه لا يوجد للمسلمين، أخلص صداقة من الفرنسيين "[٤].

يبدو أن ما ورد في رسالة " بونابرت "، لم يقنع الجزار، بل زاد غيظه، فقام بطرد رسول " بونابرت "، واحتجز التاجرين الذين رافقاه[٥].

كان اتصال " بونابرت " بالجزار مبنياً على علمه بأنه قد شرع في الاستعداد، للغارة على مصر، بناءاً على التعليمات، التي وردت إليه من الأستانة، فحاول أن يستميله إلى صفه، لكن الجزار، الذي اكتسب، فيما يقارب الستين عاما، حساً سياسياً مرهفاً أنبأه بأن " بونابرت " لا يمكن الوثوق به كحليف، وانه أرسل أحد ضباطه لا للمفاوضة كما ادعى، بل ليتجسس حصون عكا، وتحصيناتها[٦].

أرسل الجزار بدوره منشوراً إلى القاهرة، يعمل على الطعن بالفرنسيين، فيسفه احلامهم، ويستهزء بمعتقداتهم، ويحث الأمة الإسلامية على الجهاد، والوقوف صفاً واحداً في وجه الكفار الفرنسيين[٧].

---

[١] لوكروى- الجزار، ص ١٨٥.

[٢] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٢٣٩.

[٣] هيرولد- بونابرت، ص ٣٠٢ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٢٢٩.

[٤] عوض- فتح مصر، ص ٢٢٦-٢٢٧.

[٥] الجبرتي- عجائب، ج٣، ص ٢٢ ؛ الترك- حملة بونابرت، ص ١١٨.

[٦] هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٦.

[٧] عوض- فتح مصر، ص ٢٦٩.

بدأ " بونابرت " يستعد لمهاجمة سوريا، ولا شك في انه كان قد فكر جدياً، في الميل بحملته باتجاه الهند، بعد أن يسيطر على سوريا، فقد زار أحد موانيء البحر الاحمر، وكتب منه رسالة إلى سلطان الهند " تيبو صاحب "، حليف الفرنسيين، وذلك في ٢٥-كانون الثاني-١٧٩٩، يسأله أن يرسل إليه احد اتباعه المخلصين، ويزوده بالمعلومات الصحيحة، عن الحالة السياسية في الهند، والقوى البريطانية المرابطة فيها، لأنه عازم على أن ينحرف إلى الهند، ليحررها من النير الحديدي، الذي وضعه البريطانيون على عنقها[١].

ج - إنطلاق الجيش الفرنسي نحو فلسطين.

لا شك أن " بونابرت "، قد تصرف على نحو أكثر يقظة من العثمانيين، الذين كانوا يستعدون لإرسال جيش عثماني، مدعوم بقوة بحرية. كان هدف " بونابرت " الأول، هو الزحف إلى عكا واحتلالها، حتى لا يمكّن العثمانيين من الاستفادة منها، في عملياتهم ضد مصر، وقد علل سبب حملته على سوريا، خاصة عكا، بأنه ينوي معاقبة الجزار، الذي يأوي المماليك فيها، والذين يقومون بشن حملات، ضد الجيش الفرنسي في مصر[٢]. ويشير " طيباوي " إلى هذا بالقول : " ادعى بونابرت أنه قد أثير من الجزار، الذي أرسل كتائبه إلى العريش، في المنطقة المصرية ... ووعد بونابرت بالسلام، وبحماية حياة وملكية جميع السكان "[٣]. لكن في الرسالة الموجة للادارة الفرنسية من " بونابرت " في أواخر كانون الثاني سنة ١٧٩٩، اخبر فيها عن اهداف حملته على سوريا وهي : دعم فتحه لمصر بهزيمة قوات الجزار، وباشوات الشام. وبذلك يحول دون نزول جيش، إنجليزي تركي، في بلاد الشام، لاستئناف العمليات العسكرية، ضد الفرنسيين في مصر. وارغام الباب العالي، على الرضوخ للأمر الواقع. والتفاوض مع الفرنسيين إضافة إلى حرمان الاسطول الانجليزي في عرض المتوسط، من قواعد تموينه في الساحل السوري[٤]. وقد قال " بونابرت " في هذه المناسبة : " علينا أن نهزم أعداء كثيرين : الصحراء والأهالي، والأعراب، والمماليك، والروس، والترك، والإنجليز "[٥].

---

[١] اميل خوري- السياسة، ج ١، ص ١٢٠-١٢١.

[٢] عوض- فتح مصر، ص ٢٩٤. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 20.

[٣] Tibawi, AModern History, P. 36.

[٤] هيرولد- بونابرت، ص ٣٦٢-٣٦٣.

[٥] المصدر نفسه، ص ٣٦٣.

كان " بونابرت " يأمل أن ينضم إلى جيشه، مسيحيو سوريا، ودروز جبل لبنان، لما يقاسيه أولئك من ضيق. وكان من جهة أخرى يصور لنفسه، إمكانية تأليف جيش كبير من اهالي سوريا، ليسير بهم، إما شمالا إلى الاستانة، وإما جنوبا إلى بلاد فارس، والأقطار الهندية[١].

بدأ " بونابرت " بتسيير الحملة على الشام، في شباط-١٧٩٩، فأعلن للمصريين، عزمه على غزو الشام، والقى على مشايخ الديوان، الذي أنشأه في مصر، كلاماً ثقيلاً، وهددهم بأنه اذا حدث في البلاد، اثناء غيبته، شغب أو فتنة، فانه سيفنيهم[٢].

د - علاقة الجزار بالفرنسيين.

قبل الخوض في حملة " بونابرت " على الشام وخاصة على عكا، لابد من تناول علاقات الجزار الفعلية بالفرنسيين طوال فترة حكمه، قبل مجيءالجيش الفرنسي إلى المنطقة.

فقد بدأت العلاقة جيدة بين الجزار والفرنسيين وخاصة التجار منهم. ففي بداية حكمه، وثّق علاقته بهم، فاقترض منهم مبلغ خمسة عشر ألف (١٥,٠٠٠) قرش، واستخدم هذا المبلغ، في بناء خان العمدان سنة ١٧٨٥[٣].

وجد الجزار أن تجارة الفرنسيين كبيرة، ولا يمكن أن تبقى معفاة من الرسوم الضريبية، ففرض على تجارتهم الضرائب، وذلك في أواسط ثمانينات القرن الثامن عشر. وقام باحتكار بعض المنتوجات، التي تهم الفرنسيين، مما أوجد الصعوبات في وجه الفرنسيين، وجبى منهم مائتين وعشرة الاف (٢١٠,٠٠٠) ليرة فرنسية. وعندما واجه الفرنسيون الجزار، بالإمتيازات التي منحها السلطان لهم، في أواسط القرن السادس عشر، اجابهم بأنه هو السلطان في مقاطعاته[٤].

بالرغم مما سبق فان العلاقات بين الجزار والفرنسيين، قد حافظت على استقرارها النسبي حتى عام ١٧٨٩، عندما أعلن المماليك ثورتهم على الجزار.

---

[١] عوض- فتح مصر، ص ٢٩٣.

[٢] المصدر نفسه، ص ٢٩٤.

[٣] Cohen, Palestine, P. 136.

[٤] نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٦.
Masson, Histoire, P. P. 293-294.

اكتشف الجزار، أن ثمة دورا للفرنسيين في هذه الثورة، فقد وقعت بيده وثيقة أرسلها سليم باشا، قائد الثورة إلى القنصل الفرنسي " بوسيه Beaussier "، سنة ١٧٨٩، يطلب منه مساعدته بالأموال اللازمة، للثورة على الجزار، وخلعة عن حكم ولاية صيدا[١].

بعد أن اكتشف الجزار، تآمر الفرنسيين ضده، قرر الانتقام منهم، وذلك بجمع المديونين للتجار الفرنسيين، واتهمهم بالإشتراك في الثورة، وأمر بمصادرة ممتلكاتهم. فأيقن الفرنسيون، بأنهم لايستطيعون استعادة أموالهم من المصادرين[٢]. ولم يكتف الجزار بهذا الاجراء، بل أرسل أحد كتبته، في ٢٥- أيلول- ١٧٩٠، إلى القنصل الفرنسي " رينودوت Renaudot "، يأمره بمغادرة ولاية صيدا، ومركزها عكا، هو وجميع الرعايا الفرنسيين، وحدد له يوم ٦- تشرين الأول- ١٧٩٠، ليكون آخر أيام وجوده فيهما. وإن لم يفعل، فإنه سيقتله. فأذعن الفرنسيون لقرار الجزار، وتوجه فرنسيو عكا إلى يافا، وفرنسيو صيدا إلى طرابلس[٣].

سبب طرد الفرنسيين من قبل الجزار، صدمة للدوائر الفرنسية، فأرسل السفير الفرنسي " شوازيل Choiseul "، رسالة شخصية إلى الجزار، وأرسل أخرى إلى الباب العالى، يشكو إليه الجزار، فطلب الباب العالي، بدوره، من الجزار، أي يعيد الفرنسيين إلى أماكنهم فوافق الجزار، شريطة أن يحضر غيرهم عوضا عنهم، ولم يعد أحد ممن طردهم[٤].

بعد خروج الفرنسيين من المناطق المعنية، قام الجزار في ١٢- شباط، بمصادرة أملاكهم المتبقية، في موانيء صيدا وعكا، وأسكن جزءا من عسكره، في الخان الفرنسي، مما أثار سخط الفرنسيين على الجزار مرة أخرى، فأرسلوا الشكاوى إلى الباب العالي، لكن دون جدوى[٥].

كان اشتراك الفرنسيين في الثورة ضد الجزار، من الأسباب التي أدت إلى طردهم، إلا أنه لا يشكل سببا رئيسا في ذلك. فالجزار كان يسعى، للحد من هيمنة التجار الفرنسيين في المنطقة. ويعلق كل من " مانتران Mantran " و " براون Browne " على هذا الحدث بالقول : " إن نمو الاحتكارات الذي أوجده الجزار، حمله عداوة تجاه الفرنسيين، لأنهم كانوا

---

(١) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٦.
Masson, Histoire, P. P. 294.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ١٦٥-١٦٦؛
نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٦-٦٧.

(٣) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٧-٦٨.
Macalister, Brownes Travels, P.E.F.Q.S, P. 138. Masson, Histoire, P. 295.

(٤) Masson, Histoire, P.295. Macalister, Brownes Travels, P.E.F.Q.S, P. 138.

(٥) Masson, Histoire, P. 296. Tibawi, A Modern History, P. 35.

ينافسونه في التجارة، لذلك أقدم على طردهم "(١). ومن هذا المنطلق، يمكن لنا معرفة السبب، في طلب " تاليران " من الحكومة العثمانية، عزل الجزار عن ولاية صيدا، وإعادة التجار الفرنسيين اليها، وإلى عكا، ودفع التعويضات لهم، وكان ذلك في آب- ١٧٩٨، كأحد أسس مفاوضات الصلح، بين الفرنسيين والعثمانيين(٢).

ثانياً : تنظيم الحملة الفرنسية.

أ - عدة الحملة وعتادها.

اختار " بونابرت " جماعة من العلماء، لمرافقته إلى بلاد الشام، ليوهم العالم الاسلامي، بأن رجال الدين يسيرون في ركابه، ومنهم " أمير الحج والقاضي ". كما رافقه الكثير من العلماء الفرنسيين، منهم المتخصص في علم التاريخ، والرياضيات، والترجمة(٣).

كانت القوة الفرنسية التي وجدت في مصر بعد احتلالها، تقدر بتسعة وعشرين ألف (٢٩,٠٠٠) رجل. وقد ترك منها حاميات في القاهرة والاسكندرية، ورشيد، ودمياط والسويس، وأماكن أخرى داخل مصر، والجزء المتبقي كان يعد للتوجه إلى عكا(٤). أما بالنسبة لعدد أفراد الحملة التي توجهت إلى عكا، فقد أجمع أكثر المؤرخين الذين عنوا بهذا الشأن، بأنها بلغت ثلاثة عشر ألف (١٣,٠٠٠) رجل، أو ما يقارب هذا العدد(٥). ويقول "بيرتييه Berthier" رئيس أركان الجيش الفرنسي في الحملة ما يلي : " كانت القوة مؤلفة كالتالي، فرقة " كليبر Kleber " ألفان وثلاثمائة وتسعة وأربعون (٢٣٤٩) رجلاً. وفرقة " رينيه Rignier " ألفان ومائة وستون (٢١٦٠) رجلاً، وفرقة " بون Bon " ألفان وأربعمائة وتسعة وأربعون (٢٤٤٩) رجلاً، وفرقة " لان Lannes " ألفان وتسعمائة وأربعة وعشرون (٢٩٢٤) رجلاً، والخيالة تسعمائة (٩٠٠) رجل، ورجال المدفعية ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانون (١٣٨٥) رجلاً، والمهندسون ثلاثمائة وأربعون (٣٤٠) رجلاً "(٦). وهكذا يكون مجموع العدد، أثني عشر ألف، وخمسمائة وسبعة (١٢٥٠٧) رجال، وهذا العدد لا يشمل أشتات الموظفين

---

(١) مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٨٠. Macalister, Browns, Taravels; P.E.F.Q.S, P ١٣٩.

(٢) اميل خوري- السياسة الدولية، ج ١، ص ١٠٦.

(٣) هيرولد- بونابرت، ص ٣٠٢ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٣٠٠.

(٤) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. ٢١.

(٥) هيرولد- بونابرت، ص ٣٠٢ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٣٠٠ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.

(٦) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. ٢١.

المصريين، والعرب الملحقين بالجيش، كالخدم والمترجمين والعمال، ولا الموظفين الفرنسيين، والأطباء وموظفي المالية[1]. وما أنوي الاشارة إليه، هو أن هذا الجيش صغير، مقارنة بالعمل الذي سيقوم به.

أما بالنسبة لعتاد الحملة فقد تضمن ما يلي :- قطع خفيفة مرتبطة بالخيالة والمشاة، وأربعة (٤) مدافع من عيار ١٢ باوند، وخمسة عشر (١٥) مدفعا من عيار ٨ باوند، وأربعة (٤) مدافع من عيار ٤ باوند، وثمانية (٨) مدافع من عيار ٣ باوند، وخمسة عشر (١٥) من عيار ١٦ إنش " هاوزر Hawitzers " وثلاثة (٣) مدافع من عيار ١٥ إنش " مورتر Mortars " ولم يكن بالامكان جلب مدفعية ثقيلة عبر الصحراء، فقرر " بونابرت " إرسال مدفع من عيار ٢٤ باوند، عن طريق البحر، من الإسكندرية إلى حيفا.

أما واسطة النقل لهذه المعدات، فقد تشكلت من ألفي (٢٠٠٠) جمل، وثلاثة آلاف (٣٠٠٠) بغل وحمار، وقسمت الجمال إلى قسمين: ألف (١٠٠٠) تحمل الماء لإستخدام الكتائب أثناء عبور الصحراء، والألف الاخرى (١٠٠٠) تحمل المؤن لمدة خمسة عشر يوما، أما البغال والحمير، فقد وجدت لحمل البضائع[2].

قسمت فرق الحملة إلى الأقسام التالية:

- المشاة : وتقسم إلى أربعة اقسام : القسم الأول بقيادة " كليبر Kleber "، والقسم الثانى بقيادة " رينيه Rignier "، والقسم الثالث بقيادة " بون Bon "، والقسم الرابع بقيادة " لان Lannes ".
- الخيالة : وقد كانوا بقيادة الجنرال " مورا Murat "، بالإضافة إلى قوة أخرى مختلطة، تتألف من عدد من الافواج المختلفة.
- المدفعية : ويقودها " دومارتين Domarttin ".
- الفرقة الهندسية : ويقودها " كفاريللى Caffarelli " وكان " بيرتييه Berthier " رئيسا للاركان[3].

---

[1] هيرولد- بونابرت، ص ٣٠٢.

[2] Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P.21.

[3] المصدر نفسه، ص ٢١.

ب - سير الحملة.

انطلقت الحملة من جهات مختلفة في مصر، فجزء منها، انطلق من دمياط، وآخر من الصالحية وبلبيس، أما " بونابرت " فقد انطلق من القاهرة في ١٠- شباط- ١٧٩٩.

وصلت فرقة " رينيه " إلى العريش، في ٢٠-شباط، وتوجه " كليبر" الذي احضر فرقته في زوارق عبر المنزلة، ودمياط، وبعد ذلك وصلت جميع القوات إلى المنطقة نفسها[١].

اضطرت القوة التركية، المرابطة في العريش، إلى الإلتجاء خلف الأسوار، ولم يكن في الحامية من المدافع، غير ثلاث (٣) قطع، ونحو ستمائة (٦٠٠) فارس، من المماليك والعرب والترك، وما يقارب الألف ومائتين (١٢٠٠) من المشاة الالبانيين، الذين أرسلهم الجزار[٢].

كانت هناك قوة عثمانية، قادمة من غزة، وبجوزتها إمدادات للحامية، من رجال وسلاح، لكن الفرنسيين أجبروها على التوقف، وسيطروا على الكثير من معداتها، وبعد ذلك، قاموا بمهاجمة الحامية واستطاعوا السيطرة على الموقف. ويذكر هيرولد هذه الحادثة بقوله : " باغت الفرنسيون الحصن في منتصف الليل، وقتلوا أربعمائة إلى خمسمائة أمير من المماليك، وأسروا ستمائة رجل "[٣]. التجأ عدد من رجال الحامية إلى داخل القلعة، ورفضوا التسليم، إلا اذا سمح لهم بالخروج بكامل سلاحهم. فرفض " بونابرت " في البداية هذا الطلب، لكنه بعد أن فكر في الأمر، وجد أن من مصلحته الموافقة، حتى يتجنب أي اشتباك قد يفقده عددا من جنوده. وأرفق موافقته بشرط، أن تسير الحامية في الصحراء إلى بغداد بدون الخيل، وتقسم اليمين، أن لا تحارب في جيش الجزار، مدة عام. حيث تضمنت الحامية ما يقارب ثمانمائة إلى تسعمائة (٨٠٠ - ٩٠٠) رجل، مازالوا أحياء، فتم الإتفاق على ذلك، واخلي سبيلهم[٤].

عندما استولى الفرنسيون على العريش، أصدر " بونابرت " اوامره إلى القاهرة، ليتم الإحتفال بهذا النصر، وأصدر منشورا لاهالي سوريا، ومضمونه : أنه لم يأت لمحاربة الدولة، انما لمحاربة المماليك، والقضاء على الجزار. وأثناء هذه السعادة بالاحتلال، تمكن الشيخان (أمير الحج والقاضي) من الهرب من الحملة[٥].

---

[١] هيرولد- بونابرت، ص ٣٦٧ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٣٠١.

[٢] هيرولد- بونابرت، ص ٣٦٨.

[٣] المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

[٤] الترك- حملة بونابرت، ص ١٤٠ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٣٠٢.

[٥] الترك- حملة بونابرت، ص ١٤٥ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٨٩.

ج - الزحف نحو يافا واحتلالها.

بعد السيطرة على العريش، ترك الفرنسيون فيها حامية صغيرة، وتوجهوا من طرق مختلفة، زاحفين نحو عكا. ومن الجدير بالذكر، أن الادلاء العرب، الذين كانوا يرافقون بعض الفرق الفرنسية، قد أضاعوها في الطريق، ومنها فرقة " كليبر" وفرقة " بون "، فعندما وصل " بونابرت " إلى خان يونس، لم يكن برفقته سوى هيئة أركان الجيش، ولكن الحامية الموجودة في هذه القرية، انسحبت تجاه غزة، وارتد الفرنسيون في الاتجاه المعاكس[1].

ويمكن لنا أن نطرح سؤالا حول ما حدث، فلو فرضنا جدلا، أن القوى الحامية لخان يونس، المرسلة من قبل الجزار، لم ترتد عن موقعها، بل واجهت " بونابرت " بالأقلية التي ترافقه، واستطاعت أسره بمن معه، وإرساله إلى الجزار، فهل ستكون هذه الحادثة هي نهاية الحملة.

إجتمعت القوات الفرنسية في خان يونس، في ٢٦- شباط- ١٧٩٩، وبعد استراحة قصيرة، انطلقت نحو غزة، واثناء سيرها، التقت في طريقها حامية عثمانية أخرى، فجرت بينهما معركة سريعة، كان النصر فيها حليف الفرنسيين، وفر من نجا من قوات الجزار إلى يافا، واستولى الفرنسيون على غزة، في ٢٤- شباط- ١٧٩٩ دون مقاومة[2].

بعد أن استولى الفرنسيون على غزة، وتزود الجيش بالأغذية والذخيرة، من المخازن التي غنموها في غزة، غادرها بعد أربعة (٤) أيام، ونظرا لتقلبات الجو في هذا الشهر، فقد تعرض الفرنسيون لأمراض كثيرة، ففتك البرد القارس، حتى بالجمال، على صلابة عودها، وذلك في الطريق من غزة إلى الرملة. وعندما وصل الفرنسيون إلى الرملة، وجدوها خالية من السكان، إلا من النصارى، الذين بقوا ليرحبوا بالفرنسيين[3].

توجه الفرنسيون بعد ذلك إلى يافا، حيث كانت محصنة تحصينا جيدا، وفيها قوة كبيرة من عساكر الجزار، والمماليك، ووصل اليها الفرنسيون، في ٨- آذار- ١٧٩٩. وكانت هذه المدينة معدة، لمقاومة جدية للتقدم الفرنسي، فأراد الفرنسيون السيطرة عليها ليتصلوا بالبحر، مع الاسكندرية ودمياط، ومنها يتوجهون إلى عكا[4].

---

(١) عوض- فتح مصر، ص ٣٠٧. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 24.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ١٩٠ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٣) هيرولد- بونابرت، ص ٣٧١.

(٤) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 25.

حاول " بونابرت " أن يؤثر على تلك القوة، ويحملها على التسليم، فبعث بضابط، ودليل من عنده، يحمل راية السلام، بقصد المفاوضة، إلا أن قادة الحامية، رفضوا التسليم، فاغتاظ " بونابرت " لهذا الرد، وأمر بتسليط المدافع الكبيرة باتجاه الاسوار، واستمرت المدافع تقصف بالاسوار، حتى أسقطتها، فدخل الفرنسيون المدينة، واستباح الجند الفرنسي حماها، يقتل وينهب ويسلب الاعراض، ويفعل ما يشاء. ويصف " مالو Malo "، وهو شاهد عيان لهذه الحادثة، الموقف بقوله : " كنت تسمع في كل مكان صراخ ابنة تغتصب، وتستغيث عبثا بأمها، او والدها الذي يذبح "[١].

لم يفرق الفرنسيون بين رجل وامرأة، ولا بين مسلم ومسيحي، فقتلوا الفي (٢٠٠٠) جندي، من الحامية، كانوا يحاولون التسليم. ومضوا في هذا، أربعا وعشرين ساعة[٢] .

لقد كان الكثير من جند الجزار، يفرون إلى البيوت، ليدافعوا عن أنفسهم، بعد أن دخل الفرنسيون إلى المدينة. وبعد ذلك، توجهوا إلى القلعة، واحتموا فيها، فأرسل " بونابرت " رجلين من قبله، إلى جند الجزار، المتواجدين في القلعة، ليسلموا للفرنسيين مقابل أن يؤمنوهم على حياتهم. فوافق قادة الحامية، فسقطوا أسرى في يد الفرنسيين، ثم سيقوا إلى ساحة المدينة، فأمر " بونابرت " بإعدامهم رميا بالرصاص، إلا ثلاثة مائة (٣٠٠) منهم، كانوا من المصريين، وقد بلغ عدد القتلى أربعة آلاف (٤٠٠٠) رجل[٣]. ويقول الشهابي : " إن الدم جرى في شوارع يافا كالماء "[٤]. وهنا لابد من وقفة للبحث في هذه المذبحة البشعة.

يذكر كثير من المؤرخين، أسباب قتل هؤلاء الاسرى، مبررين ذلك بأسباب عدة، وهو أن إرسالهم إلى مصر، يحتاج إلى حراسة كثيرة، لا قبل لـ " بونابرت " بأن يقتطعها من جيشه، وأما إبقاؤهم معه كأسرى حرب، أو جنودا إحتياطيين، فهذا أمر خطر وثقيل، فقد زعم أنه لم يكن لديه من الطعام مايكفيهم، دون إضرار بالغ بجيشه، وأما نزع سلاحهم، وإطلاقهم، فلا تكون نتيجة، إلا إنضمامهم إلى الجزار، لتعزيز قواته في عكا، ومن ثم لم يكن هناك مناص من قتلهم[٥].

---

(١) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٢٥٧-٢٥٨ ؛ لوكروى- الجزار، ص ١٩٠.

(٢) هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٢- ٣٧٣ ؛ عوض- فتح مصر، ص ٣١٠-٣١١.

(٣) اميل خوري- السياسة، ج ٢، ص ١٢٣ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٣.
Watson, Bonaparte's Expedition, P. E. F. Q. S, P. 25.

(٤) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٢.

(٥) هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٤-٣٧٥.

لا يمكن التسليم بهذه الحجج، ولو سلمنا بأن هذا العدد، يحتاج إلى حراسة كبيرة، ومجهود لإيصاله إلى مصر. إضافة إلى أن الطعام الوحيد الذي كان الفرنسيون يملكونه، هو ما استولوا عليه من أسراهم، ولعلهم كانوا يستطيعون توفير ما يكفي منهم لسد رمق هؤلاء الاسرى، الذين يأكلون طعامهم،ولم يكتف " بونابرت " بتجريدهم من السلاح وتسريحهم، حيث أنهم إذا ذهبوا إلى حامية عكا، فسيكونون عبئا على الجزار، لا عونا له، لأنه سيضطر إلى إطعامهم، وتسليحهم، وهو في غير حاجة ماسة لهم، ومن حجج " بونابرت " لقتل هؤلاء الأسرى، أنه وجد نحو تسعمائة (٩٠٠) رجل من حامية العريش، الذين اقسموا بالايمان العريضة، بأن لاينضموا إلى جيش الجزار، في الحرب ضده[١]. لكن هذه الحجة واهية، حيث أن بونابرت نفسه أدخل عددا لا بأس به في جيشه، من حامية العريش، وأرسل آخرين إلى مصر، وإضافة إلى ذلك، ما هو الجهد الذي بذل للتعرف عليهم، أيا كان عددهم، والجواب أن هذا صعب جدا، وحتى لو صح أن ثلث الأسرى من حامية العريش، فلماذا يعاقب الثلثين الأخرين. وقد استثنى من هذه المذبحة، عددا من الأسرى، لا سيما الجنود المصريين، الذين ردهم إلى مصر، وثلاثمائة (٣٠٠) مدفعي تركي، دربهم الضباط الفرنسيون، كان يرجو الفائدة منهم، ولكن من المرجح أن يكون السبب الرئيس لهذه المذبحة، هو الترهيب، للتأثير على الجزار وجنده، أي إذا وجد " بونابرت " مقاومة من حامية عكا، فسيحل بها ما حل بحامية يافا. ويشير التميمي إلى هذه الحادثة بقوله : " أن التسمية التي إشتهر بها الجزار، والتي ظلت لاصقة به، على مدى تاريخه السياسي، كان الأولى أن يوصف بها بونابرت الذي قتل أربعة ألآف (٤٠٠٠) مقاتل عثماني، استسلموا له، وفقا لعرف الحرب، فذبحهم دون سبب يؤكده التاريخ، حتى الآن"[٢].

بعد الدمار الذي احدثه الجيش الفرنسي في يافا، استولى هذا الجيش، على كل المؤن الموجودة في القلعة والمدينة، وهجموا على السفن الراسية، ونهبوها[٣].

أصدر " بونابرت " مرسوما في ٩- آذار-١٧٩٩، إلى أهالي فلسطين جاء فيه : " إلزموا الهدوء في بيوتكم، وأنا أضمن سلامة الجميع، وحمايتهم، وسيكون الدين على الأخص، موضع الحماية والإحترام، وإن جميع الطيبات من عند الله، والنصر من عند الله "[٤]

[١] هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٥.

[٢] التميمي- الولايات العربية، ص ٦٥.

[٣] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٢٥٨.

[٤] هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٨.

أرسل " بونابرت " في اليوم نفسه، رسالة إلى الجزار، جاء فيها : " مادام الله يهبني النصر، فإني أحب أن أحذو حذوه تعالى، فلا أكون شفيقا رحيما بالشعب فحسب، بل بحكامه أيضا "[١].

د - تفشي الطاعون بالفرنسيين.

تفشى مرض الطاعون في الجيش الفرنسي، وأدخل المرضى إلى المستشفى، الذي أنشأه الفرنسيون، في دير الروم الارثوذكس في الرملة، وأصدر " بونابرت " أمرا بتجنيد المسيحيين، أتباع الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، إجباريا لخدمة المرضى في المستشفى[٢].

بلغ عدد المصابين بالطاعون في يافا، في ٩- آذار- ١٧٩٩، حسب إحصائية " ديجنيست Desgenettes " رئيس الأطباء الفرنسيين، إحدى وثلاثين (٣١) إصابة، في المستشفى المذكور، توفي منهم أربعة عشر (١٤) مريضا[٣].

بذل الأطباء قصارى جهدهم، لمنع إنتشار المرض، وذلك بتغيير مواقع المعسكرات، أو بعزل جميع المرضى، أو بفصل ضحايا الطاعون منذ البداية، عن غيرهم من المرضى، ومع ذلك فلم تحد هذه المحاولة، من إنتشار المرض[٤].

حاول " بونابرت " تهدئة الجيش، الذي أصيب بالفزع، عندما علم أن المرض الذي يصيب أفراده، هو الطاعون. فكان يتفقد المرضى، ويتجول بينهم، ليدب بهم روح الحماسة والتصميم. وأنشأ ديوانا محليا، يشترك في عضويته، كل من المسلمين والمسيحيين، وعهد بإدارة إقليمي يافا والرملة، إلى فرنسي[٥].

---

(١) هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٨.

(٢) الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٣.

(٣) هيرولد- بونابرت، ص ٣٧٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٩.

(٥) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 24.

هـ - إحتلال حيفا.

عندما إستولى الفرنسيون على يافا، توجهوا إلى عكا عن طريق الجبال، وعندما وصلوا إلى منطقة (قاقون)*، كانت عساكر الجزار تقيم لهم الكمائن في المنطقة المجاورة، مصحوبين بقوة من أهالي نابلس، فهاجموا فرقة الجنرال " لان" لكنهم هزموا، بعد أن جرى قتال عنيف بين الطرفين، وهذا في ١٦- آذار- ١٧٩٩[١].

تقدمت فرقة الجنرال " كليبر " في اليوم نفسه، نحو حيفا، ودخلتها دون قتال، كما احتجز الفرنسيون قاربا انجليزيا، وأسروا طاقمه، وقام " كليبر " بإنشاء حامية في الحصن، حيث كانت حيفا تشكل نقطة حربية مهمة، وكان ميناءها هو الميناء الوحيد الآمن، للسفن القادمة من عكا[٢].

كان أحد أغراض " بونابرت " في حملته على الشام، كما ذكر هو : " منع تموين الإسطول الانجليزي، من الموانيء السورية ". فكان أن اقتضى ذلك أن تبذل انجلترا، غاية جهدها، في وقف تيار التقدم الفرنسي في سوريا، وكان ذلك من دواعي إتحادها مع الدولة العثمانية، لذلك أرسلت للاميرال " سدني سميث " قائد الاسطول الانجليزي في الشرق ليذهب إلى عكا، ليساعد في الدفاع عنها، ويبذل كل الوسائل، للقضاء على " بونابرت " وحملته[٣]. وهذا بدوره ارسل سفينة بقيادة " فليبو Philippeaux "* إلى عكا، ليعزز بخبرته دفاع الجزار عن عكا، من الجهة البرية لها.

بعد أن وصل معظم الجيش الفرنسي إلى حيفا، لم يمكث فيها كثيرا، فتوجه مباشرة إلى عكا، وضرب عليها الحصار في ١٩- آذار- ١٧٩٩.

---

* هي حصن بفلسطين قرب الرملة، من أعمال قيساريه من ساحل الشام.
(انظر الحموي- معجم البلدان،ج٤،ص ٢٩٩).

[١] الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٣.

[٢] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٦١ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٣٠ ؛ الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٤.

[٣] عوض- فتح مصر، ص ٣١٥.

* هو جندي فرنسي الأصل، كان صديقا لـ " بونابرت " لكنهما إفترقا عندما اندلعت الثورة الفرنسية، حارب ضد الجمهوريين، قبض عليه سنة ١٧٩٥ بسبب اثارته تمرد ملكي ضد الجمهوريين، لكنه تمكن من الهرب، واستطاع أن يساعد " سميث " في الهرب من سجن (التمبل) في فرنسا، وبدأت بعد ذلك الصداقة بين الاثنين، ورافقه إلى الشرق، (أنظر هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٢-٣٨٣)

ثالثا : الزحف إلى عكا.

أ - سياسة بونابرت تجاه الاهالي في فلسطين.

عندما حاصر " بونابرت " عكا، كان أمراء جبل لبنان المسيحيين، يظهرون الميل للفرنسيين، على أساس أنهم مسيحيون مثلهم، وأنهم سيخلصونهم من مظالم الجزار، وولاة الدولة العثمانية. وكان " بونابرت " في سوريا، يظهر أمام المسيحيين، كما تظاهر أمام المسلمين في مصر[١]. كما اتخذ خطوات سياسية، لكسب عدد ممكن من الاحلاف السياسية ضد الجزار، فدعا إليه الأمراء والشيوخ من الناصرة، ويافا، وغيرها من القوى، ليوضح لهم أنه لم يأت لمحاربتهم، بل لإنقاذهم من مظالم الجزار، فحضر بعضهم إليه، لخوفهم منه، ولكرههم لحكم الجزار[٢].

كان من بين الذين قدموا إلى " بونابرت " أثناء حصاره لعكا، بعض الأمراء المسيحيين، والدروز، والشيعة. كما قابله الشيخ عباس بن ظاهر العمر، فرحب به، وأمده بالمال، والسلاح، والملابس، وعشرة أكياس من الذهب، وعينه واليا على البلاد، التي كان ظاهر العمر يحكمها. كما حضر إليه شيوخ المتاولة، فأعطاهم حكم بلاد بشارة، وأخذوا منه الذخائر، وساروا إلى قلعة صور، التي كانت لآبائهم في السابق، وتسلموها، وأرسل " بونابرت " الرسائل إلى الأمير بشير الشهابي، لكن دون جدوى. مع أن الأهالي كانوا يقدمون الخمر والبضائع للفرنسيين، على أمل التحرر من حكم الجزار[٣].

إن السياسة التي اتبعها " بونابرت "، كانت تهدف إلى تقليل التوتر في المنطقة. فحاول بهذه الاجراءات، أن يقوم بكسب العدد الأكبر من الأهالي في صفه، وإن لم يكسبهم في الحضور اليه، فإنه كسبهم في غيابهم عن الجزار، ومثال ذلك، الأمير بشير الشهابي، الذي رفض الإنحياز إلى أي من الطرفين.

---

(١) عوض- فتح مصر، ص ٣١٧.

(٢) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٩٢ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١-٨٢.

(٣) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٢ ؛ الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٦-١٥٧ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٢٨ ؛ بازيلي- سوريا، ص ٧٨.

ب - ثبات الجزار في عكا.

تشير بعض المصادر، إلى أن الجزار فكر بالفرار، من مواجهة الجيش الفرنسي، إلا ان هذا القول مشكوك فيه، فقد عزم الجزار على مقاومة العدو، كما فعل سنة ١٧٨٩، عندما ثار مماليكه عليه. وقد نسبت هذه المصادر، شرف منعه من الهرب، إلى الأميرال " سميث " ويمكن القول غير ذلك، أي أن هذا القول كسابقه، فقد حصن الجزار مدينته، قبل وصول " سميث "، ولم يعتمد في استعداده لمقاومة الفرنسيين، إلا على حصانة أسوار عكا، فقد فكر مسبقا، بصد حملة " بونابرت ". وعندما أرسلت إليه الدولة، ليقوم بمهاجمة الفرنسيين في مصر، إمتنع عن ذلك، ومنع جنوده من الاشتراك في الحملة، إلا بجزء يسير ليكونوا عائقا في طريق " بونابرت " إلى عكا، و انهاكا للجيش الفرنسي، الذي تميز بالقدرة القتالية الفائقة، كما أن ثمة شيئا آخر، ينفي أن الجزار، كان ينوي الهرب من عكا، لولا وجود " سميث "، وهو أن الفرنسيين، حاصروا عكا قبل مجيء الاخير بيومين، حيث يقول " واتسون Watson " : " وصل " سميث " بعد أن بدأ الحصار "[١]. ولو صح أن الجزار أراد الهرب من وجه الفرنسيين، لفعل ذلك قبل وصول " سميث ".

أما سبب تحصن الجزار في عكا، وعدم خروجه إلى الفرنسيين لمواجهتهم، فيقول لوكروى : " إن تحصن الجزار في عكا، كان بسبب علمه، أن لا قبل لجيشه، بمواجهة الجيش الفرنسي، المدرب بشكل قوي "[٢].

ج - حصانة عكا.

بنيت عكا على شبه جزيرة، مما جعل ثلثيها بمواجهة البحر، اما نطاقها من جهة البر، فكان مؤلفا من سور صفيق، له جبهتان، تختلف أحدهما عن الاخرى، وفي الزاوية البارزة من الحائطين، كانت هاتان الجبهتان، محاطتين ببرج كبير، بناه أحمد بن طولون، في القرن الثالث الهجري. وكان يحيط بالنطاق، حفرة كبيرة، تركها الجزار يابسه، وبينها وبين السور فتحة عرضها مائة ذراع، أبقيت كحديقة أنشأها الجزار. وكان انحدار جدار الخندق الخارجي، قويا جدا. وهنالك برج ضخم، يحمي مدخل الميناء، يسمى (الذبان)، وكانت المدينة تحتوي على مائتين وخمسين مدفع كبير وصغير، حيث كان الجزار، قد عزز مدفعيته قبل فترة طويلة، بفضل المساعدة التي نالها، من قبل قنصل انجلترا في الاسكندرية " بلدوين Baldwin "، فقد

---

(١) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F Q.S, P. 26.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ٢٠٧.

ارسل إلى الجزار تباعاً ألفاً ومائتي (١،٢٠٠) قنبلة، وأربعة الاف (٤،٠٠٠) قذيفة مدفع، ومدافع جديدة. بالاضافة إلى حامية الجزار القوية، والمؤلفة من المغاربة، والارناؤوط، والقبسيس، والدالاتية، الذين طالما كانوا نواة جيش الجزار[١]. (راجع الفصل الرابع)

د – الوصول إلى عكا.

بوصول الجيش الفرنسي إلى عكا، أقام عليها الحصار، وأرسل " بونابرت " كلاً من الجنرال " كليبر "، والجنرال " مونو Menou "، إلى مدينة الناصرة، كما أرسل أوامره إلى قائد القوات الفرنسية في دمياط، بأن يتأخر في القدوم إلى المنطقة، أو أن يبقى في يافا، في حال خروجه من دمياط، وذلك لسوء الاحوال الجوية. إلا أن هذا القائد، وصل في اليوم الذي حرر فيه " بونابرت " إليه. ولما دار حول رأس الكرمل، والضباب يغطي المنطقة، لم يفطن لسفنه إلا بعد أن قبض عليها " سميث "، حيث استولى الانجليز على ست ناقلات، وفرت ثلاث منها[٢].

وفي الوقت نفسه، استطاع الفرنسيون بالحيلة، السيطرة على مراكب عثمانية، تحمل الاسلحة، بالإضافة إلى ستة وثلاثين ألف دينار، كانت مرسلة للجزار. فعندما أقبلت هذه المراكب على يافا، وشاهدها الفرنسيون، رفعوا لها البيرق العثماني، فظنوا أن يافا بيد الجزار، وما أن رست المراكب، حتى استولى عليها الفرنسيون[٣].

كان الجزار يقوم بإنشاء الجدران، بعضها بداخل بعضها الآخر، كما اقترح عليه " فليبو"، أن يكلف جنده ببناء المتاريس وراء هذه الجدران[٤]، حتى يزيد من فاعليتها وتكون من الخطوط المنيعة في وجه الفرنسيين، في حال سقوط الاسوار.

هـ – حصار عكا وشجاعة الجزار.

إتخذ الجيش الفرنسي موقعه، أمام عكا، في ١٩-آذار-١٧٩٩، وقد فُقدت مدفعية الحصار، كما ذكرت سابقاً، إلا أن الأمر كان سهلاً في عين " بونابرت "، فبدونها استطاع

---

[١] نوفل- كشف اللثام، ص ٢٣١ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٢٠٣-٢٠٤ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٨.

[٢] الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٦ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٧.

[٣] الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٦. Watson, Bonaparte's Expedition, P. E. F. Q. S, P. ٢٥.

[٤] الترك- حملة بونابرت، ص ١٦٣.

الاستيلاء على العريش، ويافا، كما أن مظهر عكا باسوارها القديمة، يدل على أنها أقل مناعة منهما.

وضعت صفوف المدافع الفرنسية بشكل منظم، أمام الحصن، وتعين على فرقة الجنرال " كليبر "، أن تستولي على كل المراكز التي تقع على يمين قناة الماء، ومن ضمنها المراكز الواقعة، تحت نار المدافع المعدة لفتح ثغرة في الاسوار، وتعين على فرقة الجنرال " رينيه " أن تستولي على جميع المراكز التي تقع على يسار القناة، أما بالنسبة لفرقتا " بون " و " لان " فقد كانتا إحتياطيتين[١].

كان الانجليز قد جلبوا – بالإضافة إلى المدافع المقامة في الابراج – مدفعية خاصة بهم، وإثنتي عشر ألف (١٢,٠٠٠) قنبلة، وأربع الاف (٤,٠٠٠) قذيفة مدفع، ومدفعين، وكمية هائلة من البارود[٢].

بدأ الجنود بحفر الخنادق، وهم خائفون من انتشار مرض الطاعون، فيما بينهم، وكان عددهم يقارب التسعة الآف (٩,٠٠٠) رجل تقريبا، وبينما كانت مختلف الوحدات، تتناوب على أعمال الحفر، كان المدافعون، ينهالون عليهم بقذائف مدافعهم، وقنابلهم، كما كانوا يراقبونهم بهدوء، من وقت لآخر، وهم يقومون بمهمتهم، ثم يفسدون عليهم ما صنعوه، بهجوم كبير مضاد من الحصن، ترافقه نيران محكمة التسديد[٣].

أكملت عملية نصب البطاريات، في ٢٨-آذار-١٧٩٩، وسلحت بالمدافع، حيث فتحت النار، وأحدثت ثغرا في الزاوية الشمالية الشرقية، وصدرت أوامر " بونابرت " بالهجوم، حيث كان يعتقد أن باستطاعته إحتلال عكا بسهولة، مثل يافا، لكن إعتقاده قد خانه في الجولة الاولى، عندما قتل ثلاثة ضباط، من هيئة الاركان[٤].

قام " بونابرت " بجولة تفقدية لصفوف جنده، بعد الهجمة الاولى التي شنها على عكا، وكان برفقته " كليبر "، واثناء تفقدهما للخنادق التي حفرها الجند الفرنسي، قال " كليبر " لـ " بونابرت " : " يالها من خنادق مضحكة، هذه التي حفروها هنا، ربما تناسبك أنت، أما أنا فلا تكاد تصل إلى بطني "[٥].

---

(١) لوكروى- الجزار، ص ٢١٦.

(٢) هيرولد- بونابرت، ص ٣٨٨.

(٣) هيرولد- بونابرت، ص ٣٩٠. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 26.

(٤) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 26.

(٥) لوكروى- الجزار، ص ٢١١ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٣٩٥.

بدأ الشك يساور الفرنسيين، في إمكانية إحراز نصر على الجزار، خاصة بعد أن استولى الانجليز على مدافع الحصار[١]. وكان الجزار يعمل على تشجيع جنده، للصمود حتى النهاية، فيطلق النار من سلاحه تجاه الفرنسيين، كي يبث الشجاعة بينهم.

علق " بونابرت " امله في اقتحام عكا، على ما سيحدثه لغم كبير، يوضع تحت البرج الكبير. فأخذ الفرنسيون يستعدون لوضع اللغم، فانقض جند الجزار على إنشاءات الفرنسيين لإفسادها، إلا أن الفرنسيين أجبروهم على التراجع لداخل المدينة[٢].

تمكن الفرنسيون من وضع اللغم تحت وابل من قذائف جند الجزار، في أوائل نيسان، وبدأ الهجوم فور تفجير اللغم، الذي لم يكن بالغ الأثر، فقتل المهاجمون جميعهم تقريبا، وهنا أدرك " بونابرت " أن مزيدا من المحاولات لن يجدي مالم تصل مدفعية الحصار[٣].

رابعا : مجريات الحصار وأحداثه.

أ - الجو العام للحصار.

كان الفرنسيون أثناء حصارهم لعكا، تنقصهم قواعد التموين والامداد، ليعوضوا خسائرهم، وكانوا يرحبون بكل قذيفة مدفع، تأتيهم من الحصن، أو من السفن الانجليزية، لأنهم يستعملونها من جديد، في ردها إلى عكا، بينما كان الجزار يتلقى كل ما يحتاج إليه من المؤن والامدادات، عن طريق البحر. ولعل وصول مئات من رجال المدفعية المدربين، على يد أوروبين من الأستانة، في أخر أيام الحصار، عاملا فاصلا في نتيجته[٤].

يكون عادة عدد المحاصرين، أكثر من عدد المحاصرين فإذا طال الحصار أكثر مما حسب له، تركه الجيش المحاصر، ووضع وراءه قوة تكفي للإستيلاء على الحصن، ويواصل الزحف إلى أهداف أخرى. ولكن في حصار عكا، كانت عدة الحامية فيها، مساوية تقريبا للجيش الفرنسي، والأهم من هذا، أن عدد الفرنسيين، لم يكن سوى ثلاثة عشر ألف (١٣,٠٠٠) رجل، لذا لم يكن بمقدوره مواصلة الحملة، إلا بعد السيطرة على المدينة، وتدمير قوات الجزار[٥].

---

[١] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٣٦٢.

[٢] لوكروى- الجزار، ص ٢١٩.

[٣] لوكروى- الجزار، ص ٢١٩. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 26.

[٤] عوض- فتح مصر، ص ٣٠٠.

[٥] عوض- فتح مصر، ص ٣٠٠ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.

وعندما يكون الموقع كموقع عكا، ثلثه مطل على البحر، فإن العدو يحاصره عادة، بـــرا وبحرا، أما في عكا، فالبحر يسيطر عليه المدافعون، ولم يصل ل " بونابرت " مدفعية تعوضـــه، كالتي أخذها " سميث "، فقد استخدمت هذه المدفعية، من قبل المدافعين، لا من قبل المهاجمين.

ب - متابعة الحصار.

كان " بونابرت " قد أوفد ضابطا فرنسيا من أركان حربه، إلى سوريا، ليقـــوم بمهمـــة دبلوماسية فيها، فقبض عليه الجزار، وسجنه في الحصن، وبعد ذلك شنقه، والقى بجثته في البحر، ردا من الجزار، على الهجوم الذي قام به الفرنسيون، على عكا، في أوائـــل نيســـان ســـنة ١٧٩٩[١].

كان الجزار ينير الاسوار، تحسبا للمفاجأت، فوضع فنارات كبيرة في أعلـــى الأبـــراج، وكان يرمي بقذائف مشتعلة في أسفل الأسوار، فتضيئها، ويرافق ذلك قصف المدفعيـــة لمواقـــع الفرنسيين[٢].

ظلت الحرب بين مد وجزر، يتخللها مبارزات المدفعية، والـــهجمات المضـــادة، وحفـــر الخنادق، ووضع الألغام، إلا أن اتجهت أنظار الفرنسيين إلى الخطر الذي يحدق بهم خارج عكا، (والذي سيأتي ذكره لاحقا) مما اضطر " بونابرت "، للتوجه بنفسه، للإشراف علـــى ســـاحات القتال.

عاد " بونابرت " إلى حصار عكا مرة أخرى، في ٢٣- نيسان-١٧٩٩. وقد وصلت إليه في هذه المرة أخبار سارة، وهو أن ثلاثة سفن فرنسية أفلتت من الرقابة الانجليزية، ووصلت إلى يافا من مصر، تحمل مدافع حصار من عيار ٢٤ باوند، و ١٨ باوند، حيث أرسلت لتحل محـــل التي أسرها " سميث "، في السابق. وأرسلت الأوامر لإرسال هذه المدافع إلى المعسكر الفرنســـي في عكا، فشحنت في ٢٨- نيسان حيث وصلت عكا[٣].

كان " بونابرت " قد أمر بشن هجوم آخر في صباح ٢٤، نيسان بعد أن نصب الفرنسيون لغما تحت البرج الكبير، فنسف هذا اللغم أركان البرج، ولما حاول رماة القنابل مهاجمة الثغـــرة، انهال جند الجزار من أعلى البرج، بالقذائف والقنابل اليدوية، والحجارة، وإلقاء براميل البـــارود

---

(١) هيرولد- بونابرت، ص ٣٩٧.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ٢٢٢.

(٣) Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 28.

عليهم، مما تسبب في إحراق نصفهم، وفي صبيحة اليوم التالي، تمكن مائة (١٠٠) جندي فرنسي، من دخول رواق البرج الأسفل، فردهم المدافعون بقذائفهم، من فتحة في سقف الرواق[١].

جرح في هذا الهجوم الجنرال " فيو Veaux "، من فرقة الجنرال " لان "، كما تهشمت ذراع الجنرال " كفاريللي Caffarelli "، حيث مات بعد ذلك بثلاثة أيام، اثر إصابته بالحمى، وتبعه بالأجل، المهندس الملكي " فليبو "، اثر إصابته أيضا بالحمى[٢].

كان الجزار حريصا في مقاومته للفرنسيين، على أن لا يدخلوا عكا، حيث أنه شعر أن الضعف، بدأ يسري في أوصال جنده، فكان بالدرجة الأولى يعمل بنفسه، في مواجهة الأفواج الفرنسية، التي تتسلق أسوار عكا، أو تدخلها بعد تفجيرات الالغام التي كان الفرنسيون ينصبونها[٣].

بعد أن وصلت مدفعية الحصار، في ٢٨- نيسان، أمر " بونابرت " بشن هجوم أخر على عكا، في ٣٠- نيسان، وكان في هذه المرة متفائلا، لانه سيخترق حصن المدينة، ويواجه الجزار وجنده، لكن خاب أمله مرة أخرى، عندما فشل في الهجوم، فقام بهجوم آخر، في١- أيار، لكنه كان كسابقه، فقرر أن يتريث قليلا، حتى يعيد الثقة إلى جنده، وينظم صفوفهم.

أصدر الجزار أمرا للحامية العثمانية المتمركزة في رودس، لاسترجاع مصر، بالحضور إلى عكا للمشاركة في حرب الفرنسيين، وصدهم عن عكا، وما أن وصلت هذه الأخبار إلى " بونابرت " حتى أمر قواته بتنظيم هجوم آخر على حامية عكا، في ٧- أيار علّه يستطيع دخول المدينة، قبل وصول النجدة اليها[٤].

بدأ هجوم الفرنسيين على عكا، في ليلة ٧- أيار، فغارت فرقتا " لان " و " بون " على التحصينات، واستطاعتا فتح ثغر في الزاوية الشمالية الشرقية للتحصينات واستمر القتال حتى اليوم التالي، إلا أن قوات الجزار، استطاعت اجبار الفرنسيين على التراجع، وجرح الجنرال " لان" في هذا الاشتباك[٥].

إستؤنف القتال في ٩- أيار، وتمكن الفرنسيون من ارساء اقدامهم في البرج الكبير وبدأوا يتسللون إلى داخل المدينة، لكن قوات الجزار، التي عززت بقدوم العثمانيين من رودس، والقوات

---

(١) هيرولد- بونابرت، ص ٤٠٣-٤٠٤. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 26.

(٢) الترك- حملة بونابرت، ص ١٦١. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 28.

(٣) فريد بك- تاريخ الدولة، ص ١٨٢.

(٤) لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٥٢. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 29.

(٥) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١٦٥. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 29.

الانجليزية المساندة لها، إستطاعت السيطرة على الموقف، واستخدم السلاح الابيض في المعركة، وقتل الكثير من الفرنسيين، الذين دخلوا المدينة، كما قتل ايضا عدد من الانجليز، على يد قوات الجزار، إلا أن هذا كان بالخطأ[١]. ويقول " واتسون " واصفا الموقف : " كان " سميث " يتوقع أن تسقط عكا، والجزار يشجع على الصمود و " بونابرت " يعمل جاهدا للإحتلال، مع أنه توقع أن من الصعب السيطرة على المدينة "[٢].

زحف " كليبر " إلى عكا، بناءا على أوامر " بونابرت "، تعزيزا لقوات الحصار، واستقر رأي الأخير على شن هجوم آخر، في ١٠- أيار-١٧٩٩، وكان الفرنسيون قد وسعوا الثغرة، بفعل المدفعية، فغدت تسمح بدخول خمسين (٥٠) رجل دفعة واحدة. وتمكنوا في هذه المرة، من الوصول إلى " جامع الجزار " فانهالت عليهم القذائف من البر والبحر، وبادر جنود الجزار بالقاء الحرائق بالزيت والقطران، وطوقوهم، وقتلوا الكثير منهم بالحراب، وسط زغاريد النساء، من أعالي الأسطح، وأسر ما يقارب مائة وعشرين (١٢٠) جنديا فرنسيا[٣].

أرسل " بونابرت " إلى حكومة الادارة في باريس، يشرح لها أن الاستيلاء على عكا، لا يستحق الخسارة، وأنه قرر الإنسحاب إلى مصر، لمواجهة الغزو المتوقع. وقد ذكر في رسالته، أن خسارة الفرنسيين في الحملة إلى فلسطين، بلغت خمسائة (٥٠٠) قتيل، والف (١٠٠٠) جريح[٤].

طلب " بونابرت " من الجزار، ايقاف تبادل النار، وذلك بارساله علم الهدنة، في ١١- أيار، حتى يتم دفن الموتى، وتبادل الأسرى، لكن " سميث " يذكر، أن الفرنسيين استمروا في الضرب، أثناء الفترة التي حددوها لايقاف الحرب، مما جعل الجزار يرفض الهدنة، في ١٣- أيار[٥].

أستؤنف القتال بعد ذلك، ورفض الجزار السماح للفرنسيين بنقل موتاهم، من داخل الحصن، ومن داخل المدينة، فاضطر الفرنسيون أن يطأوا على سابقيهم،عند دخولهم الثغرة، مما اثار فيهم حقدا عظيما على الجزار وجنده، فاندفعوا كالمجانين، لكنهم قوبلوا بأفتك نيران مضادة، صبت عليهم في حصار عكا. وقتل الكثير منهم، وجرح القسم الباقي جراحا خطيرة،

---

[١] هيرولد- بونابرت، ص ٤٠٥-٤٠٦ ؛ فريد بك- تاريخ الدولة، ص ١٨٣.

[٢] Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 30.

[٣] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١٦٥.

[٤] Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 30.

[٥] المصدر نفسه، ص ٣٠.

فما أن صد الهجوم الأخير، حتى قرر " بونابرت " أن يتقهقر، ويعود إلى مصر[١]. ويـرد علـى لسان أحد شهود العيان لهذا الهجوم، وصفا يقول فيه : " إنني لا أغالي اذا قلت أنه من المحقق أن نصف الجيش قد هلك "[٢].

ج – الحرب النفسية.

لم تقتصر الحرب بين الفرنسيين والجزار، على تبادل إطلاق النار، بـل كـان يتخللـها النشاط الانجليزي، الرامي لزعزعة صفوف الفرنسيين، حيث قام الاميرال " سميث "، بشن حرب نفسية ضد الفرنسيين، وذلك من خلال توزيع المنشورات بين الجنود الفرنسيين، بالقائها عليـهم، في الخنادق التي يتحصنون بها، والتي تعمل على تثبيط معنوياتهم، فمنها مـا ورد فيـه : " أن حكومة الادارة في باريس، لم ترسل هؤلاء الجنود لهذه المنطقة؛ إلا لتتخلص منهم "[٣]. كما وجه " سميث " خطابا لـ " بونابرت "، بتاريخ ٨- أيار- ١٧٩٩، يدعوه فيه إلى حقن الدماء، وجلاء الفرنسيين عن فلسطين، وأنه من الصعب على " بونابرت "، فتح عكا، حيث قال فيـه : " أما الآن، وفي وسعك أن ترى هذا الحصن، يزداد كل يوم قوة، بدلا من أن يضعفه حصار أمتد أكثر من شهر، فإني أسألك: هل أنت على استعداد لإجلاء جنودك، من أراضي الدولة العثمانية، قبـل أن يغير تدخل جيش الحلفاء (الأتراك والانجليز) العظيم من طبيعة هذا السؤال "[٤].

---

[١] هيرولد- بونابرت، ص ٤٠٧ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٥٢.

[٢] هيرولد- بونابرت، ص ٤٠٧.

[٣] الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٢٦٧.

[٤] كرد علي- خطط، ج٣، ص ١٤-١٥ ؛ هيرولد- بونابرت، ص ٤٠٩-٤١٠ ؛ أبو دية- عكا (١٧٥٠-١٨٠٤)، ص ١٥١.

د - القتال خارج عكا.

اثناء انهماك القوات الفرنسية، في قذف عكا بنيران مدافعهم، قدمت قوات والي دمشق، ووالي حلب، إلى منطقة الجليل، وقوات من منطقة نابلس، بقيادة " يوسف الجرار "، إلى مرج بن عامر، للمساهمة في الحرب ضد الفرنسيين، إضافة إلى أن الجزار، أعطى أمرا إلى "ابراهيم بك "، الذي كان يقود المماليك، و " عبدالله بك " قائد الخيالة والفرسان، من المدن المجاورة، أن يكونوا في مساعدته خارج عكا[١]. بعد ذلك أرسل " بونابرت " الجنرال " مورا " بقوة صغيرة لتحصين صفد، فوضع فيها الأخير حاميته، في ٣١- آذار. وفي اليوم نفسه، إحتل " جونو Junot " مدينة الناصرة، لمراقبة الطريق عبر نهر الأردن، كما قام " بونابرت " بإرسال " كليبر " لصد قوة عثمانية قرب الجليل[٢].

زحف " فيال Vial "، في ٤-نيسان-١٧٩٩، على مدينة صور، بمساعدة بعض المتاولة، فشاهد في طريقه، أن السكان يفرون مرتاعين، عند اقتراب الفرنسيين، فطمأنهم وأعادهم إلى المدينة. ووطد الأمن فيها، وأسند الحكم إلى المتاولة، وبعد ذلك بيومين، وصلت أخبار إلى " بونابرت "، أن قوة عثمانية، استطاعت عبور نهر الأردن، على الطريق الممتدة من دمشق إلى صفد، وأن قوة أخرى أحتلت طبريا، فأصدر أمرا إلى " جونو "، بالتصدي لهذه القوات. وما أن تلقى الأخير هذا الأمر، حتى باغت القوات العثمانية بالهجوم لكنه سرعان ما انهزم[٣].

توجه " كليبر " لمساعدة " جونو "، وعندما وصل إلى الناصرة، كان العثمانيون قد تراجعوا إلى طبريا وبيسان، ومنها توجهوا إلى مرج بن عامر، فتبعهم " كليبر " للإلتقاء بهم، وبالبدو والمماليك، الذين يساندونهم، فقام بتقسيم جيشه إلى أربعة (٤) أقسام، ودارت المعركة بينهم، وإستطاع الفرنسيون تفريق جموع العثمانيين والبدو والمماليك، وارتد بعد ذلك إلى الناصرة[٤].

ما أن سمع " بونابرت "، بتقدم العثمانيين في المعارك، وعجز الفرنسيين عن السيطرة على الموقف، حتى قرر أن يرسل الجزء الاكبر من جيشه لمواجهتهم، تاركا أمور حصار عكا، للجنرال " رينيه "، واستعد لمواجهة جيش الدولة العثمانية، الذي اتخذ مواقعه في جبل طابور، فالتقى الطرفان في ١٥- نيسان-١٧٩٩، في الموقع نفسه، واستطاع كل من " بونابرت "

---

(١) لوكروى- الجزار، ص ٢٠٥.

(٢) هيرولد- بونابرت، ص ٣٩٨-٣٩٩.

(٣) هيرولد- بونابرت، ص ٣٩٩. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 27.

(٤) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٢٦٣ ؛ الترك- حملة بونابرت، ص ١٥٩.

و " كليبر "، بعد مضي عشر ساعات من القتال، الانتصار على هذه القوات، وتفريق صفوفها، والسيطرة على الكثير من المؤن، والأسلحة، وقد عرفت هذه المعركة باسم " معركة جبل طابور "(١).

عسكر الجيش الفرنسي في مرج بن عامر، وأرسل " بونابرت " خمسمائة (٥٠٠) جندي إلى جنين، فأمرهم أن ينهبوها، ويحرقوها، فنفذوا المهمة واحرقوا. أيضا القرى الموجودة في جبل نابلس، فجمع " ابن عقيل "، وهو من أبناء المنطقة، عسكرا وحضر إلى صفد وحاصر قلعتها، فأرسل " بونابرت " قوة بقيادة " مورا " إلى صفد، فرحل ابن عقيل إلى جسر بنات يعقوب، وعاد " مورا " إلى عكا، وتبعه " بونابرت " في ٢٣- نيسان. وبقي " كليبر " ليتولى مسؤولية السيطرة على الجليل، وأقام مركز قيادته في الناصرة(٢).

خامسا : فشل الحملة الفرنسية في احتلال عكا.

أ - جلاء الفرنسيين عن عكا.

تلاشت أحلام " بونابرت " أمام صمود عكا بقيادة الجزار، ومساندة الانجليز. ولم يعد أمامه من طريق ينقذ بها حياة جنوده من خطر الهلاك، إلا التخلي عن حصار عكا، بل الانسحاب من فلسطين كافة، فقرر العودة إلى مصر، وعندما أخذت هذه الفكرة حيزا من تفكيره، وأصبح لابد من تنفيذها، جمع قواته وأمرهم بأن يهجموا على المدينة. وتولى " كليبر " قيادة هذا الهجوم، وعندما بدأ الهجوم استنفرت قوات الجزار مرة أخرى، واشتبك الطرفان فاستطاع عسكر الجزار أسر الكثير من الفرنسيين(٣).

أمر " بونابرت " في الأيام التي تلت هذا الهجوم بقذف عكا بجميع ما يملك من مدافع، وخص بالقصف، قصر الجزار مدة أربعة أيام متتالية(٤).

إن هدف " بونابرت " من هذا القصف إخفاء إستعداداته لرفع الحصار، وإصابة المدينة بأبلغ ما يستطيع من أضرار. بالإضافة إلا أن هذا العمل كان سيخفف من هزيمة " بونابرت " التي دفنت وراء أسوار عكا، ويعلن للملأ أنه دمرها.

---

(١) فريد بك- تاريخ الدولة، ص ١٨٦ ؛ لوتسكي- تاريخ الأقطار، ص ٨١.
Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 28.

(٢) الترك- حملة بونابرت، ص ١٦٠.

(٣) الترك- حملة بونابرت، ص ١٦٤ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢١٤.

(٤) هيرولد- بونابرت، ص ٤١٢.

بدأ الجنود ينسحبون عن عكا، في مساء ١٩- أيار-١٧٩٩. وذلك بنقل الجرحى، والمرضى، والمدافع الثقيلة. وبدأت الحركة تنفذ بهدوء، حتى لا يلاحقها جند الجزار، وبدأ الجيش الفرنسي تقدمه وقد تأخر " كليبر " وفرقته عن الالتحاق بالجيش، ليكون الخط الدفاعي الخلفي للجيش الفرنسي. وفي صباح ٢٠- أيار، كان معسكر الفرنسيين قد خلا ممن فيه. وقد تخلى الفرنسيون عن كثير من معداتهم، إما بالحرق، أو بالدفن، حتى يسهل عليهم نقل المرضى على الحيوانات، وواجه الجيش الفرنسي المنهزم، أسوأ اوقاته، وذلك بسبب تفشي المرض بين عناصره بصورة كبيرة جدا، ومطاردة الفلاحين لهم، خاصة المتخلفين عن طوابير الجيش الفرنسي من جهة البر، ومتابعة قوات " سميث " للجيش نفسه، من جهة البحر. ومن غيظ " بونابرت " أمر بحرق جميع المحاصيل التي صادفت جيشه في الطريق، نكاية بالجزار، حتى تحولت السهول إلى نار[١].

وصلت القوات الفرنسية إلى يافا في ٢٤- أيار-١٧٩٩، ومنها بدأت عملية نقل الجرحى والمرضى إلى مصر، وفي ١- حزيران، وصلت بقية القوات الفرنسية إلى مصر.

ب - أسباب الجلاء.

عند دراسة حملة " بونابرت " على فلسطين، من الطبيعي أن يرد سؤال : هل كانت هذه الحملة ناجحة أم فاشلة ؟ يرى بعض المؤرخين أن " بونابرت " نفذ هدف الحملة، ويرى البعض الآخر عكس ذلك، وهو أنه انهزم وأجبر على الانسحاب عن عكا.

وهنا لابد من تناول الأسباب التي أحاطت بظروف انسحاب " بونابرت " : تعزو بعض الروايات أسباب الانسحاب، إلى أن أخبارا تسربت، إلى " بونابرت " من باريس. وأعطته صورة قاتمة عن الحالة السياسية فيها، وعن الوضع العام في أوروبا. وأن أصحابه كتبوا إليه يخبرونه ان الوطن بات في خطر شديد، وأن أعداء فرنسا يحيطون بها، ويهددون سلامتها، وأن الحكومة أعلنت الحرب على النمسا في ١٣- آذار-١٧٩٩. وأن لا يمكنها بعد هذا إلا أن تستجمع كل قواها، وأمكاناتها، لتواجه بها جيوش النمسا. وأن المهمة التي يقوم بها في الشرق أصبحت ثانوية، وباتت العودة إلى فرنسا واجبا لامفر منه، لأن سلامة الوطن ومصيره يقرران في أوروبا لا خارجها[٢]، كما أن الحكومة الفرنسية في باريس، أرسلت إليه رسالة تطلب إليه العودة

---

[١] الترك- حملة بونابرت، ص ١٦٥. Watson, Bonaparte's Expedition, P.E.F.Q.S, P. 31.
بسام العسلي- نابليون بونابرت، ص ٩٤، ٩٦.

[٢] أميل الخوري- السياسة، ج ١، ص ١٢٣-١٢٤.

للإشتراك في الدفاع عنها، وقد أختتمت الرسالة بالعبارة التالية : " أن الحكومة تكون جدا مرتاحة ومغتبطة أن تراك على رأس جيوش الجمهورية التي أوردتها قيادتك مناهل المجد والنصر[١].

يمكن لنا أن نستشف من هذه الرواية، أحد الأسباب التي دفعت " بونابرت " لفك الحصار عن عكا، والعودة إلى مصر. وهو الأحوال السياسية السيئة في فرنسا، التي أوجبت عليه العودة اليها. وليس من شك أن هذا السبب كان له دور في عملية العودة، لكنه لا يشكل السبب الرئيس، والوحيد، للإنسحاب، فقد كان يفكر بالعودة إلى فرنسا عن طريق فينا بعد أن يصنع الأمبراطورية الشرقية التي طالما حلم بها.

هنالك أسباب أخرى يوردها " بونابرت " نفسه مبررا بها أسباب انسحابه. وهي : إقامة الجيش الفرنسي مقابل عكا مدة ستة أيام دون قتال، حتى تمكن الانجليز من تحصين عكا، وإستيلاء الانجليز على السفن الفرنسية الحاملة لمدافع الحصار، وعدم تحصيل الضرائب من المناطق القريبة من عكا لهجرة سكانها، وورود خبر نقض الصلح بين فرنسا والنمسا، وموت " كفاريللي " الذي كان له بالغ الأثر في نفسه[٢].

لكل من هذه الأسباب نصيب من الصحة. ولو فرضنا أنها تشكل السبب الوحيد الذي أوجب على الفرنسيين الانسحاب من عكا، إضافة إلى السبب السابق فإنها مجتمعة تدل على فشل حملة " بونابرت " في إحتلال عكا.

يمكن لنا بعد البحث في حملة " بونابرت " إلى فلسطين وخاصة إلى عكا أن نبدي الأسباب التي ساهمت في إفشال الحملة وهي :

- حصانة عكا مما سبب فشل سيطرة الفرنسيين عليها.
- صلابة الجزار، وتصميمه على دحر القوات الفرنسية. حيث كان يلقي برسائل " بونابرت " وجه الأفق.
- مساندة القوات الانجليزية للجزار، والمتمثلة بالاميرال " سميث " في حربه ضد الفرنسيين.
- تفشي مرض الطاعون بين أفراد الجيش الفرنسي، مما كان له بالغ الأثر في تحطيم نفسياتهم.
- اضطرار الفرنسين للقتال خارج عكا، مما سبب في تشتيت جهودهم المنصبة في فتحها.

---

[١] أميل خوري- السياسة، ج ١، ص ١٢٤.

[٢] الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ٧١-٧٢.

- ضرورة الدفاع عن الوجود الفرنسي في مصر، ضد العثمانين والانجليز. فإذا ما سقطت مصر بأيدي التحالف المعادي ل " بونابرت "، فانها ستكون نهاية الوجود الفرنسي في الشرق.

ج - نتائج الحملة.

بلغت خسائر الفرنسيين في حملتهم على فلسطين كما يرويها " هيرولد " : " الفا ومائتي (١٢٠٠) قتيل، والفين وثلاثمئة (٢٣٠٠) مريض، أو جريح، بجراح خطيرة. بحيث فرضت هذه الحالات على " بونابرت " أن يقسم المرضى والجرحى إلى ثلاث فئات : فئة القادرين على السير، ويسيرون على الأقدام. وفئة القادرين على الركوب، وتحملهم الخيول والبغال والجمال والحمير. والفئة الثالثة الذين حملوا على الناقلات بحرا من يافا إلى دمياط[١].

إن صمود الجزار في عكا، أمام " بونابرت " وجيشه، جلب له شهرة كبيرة في مختلف أنحاء الدولة العثمانية. وهو صمود أدى إلى انسحاب الفرنسيين. حيث يقول الجبرتي في ذلك : " كان من غرائب الدهر وأخباره، لا يفي القلم بتسطيرها، ولا يسعف الفكر، بتذكرها، ولو جمع بعضها لجاءت مجلدات، ولو لم يكن من المناقب إلا إستظهاره على الفرنسيين، وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين، لم يغفل فيها لحظة لكفاه "[٢].

دام حصار عكا بين ١٩- آذار حتى ٢٠- أيار، مما تسبب في دمارها بشكل كبير إلا القليل منها، وذلك بسبب ضرب المدافع والقنابل المتواصل[٣].

بعد انتهاء الحصار، عمل الجزار على إعادة بناء عكا وتحصينها من جديد، وأعاد علاقاته بالتجار الفرنسيين، ومما يدل على تقدير " بونابرت " لبسالة الجزار في قهر أسطورة الجيش الفرنسي في ذلك الوقت أنه عندما عاد إلى فرنسا أرسل إلى الجزار بندقية فاخرة طاقمها ذهب ملفوفة بقماش من حرير موشح بالذهب[٤].

---

[١] هيرولد- بونابرت، ص ٤١١.

[٢] الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ٣٤١.

[٣] الجبرتي- عجائب، ج ٣، ص ٣٤١ ؛ الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٣٣؛ جحاف نصوص يمنية، ص ٦٤

[٤] العورة- تاريخ ولاية، ٧٠.

الفصل الرابع

التنظيم الإداري والعسكري عند الجزار

أولاً : التنظيم الإداري.

أ - التنظيم الإداري لولاية صيدا وتوابعها.

١- تركز السلطة الإدارية في الولاية.

٢- إدارة صيدا.

٣- إدارة عكا.

٤- إدارة بيروت وصور.

٥- إدارة حيفا.

ب- الجهاز الإداري في مركز الولاية.

١- نظرة في الجهاز الإداري.

٢- كتّاب الديوان.

٣- أعوان الجزار في الحكم.

ج- إدارة ولاية الشام وملحقاتها.

١- إدارة دمشق.

٢- تنظيم قافلة الحج.

٣- إدارة ملحقات ولاية الشام.

ثانيا : التنظيم العسكري.

أ - العناصر الأساسية لقوة الجزار.

١- القوات المحلية.

٢- القوات المرتزقة واقسامها.

ب- الوحدات العسكرية.

ج- اعداد قوات الجزار.

د- الاسطول.

هـ- مرتبات الجيش.

١- مرتبات القوات المرتزقة.

٢- مرتبات القوات المحلية.

و - صور تنظيمية لجيش الجزار.

١- خروج الجيش إلى القتال.

٢- القوات المرافقة لقافلة الحج.

ز - خلاصة.

أولاً : التنظيم الإداري.

أ - التنظيم الإداري لولاية صيدا وتوابعها.

١ - تركز السلطة الإدارية في الولاية.

اتسعت رقعة حكم الجزار، فشملت كل فلسطين تقريباً، ومعظم أراضي لبنان، عدا ولاية طرابلس، التي خضعت له في فترات متفاوتة. كما عين على ولاية الشام عدة مرات، حتى أنه صار يلقب بنائب السلطان في سوريا. ولم يكن الباب العالي يتدخل في حكمه، إلا فيما يخص إرساله إلى دمشق، أو دعوته منها، دون أن يمس نشاطه في سائر باشويته[١].

لقد جرت العادة، أن يمتد نفوذ ولاة دمشق، إلى ولايتي صيدا وطرابلس، لكن في عهد الجزار حدث العكس، حيث أصبحت ولاية دمشق، تتبع لولاية صيدا، في حكمها من قبل الجزار.

لقد تمكن الجزار من خلال منصبه، من جمع التركة المالية والإدارية التي خلفها الشيخ ظاهر العمر، فانشأ إدارة تتميز بالكفاءة النسبية، والقدرة على وقف تدهور الولاية. وهذا يفسر استسلام الحكومة المركزية، وتركه في منصبه على مدار ثلاثين عاماً[٢]. ويعكس " توما " صورة واضحة لهذا بالقول : " كان عهد الجزار خطوة نحو المركزية، التي نجحت في فرض السلطة العثمانية إلى حد كبير "[٣]. وفي الوقت نفسه، كان على الحكومة أن تأخذ بعين الاعتبار، قوة الجزار العسكرية، وأنه كان واحداً من أقدر الرجال على تنظيم قافلة الحج الشامي التي كانت أحد الشواغل الرئيسة للحكومة، في ذلك الإقليم.

تمكن الجزار من فرض رقابة شديدة، على الولايات التابعة له، من خلال نظام إداري مركب شديد المركزية، يقوم على أساس تقسيم السلطة، وربط الأقسام بشكل مباشر بالمركز. في حين تبقى علاقة هذه الأقسام، فيما بينها ضمن الولاية، علاقة تنسيقية في إطار الاختصاص، والصلاحيات المحددة لكل منها.

لم يتوقف طموح الجزار عند صيدا وفلسطين، بل تجاوز ذلك في بعض الأحيان. حيث يعلق " طيباوي Tibawi " على ذلك بالقول : " أرسل الجزار كتيبة من كتائبه لتحتل حصن العريش، رغم أنه في المنطقة المصرية، ولا ينتمي إلى ولاية دمشق، ولا حتى إلى منطقة غزة، والتي يبدو أن الجزار قد ضمها إليه "[٤].

---

[١] بولس- تاريخ لبنان، ص ١١٥. Volney, Travels, II, P. 183.

[٢] مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٧٩ ؛ عبد الغني- السلطة، ص ٧٧.

[٣] توما- فلسطين، ص ٦٧.

[٤] Tibawi, A Modern History, P. 32.

٢- إدارة صيدا.

تولى الجزار حكم ولاية صيدا، سنة ١٧٧٥. وبقيت تخضع لحكمه حتى توفي، سنة ١٨٠٤. وكانت هذه الولاية على إتساع، لا يسمح بأن تضبط من مركز واحد، فكان من الضروري وجود نوع من اللامركزية، في إدارة الولاية.

بقي التركيب التقليدي لولاية صيدا، ثابتاً نوعاً ما، في القرن الثامن عشر. (انظر الفصل الأول) باستثناء بعض الإضافات البسيطة، وهي : مرجعيون في الشمال الشرقي. وقد أضافها الجزار للولاية بعد أن كانت تتبع لولاية دمشق. وحيفا، وعتليت في الجنوب الغربي، فقد أتبعت الأولى للولاية، سنة ١٧٢٣. أما الثانية (عتليت)، فقد أضافها ظاهر العمر، بعد ذلك بأربعين سنة، فاجتمعت كلها لتؤلف جزءاً كاملاً، لولاية يحكمها الجزار[1].

عندما جاء الجزار والياً على صيدا، كان قادراً على إعادة السيطرة على الولاية، والتي افتقدها سابقوه فيها، ونتيجة لذلك، تركزت السلطة في يده. ففي سنة ١٧٨٣، استطاع إعادة السيطرة، على الولاية الممتدة، ما بين نهر الكلب شمالاً، وقيصرية فلسطين جنوباً، والمتوسط غرباً، والجانب الأعلى من نهر الأردن شرقاً، واتخذ من عكا مركزاً لإدارة الولاية[2].

أجرى الجزار بعض التغييرات الإقليمية، على بعض المقاطعات، التابعة لولاية صيدا، وهي شفا عمرو، والناصرة، وصفد، والرامة، حيث قام بتوحيدها معاً، والتي لم تكن موحدة سابقاً[3].

كان جبل الشوف، المنطقة الوحيدة التي لا تمارس فيها السلطة الإدارية، من قبل الجزار مباشرة، مع أن إيراداتها، تدفع مباشرة إلى ولاية صيدا، وذلك عن طريق متسلمين، مستقلين عنها إدارياً.

لم يستطع الجزار، تحمل تجاهل السلطة، الموجودة في جبل الشوف، والواقعة تحت حكم الشهابيين، لكنه كان مجبراً على الاعتراف بهم، مقابل جمع المال الميري منهم، وفي الوقت نفسه، استطاع عزل الجبل، وأقاليمه الدرزية في الشوف، ومد نفوذه على حسابهم، مستغنياً بهذا، عن ممارسة السلطة الإدارية، بشكل مباشر في الجبل[4].

(١) Cohen, Palestine, P. 122.

(٢) سليمان- ولاية صيدا، تاريخ العرب والعالم، ع ١٧، ص ٤٤. Cohen, Palestine, P. 122.

(٣) Cohen, Palestine, P. 124.

(٤) مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٧٨.

يعكس " كوهن "، صورة توضح الوضع الإداري، القائم في جبل الشوف، إبان حكم الجزار لولاية صيدا، حيث يقول : " عندما نجح الجزار في ضم بلاد بشارة، والجليل، قرر أن يفعل الشيء نفسه، مع جبل الشوف ... ورغم محاولاته التدخل، في الشؤون الداخلية للجبل، إلا أنه لم يكن قادراً، على أن يخترقه، حتى نهاية القرن. فاستمر يتحمل اعترافه الرسمي بالأمراء الشهابيين، وذلك بتزويدهم الخلعة التقليدية[١].

٣- إدارة عكا.

جعل الجزار من عكا عاصمة له، ومقراً لحكمه، حيث كان يدير دفة الحكم منها، لكنه لم يحاول أن يدخل كلمة عكا، في اسم الولاية، وبقيت تنطوي تحت اسم ولاية صيدا، خاصة في المعاملات الرسمية. لذا كانت عكا من الناحية الإدارية، المركز الأساسي أثناء فترة حكم الجزار. حتى انه عندما كان يعين والياً على دمشق، فإنه كان يحكمها من عكا. ويذكر " كوهن "، أن عكا أصبحت عاصمة فلسطين، في القرن الثامن عشر[٢].

كان السبب في نقل مركز الولاية إلى عكا، هو ما تتمتع به المدينة، من نشاط تجاري كبير، إضافة إلى موقعها الحصين المتميز. حيث تقع على الرأس بين البحر والحقول المنبسطة الشاسعة، والسبب الآخر، هو ما تركه فيها ظاهر العمر من تحصينات. وهذه التحصينات، إضافة إلى الموقع، جعلت منها المدينة الأكثر قوة، في حال تعرضها للخطر[٣]. وقد ثبت ذلك، عندما حاول " بونابرت " اقتحامها، سنة ١٧٩٩.

كان الجزار يقيم في عكا عشرة اشهر تقريباً، ويقضي ما تبقى من السنة، في صيدا. إلا أن هذا لم يكن ثابتاً، طوال فترة حكمه، فقد كان ينتقل إلى صيدا، لقضاء وقت أطول، إذا شعر أنه بحاجة إلى الراحة والاستقرار[٤]. مبتعداً بذلك عن أجواء عكا، الزاخرة بالحركة السكانية الكثيفة، ويصف " براون " الذي زار فلسطين سنة ١٧٩٧، هذا بالقول : " إن أجور السكن والأسعار في صيدا، أقل منها في عكا. وفي ذلك دلالة، على ازدحام السكان في عكا، أكثر منه في صيدا "[٥].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 125 .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٣) بازيلي- سوريا وفلسطين، ص ٧١ ؛ سليمان- مقاومة سياسة، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٤٧.

(٤) كرد علي- خطط، ج٢، ص٣١٣ ؛ رافق- بلاد الشام، ص٣٨٨ ؛ سيار الجميل- تكوين العرب، ص ٢٧٣.

(٥) Macalister, Browns, Taravels, P.E.F Q.S, P. 141 .

كان الجزار يقوم بتطوير ما يحيط بعكا، بتوزيع بعض القرى التابعة لها، على رجاله وأعوانه، على شكل نظام "المالكانة" (الالتزام مدى الحياة) وقد نجح من خلال ذلك، في إعادة توطين هذه القرى، وتطويرها. كما دعم نشاطات عكا البحرية، فطور ميناءها، وجعله من أفضل الموانئ في المنطقة[١].

إن اهتمام الجزار بعكا، أدى إلى التقليل من شأن صيدا، وبقيت الأخيرة خارج دائرة التأثير. فقد استمر الجزار بتوجيه نشاطه نحو عكا، مما جعل الدولة العثمانية، ترسل إليه فرمانات، تدعوه فيها إلى الاهتمام بصيدا، فقد وصل إليه فرمان، في ٢٢- حزيران-١٧٧٩، يصف قلعة صيدا، وما لحقها من خراب. ومثله في بداية سنة ١٧٨٦، يصف كيف أن القلعة خاربة، ويحث الجزار على الاهتمام بصيدا، بسبب خطر إنهيار تحصيناتها[٢].

يبدو أن الجزار، لم يدخل كلمة عكا بإسم الولاية، والسبب، أنه كان يسير بسياسته الإدارية، في ظل سياسة الدولة العثمانية المحافظة، والتي تميل إلى الاحتفاظ بصيغ ثابتة، وإن كان اسم عكا قد ظهر في بعض الأحيان مصادفة. ويوضح " كوهن " هذا بالقول : " إن ورود إسم عكا في أي تعبير، في القرن الثامن عشر، كان ببساطة، نتيجة قصور أي تعبير أخر، وليس سياسة متعمدة، أو إتجاهاً تتبناه الحكومة المركزية "[٣].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 135.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

٤ - إدارة بيروت وصور.

كان من أولى مهام الجزار، عندما أصبح والياً على صيدا السيطرة على بيروت سيطرة مباشرة، وإخراجها من أيدي الشهابيين. وقد تمكن من ذلك سنة ١٧٧٦، بإخراج الأمير يوسف الشهابي منها[١]. لكن شكوى الأمير يوسف، إلى حسن قيصرلي، جعلت الجزار يعيده إلى بيروت، ولكنه عاد في هذه المرة، تحت حكم المتسلم المعين من عكا[٢].

بقي الأمير يوسف، يرسل الشكاوي إلى الدولة العثمانية، لتعيد إليه بيروت تحت حكمه المباشر، إلى أن أرسل الجزار قائد عسكره، لجمع الضريبة من بلاد الشوف، فاضطر الأمير لتقسيم الأموال المطلوبة منه، على الشيوخ والوجهاء في البلاد، لكن آل أبي اللمع، رفضوا الدفع، وقد كانوا يقيمون في بيروت. فقام الأمير يوسف الشهابي، بكتابة صك لقائد عسكر الجزار، يقر فيه، تخليه عن بيروت كلياً للجزار. وبهذا الإجراء، أصبح من العسير على الأمير يوسف، أن يطالب بإعادة إدارة بيروت إليه[٣].

نظم الجزار إدارة بيروت، وأرسل إليها متسلمين من عنده، يقومون بفرض الضرائب على أهلها، ويجمعون الجزية من النصارى فيها، وكان الجزار يقوم بإخراج النصارى منها، ويعيدهم إليها حينما يريد، وذلك كلما شعر أنهم يشكلون خطراً عليه[٤].

أرسل الجزار إلى بيروت متسلماً، يدعى " فارس الدهان " سنة ١٧٩١، حيث قام هذا، بالقبض على الكثير من النصارى في المدينة، ووضعهم في السجن، وزاد عليهم الضريبة، فوصلت شكاوي هؤلاء إلى الجزار، فقام بالقبض على الدهان، وأرسل بدلاً منه " عثمان آغا شاويش " لضبط إدارة بيروت، فأزال بدوره العقوبات عن الأهالي، وأقام العذاب على الدهان، وأخذ منه مئتي (٢٠٠) كيس، وظل الدهان مسجوناً حتى مات[٥].

أما صور، فقد سيطر الجزار عليها سيطرة تامة، لذلك كان يسلمها لأحد أعوانه، وبرفقته مجموعة من الجنود، لضبط إدارتها، وكان الجزار يترك لهذا الشخص، حق تعيين الإداريين، وقادة العسكر، وحق التصرف برواتبهم، دون الرجوع إليه، ويعيد " العورة " السبب في هذا، إلى الاضطراب الذي كان يثيره شيوخ المتاولة[٦].

---

(١) رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٧.

(٢) Cohen, Palestine, P. 126.

(٣) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٢٤.

(٤) المنير- الدر، ص ٤٦٥ ؛ شيخو- بيروت في عهد الشهابيين، المشرق، مج ٢٤، ص ٢٧٢-٢٧٣.

(٥) الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٦٠-١٦١ ؛ العورة- تاريخ ولاية، ص ١٤٥.

(٦) العورة- تاريخ ولاية، ص ١٤٥.

٥ - **إدارة حيفا.**

لم تتطور حيفا في عهد الجزار، وذلك بسبب تطور عكا، فلم يكن من المستطاع تطوير مينائين، قريبين في آن واحد، ولأن ظاهر العمر إختار عكا، ومن بعده الجزار، فقد تراجع دور حيفا نوعاً ما[١].

ذكر كولونيل إنجليزي، بعد زيارته لعكا، يصف حيفا، بأنها قرية حزينة بائسة[٢]. وهذه إشارة إلى أن حيفا، لم تنل الإهتمام الكافي من قبل الجزار، حيث كان إهتمامه يتركز على الناحية العمرانية، خاصة أسوارها، أكثر من الناحية الإدارية[٣].

فقد كانت حيفا إدارياً تتبع لصيدا، ويديرها متسلم بإسم الجزار، وقد اتخذ الجزار خطوة قوية لتطوير حيفا، بأن طلب من الدولة العثمانية حيفا وتوابعها، لتكون له على شكل مالكانة[٤]. حيث كان يعلم بأهميتها الاستراتيجية، والتجارية، مما يعكس لنا ما وصلت إليه من تطور، في نهاية القرن الثامن عشر، الذي جعل ولاة صيدا لا يتركونها أبداً، لكن بمقارنتها بالتطور الذي وصلت إليه عكا، فإن تطورها كان ضئيلاً، وينمو ببطء.

---

(١) ألكس كرمل- تاريخ حيفا، ص ٨١.

(٢) Cohen, Palestine, P. 142.

(٣) ألكس كرمل- تاريخ حيفا، ص ٩١.

(٤) Cohen, Palestine, P. 142

ب - الجهاز الإداري في مركز الولاية.

لقد بدا واضحاً، أن نفوذ السلطة كان أقوى من نفوذ المال، فالسلطة تميزت بأنها تسير وفق آليات مستقلة، عن الثروة، فقد كان يكفي فرمان سلطاني، لتزويد الوالي بنفوذ واسع، في حين أن الثروة، لم تكن قادرة على حماية نفسها، بمعزل عن السلطة. ومثال ذلك الزعامة المحلية، والتي ظهرت في القرن الثامن عشر، إبان حكم الجزار، لكن هذا لا ينفي نفوذ الثروة، التي تمكن الفرد من الوصول إلى مداخل الإدارة والحكم. وما يجب التأكيد عليه هنا، هو العلاقة التبادلية بينهما، والنابعة من حاجة كل منهما إلى الأخرى، وهذه الحاجة تبقى نسبية. وما يهمنا من هذا الحديث، هو الإشارة إلى أن الجزار، قد جمع بين الإثنين.

لم تلجأ الدولة إلى القوة تجاه الجزار، إلا في مرة واحدة، وذلك عندما حاصر يافا سنة ١٨٠٢، لطرد أبي مرق. إلا إنها حققت نفوذها بوسائل أخرى، فأقامت الحكم في ولاياتها، على أساس أن لا تجمع السلطة كلها بيد واحد. كان الوالي على رأس إلهم، لكن الدولة أقامت إلى جانبه موظفين آخرين يقاسمونه السلطة كالقاضي، "والدفتردار"*، واغاوات الانكشارية، والمفتي، والنقيب. هذا بالإضافة إلى أصحاب العصبيات المحلية، الذين أقرت الدولة حكمهم، ويكون ارتباطهم بالباب العالي مباشرة، حيث كان يصدر أمر تعيينهم، وترقيتهم في مناصبهم، من قبله، مثلهم مثل الوالي[١]. ومن الجدير بالذكر، أن دور هؤلاء، كان هامشياً عندما كان الوالي هو الجزار.

١- نظرة في الجهاز الإداري.

لقد أقام الجزار جهازاً إدارياً قوياً، كانت ركيزته المماليك المقربين إليه من فئة الكتاب الذين كانوا يديرون الحكم في الولايات بإسمه، كما استعان بالخبرات اللازمة لإنشاء الجهاز الإداري، الذي يتناسب مع أهدافه.

لقد سيطرت فئة الكتاب الإداريين، الذين برزوا بقوة في عهد الجزار، بنجاح على كامل الجهاز الإداري، واحتكروا أمور الدولة، وأصبحت الكتابة أهم الحرف التي نجحوا فيها[٢].

---

* الدفتر دار : كلمة تركية مكونة من كلمتين، "دفتر" وتعني السجل، "ودار" وتعني حامل فاصبح معناها الموظف المالي الكبير، ويعتبر الشخصية الثانية بعد الوالي في الولاية. أنظر العبد- تاريخ حسن، ص ٦١

[١] عبد الغني- السلطة، ص ١٠١.

[٢] المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

نجح الكتاب في التداخل مع الإدارة التي أقامها الجزار، وهو بدوره، نجح بتنمية ما خلفه ظاهر العمر في عكا. فقام بتوسيع المنطقة التي تشرف عليها صيدا، وأسس نوعاً من العلاقة، بينه وبين كتابه، تقوم على فرض الضرائب. حيث كان الكاتب، هو الذي يدبر هذه العملية[١].

لقد أسس الجزار إدارةً، تملك سجلاتها الخاصة بها والتي لا تخضع لإشراف استانبول المباشر، وقد استعان، كما أسلفت، بخبرات ذات كفاءة لهذا العمل، وقد قلد الجزار أسلافه، في أمور إدارية كثيرة، فكان لديه الكثير من الكتاب، الذين يعملون على ضبط أمور الولاية، وخزنة يقوم عليها رجل يهودي، يطلق عليه "وزير مالية"[٢]. حيث كانت هذه دليل القوة، وسبب الأخطار، للباشوات في آن واحد. كما وجد أيضاً في دائرة الجزار، الكثير من المنجمين، الذين كان يركن إليهم كثيراً في حكمه[٣].

لقد أصبحت عكا، مركز إستقطاب الكتاب، النازحين من مناطق الشام المختلفة. فخلال فترة حكم الجزار، كانت عكا تنمو إدارياً وتعبر عن تحالف العسكر والكتاب معاً. لقد إستخدم الجزار كتاباً ينحدرون من عائلات عديدة، منها : السكروج، والصابونجي والعورة، والبحري، ومشاقة، وغيرها. وتقدم لديه بشكل خاص، اليهودي " حاييم فارحي "* الذي أهلته مواهبه، للإستمرار بالمسؤلية الإدارية، خلال عهد الجزار، وخلفه سليمان باشا العادل، وعبد الله باشا[٤].

---

(١) عبد الغني- السلطة، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ١٣١.

(٣) الزياني- الترجمانة، ص ٢٦٠-٢٦١.

* حاييم فارحي : من أسرة مغربية الأصل، اشتهر منهم إثنان في الشام خلال القرن الثامن عشر، حاييم وأخوه روفائيل، الأول كان أمين خزنة الجزار. مات خنقاً بأمر من عبد الله باشا، خلف سليمان باشا العادل في عكا سنة ١٨٢١، وقد بلغ بيت فاحي شأناً عظيماً، حتى قيل : " للولاة الاسم والأمر، ولبيت فارحي المال والفعل ". أنظر العورة- تاريخ ولاية، ص ٤٥

(٤) بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٣٦.

٢ - كتاب الديوان.

أصبح الكتاب في عهد الجزار، حلفاء لا غنى عنهم، وعن خدماتهم، فمعرفتهم بالسكان والأرض، وخبرتهم في شؤون الإدارة والحكم، جعلت منهم خبراء ضروريين، وشركاء في اتخاذ القرار، ورسم السياسة، إلا أن هذا، لا يعني أن نفوذهم، كان يتجاوز حدود الصلاحيات، التي منحها لهم الجزار، فقد كان يتخلص منهم، إما بالحبس، أو بالقتل، إذا شعر أنهم يشكلون مصدر إزعاج له[١].

كان حبيب بن إبراهيم الصباغ، أول من إستخدمه الجزار في ديوانه، لكن استخدامه له لم يستمر فقد ظل ميخائيل السكروج يوشي به، حتى سجنه الجزار إلى أن مات في السجن[٢]. ثم غضب الجزار على ميخائيل السكروج وأخيه بطرس، القائمين على الإدارة في ديوانه وذلك سنة ١٧٨٧، فأمر بمصادرة جميع أموالهم، وزجهم في السجن، ثم ألقى القبض على العديد من الكتبة، ومتسلمي القرى[٣]. وبقي أبناء سكروج في السجن حتى سنة ١٧٩٠، ثم أعادهما إلى ديوانه، لكنه ما لبث أن قبض عليهما مرة أخرى، متهماً إياهما باختلاس الأموال، وفي هذه المرة قام بقتلهما[٤].

كان هنالك ثمة صداقة متينة بين ميخائيل السكروج، وإبراهيم مشاقة، فلما غضب الجزار على السكروج، وطلب منه المال قبل أن يقتله، أرسل الأخير إلى إبراهيم مشاقة، يطلب منه المال المطلوب منه، فوعده إبراهيم بأن يوفيه ما طلب في وقت قريب، فوقعت رسالة مشاقة بيد الجزار، فأمره بالحضور إلى ديوانه، لكنه مات بالحمى خوفاً من الجزار[٥].

بعد مقتل السكروج، تقدم كل من المعلم إبراهيم أبو قالوش، والمعلم يوسف مارون، للعمل لدى الجزار، وقد كانا ملتزمين لبعض المقاطعات، فقدم الجزار يوسف مارون، على أبي قالوش، واشتدت المنافسة بين الإثنين، حتى أثارت غضب الجزار، فقتل مارون، وفر أبو قالوش، فتقدم المعلم إلياس بن إبراهيم ادة، فقبله الجزار، لكنه ما لبث أن فر إلى جبل الشوف، خوفاً من أن يحل به ما حل بمن سلفه[٦].

---

[١] جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٣٨ ؛ عبد الغني- السلطة، ص ٢٣٢.

[٢] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٣٧.

[٣] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٦.

[٤] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٢١ ؛ باز- مذكرات، ص ٧ ؛ مشاقة- منتخبات، ص ٢٠.

[٥] مشاقة- منتخبات، ص ٢٠-٢١.

[٦] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٨٨ ؛ الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٤٦.

لم يدم فرار أبو قالوش طويلاً من الجزار، فقد قام بعض أعوانه بقتله، وإرسال رأسه إلى الجزار، حيث بقي رأسه معلقاً، أمام مدخل عكا ثلاثة أيام[١].

إن الشخصية الأهم في تشكيل الهيكل الإداري، لولاية صيدا في عهد الجزار هي شخصية حاييم فارحي، فقد لعب دوراً بارزاً في مجال الإدارة، الأمر الذي جعل المؤرخين، يصفونه بعدة أسماء، حيث يقول الشدياق : " حاييم اليهودي كان رئيس كتبة الجزار"[٢]. أما المنير فيقول : " حاييم كان صيرفي الجزار "[٣] ويقول لوكروى : " إنه كان وزير مالية "[٤].

كان للمعلم حاييم، شأن خاص عند الجزار، فكان يعين من يريد، ويعزل من يريد في الجهاز الإداري، ويكرم من يريد من الخزينة دون معارضة، وكان يسند ما يفعله بقوله : " أفندينا يقول كذا، ويأمر بكذا "[٥] ويورد لوكروى وصفاً لرئيس كتاب دائرة الجزار، ويقصد حاييم حيث يقول : " إن هذا الشخص، يقوم على حراسة كنز الجزار، ...، وهو شخص بخيل، وجنونه قائم على جمع الأموال، وهو الذي يدفع للحرب، ويحض على إجراء المذابح، ...، وهو الذي يبدي النصائح للباشا، ويستطيع أن ينزع منه الشراهة، والشهوة للمال "[٦].

إن تجربة عكا، رفعت من شأن مهنة الكاتب ودوره، فقد تحول من مجرد محاسب أو صراف، إلى منفّذ أو شريك في الرأي، الذي لا غنى عنه، والمختص بإدارة العلاقات الخارجية، خاصة مع العاصمة، مما أهله لدور محوري، في الهيئة الحاكمة في الولاية، لكنه كان أسير المعطيات السياسية والاقتصادية المحلية، والتي كانت عرضة لتجاذب شديد من حكام الولايات، ومراكز القوى فيها.

نستنتج مما سبق، أن الجزار اعتمد في الأساس، على النصارى واليهود في إدارة الولاية، فقد بدأ باستخدام النصارى، ومنهم حبيب بن إبراهيم الصباغ وإبراهيم أبو قالوش، وميخائيل السكروج، وإلياس ادة، ويوسف مارون. أما اليهود، فأشتهر منهم حاييم فارحي.

---

[١] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١٠١.

[٢] الشدياق- أخبار، ج ٢، ص ٣٨١.

[٣] المنير- الدر، ص ٥٠٢.

[٤] لوكروى- الجزار، ص ١٣١.

[٥] العورة- تاريخ ولاية، ص ٣٩٧.

[٦] لوكروى- الجزار، ص ١٣١-١٣٢.

٣ - أعوان الجزار في الحكم.

كان اعتماد الجزار الرئيس في إدارة ولايته، وتدبر أموره، على مملوكه سليم الأول، الذي أتى به من مصر، وجعله كاهية له، وجلب له رتبة الوزارة، مع لقب باشا. إلا انه مات سنة ١٧٨٤، فحزن عليه الجزار حزناً عميقاً، فأرسل له إبراهيم بك (متولي مصر) مملوكين كرجيين، عوضاً عنه، فدعى الأول بسليم الصغير، لشدة مشابهته بسليم الأول، وجلب له من الدولة رتبة الوزارة، مع لقب باشا، وجعله كاهية له في عكا. ودعى الثاني بسليمان، لقرب مشابهته بسليم الصغير، وجلب له رتبة الوزارة، مع لقب باشا، وجعله متسلماً لمدينة صور، كما عينه على ولاية طرابلس عندما آلت إليه. واستمر الإثنان في خدمة الجزار، إلى أن قادا ثورة المماليك، سنة ١٧٨٩. فهاجر سليم باشا إلى استانبول، ومات فيها، أما سليمان باشا، فقد عاد إلى الجزار، واعتذر عما بدر منه، فأعاده الجزار إلى عمله السابق[١].

كان لدى الجزار طائفة من الأكراد، دعوه بمجدد الوقت، وكان رئيسهم يدعى " الشيخ طه " الذي قتل بعد موت الجزار، وقد كان لهذا إلمام ببعض العلوم، حاول من خلالها إقناع الجزار، بأنه المهدي المنتظر، وذلك بالتلاعب في الأوراق والأسفار القديمة[٢].

وعندما كان الجزار أميراً على قافلة الحج، سنة ١٧٩١، التقى بأبي بكر الزياني، وحاول إقناعه بأنه هو المهدي المنتظر فعلاً[٣]. وظلت هذه الفكرة تراود الجزار حتى مات. وما يهمنا مما سبق، أن الشيخ طه وجماعته، كان لهم مكانة مرموقة في الجهاز الإداري الذي أنشأه الجزار. ويدل على ذلك، قدرتهم على إيصاله لفكرة أنه هو المهدي المنتظر، إضافة إلى أنهم كانوا في بعض الأحيان، يلعبون دور الوسيط بين الجزار وملتزميه.

كانت إدارة الجزار ترتكز على القوة والمعاقبة، لذا ركز على الإهتمام بالسجون وإدارتها، فكانت شخصية وكيل السجن، من الشخصيات التي لها وقع في الجهاز الإداري، فهو الشخص الذي يوكل إليه الجزار أمور الحبس والتعذيب والتمثيل، وتنفيذ جميع العقوبات التي يقرها، فلا يجد أي معارضة، ومن الوكلاء الذين برزوا في إدارة السجون لدى الجزار هو " نانو آغا"[٤]

---

[١] العورة- تاريخ ولاية، ص ٢٤٨ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص٢١٢ ؛ مانتران- تاريخ الدولة، ج١، ص ٥٧٨.

[٢] البيطار- حلية البشر، ص١٢٩-١٣٠ ؛ الجبرتي- تاريخ عجائب، ج ٣، ص ٥٠.

[٣] الزياني- الترجمانة، ص ٢٦٣-٢٦٤.

[٤] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٩٥ ، العورة- تاريخ ولاية، ص ٢٣-٢٤.

ج - إدارة ولاية الشام وملحقاتها.

١- إدارة دمشق.

جرت العادة، أن يمد ولاة دمشق نفوذهم، إلى ولايتي صيدا وطرابلس. لكن عندما كان الجزار والياً على صيدا، حدث العكس، إذ أصبح هو الذي يمد نفوذه، إلى دمشق، وغيرها من المناطق.

استطاع الجزار أن يثبت موهبته في شتى النواحي في ولاية صيدا، ففي سنة ١٧٨٥، ساد الاقتناع من الدولة العثمانية، بقوة الجزار العسكرية والاقتصادية والإدارية وأنه أحد الولاة القلائل القادرين على الإعتماد على أنفسهم في تمويل وقيادة قافلة الحج بنجاح. فصدر فرمان في السنة نفسها بتولية الجزار على الشام، وتعيين إثنين من مماليكه تحت حكمه، وهم سليمان باشا على طرابلس، وسليم باشا على صيدا[١].

تم عزل الجزار عن ولاية الشام بصورة سريعة، ويذكر ذلك " الدمشقي " بقوله : " ... راح على الجزار شكايات للدولة من أهل الشام، وحضر أمر بعزله "[٢]. فقد قام خليل أفندي المرادي*، بتقديم الشكاوي للدولة العثمانية بحق الجزار، ونظراً لما يتمتع به هذا الرجل من إحترام وتقدير من قبل الدولة، نظرت في شكواه، وعزلت الجزار عن ولاية الشام[٣].

عين الجزار بعد ذلك ثلاث مرات، والياً على دمشق، وكان ذلك في سنة ١٧٩٠ وحتى سنة ١٧٩٥، ومن ١٧٩٨ إلى ١٧٩٩، والمرة الأخيرة كانت من سنة ١٨٠٣ إلى ١٨٠٤. واستطاع الجزار أثناء حكمه في هذه الفترات، أن يدير الشام وتوابعها، بشكل قوي، فعندما ولي الجزار في المرة الثانية، كان حاقداً على أعيان دمشق، ومصراً على الإنتقام منهم[٤]. فأرسل متسلماً من عنده، وبقي في عكا، ويعكس لنا الدمشقي، القسوة التي عامل بها المتسلم أهل دمشق، بأمر من الجزار بالقول : " ثاني يوم من ولاية الجزار، أمات مائة وستين نفراً في القلعة ... منهم مقدمون، وخدم، ومماليك، وعسكر، وغيرهم من أهالي الشام[٥].

---

[١] العبد- تاريخ حسن، ص ٥ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٠٨ ؛ الفقيه- جبل عامل، ص ٢٧٥.

[٢] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٥٤.

* هو محمد خليل أبو المودة السيد محمد مراد، المعروف بالمرادي الحنفي الدمشقي، فقيه الشام، اضطهد في عهد الجزار فترك دمشق إلى حلب، وبقي فيها حتى وفاته، وله عدة مؤلفات منها : "سلك الدرر في أعيان القرن الثالث عشر". أنظر العبد- تاريخ حسن، ص ١٩.

[٣] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٥٤ ؛ الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٤٠٥.

[٤] العبد- تاريخ حسن، ص ٢٢-٢٣.

[٥] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٥٥-٥٦.

أثناء تسلم الجزار لولاية الشام، عمل على القضاء على القيادات، المتنفذة فيها، فقد سعى إلى إضعاف جميع القوى المحلية، وركز جهده في القضاء، على جماعة آل العظم، حتى أنه بدأ بهم. فقد مات " على بن محمد باشا العظم " بالسم، بعد لقائه مع متسلم الجزار في دمشق. كما قتل المفتي " عبد الرحمن المرادي " من قبل المتسلم نفسه[١]. لذا نستطيع القول، أن الجزار كان يعمل جاهداً، للتخلص من جميع المنافسين له، في إدارة شؤون الشام وتوابعها، بغض النظر عن الطريقة التي يتبعها. لكنه في الوقت نفسه، كان حريصاً خاصة عندما يتولى الشام، على أن يظهر بصورة الوالي القادر على إدارتها، دون الحاجة إلى تدخل الدولة في شؤونها الداخلية. فعندما أقدم الجزار على الإيعاز إلى متسلمه، بقتل علي العظم، ومفتي دمشق، لم يصدر أمراً ممهوراً بختمه، تداركاً منه أن لا يثبت عليه شيء، واتهم متسلمه في دمشق بالقيام بهذه الأفعال دون علمه[٢]. وعندما أرسلت الدولة رسولاً، للتحقيق في موت المفتي، أجابه الجزار : " أن أهل الشام عندهم بغضة، ورداوه في بعضهم، ولا يقدرون العواقب، وأن هذا (المتسلم) بينه وبين المفتي عداوة، فلما صار له فرصة قتله "[٣].

إن جميع التبريرات، التي كان الجزار يقدمها، تدل على حرصه على تبرير أفعاله، حين تتخطى الصلاحيات الممنوحة له.

٢ - تنظيم قافلة الحج.

كان من مهام والي الشام، القيام بقيادة قافلة الحج الشامي. حيث يتوافد إليها الحجاج من آسيا الصغرى، وبلاد فارس، وآسيا الوسطى، والعراق، والولايات الأخرى القريبة. وكانت هذه العملية تكلف الولاية مبالغ ضخمة تستهلك من خزينتها، بالإضافة إلى جزء من خزينتي، ولاية صيدا وولاية طرابلس[٤]. وكان الجزار يتعهد للدولة، بأنه على إستعداد تام للإنفاق على قافلة الحج، ذهاباً وإياباً، من إيرادات ولايته، دون الأخذ من خزينة الدولة، فكان هذا أحد الأسباب، التي دفعت الدولة إلى توليته الشام[٥].

---

[١] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٥٦-٥٨ ؛ العبد- تاريخ حسن، ص ٢٣ ؛
يزبك- ابن العظم، أوراق لبنانية، ع ٣، ص ١٠٩-١١٠.

[٢] بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ٢، ص ١٠٤.

[٣] المصدر نفسه، مج ٢، ص ١٠٤.

[٤] سليمان- ولاية صيدا، تاريخ العرب والعالم، ع ١٧، ص ٤٤. Cohen, Palestine, P. 66.

[٥] عبد الغني- السلطة، ص ٢٧٥. Cohen, Palestine, P. 66.

كانت قيادة قافلة الحج، بالنسبة للولاة، شرفاً كبيراً، إذ يحمل ألقاباً عدة، ومنها " شام شريف، وباب الكعبة، وبستان الجنة "[١].

كان السبب في تعيين الجزار، والياً على دمشق، كما أسلفت، قوته الإقتصادية والعسكرية والإدارية، وأنه القادر على تنظيم قافلة الحج، إلا أن الباب العالي، كان حريصاً على أن لا يسمح للجزار، بالتعمق في دمشق، ويشير " كوهن Cohen " إلى هذا بالقول : " بقي الباب العالي محتفظاً بسياسته العامة، بعدم السماح لأي وال إقليمي أن يبقى طويلاً، بما فيه الكفاية في أي مكان، خاصة دمشق، ليؤسس لنفسه تهديداً كاملاً للحكومة المركزية "[٢]. لذلك عملت الدولة على تعيين الجزار، والياً على دمشق، لفترات متفاوته، حتى تستطيع السيطرة على الولاية. وهنا يمكن القول أن التنظيم الإداري، الذي كان قائماً في دمشق، أثناء حكم الجزار، كان يتغير بتغيره. إضافة إلى أن تعيين الجزار، كان يتم وفقاً لمعايير تتبعها الدولة، ومنها الحاجة إلى قوة الجزار الإقتصادية والعسكرية. ومثالها عندما عين الجزار سنة ١٧٩٨، والياً على دمشق[٣]، بهدف إشراكه، في صد الحملة الفرنسية على المنطقة، حيث قامت بعزله بعد طردهم.

---

[١] عبد الغني- السلطة، ص ٢٧٥.

[٢] Cohen, Palestine, P. 69.

[٣] سجل محكمة نابلس- رقم ٦، ص ٣٨ ؛ نوفل- كشف اللثام، ص ٢٢٤.

٣ - إدارة ملحقات ولاية الشام.

بالنسبة لإدارة ملحقات ولاية الشام، فقد كان الجزار، يعين متسلميه فيها، من المنطقة نفسها، وذلك لقلة خبرته، ودرايته بالمنطقة، فهي تختلف عن ولاية صيدا، والتي بقي يديرها، منذ تولاها وحتى مات، وإن كان في بعض الأحيان، يتبع السياسة الإدارية نفسها، في تنظيم ولاية صيدا.

كان هم الجزار الأول، هو جمع الأموال الضريبية من المنطقة، لذلك ارتأى تعيين ملتزمين من أبناء المناطق التي يعينون عليها، لأنهم الأخبر في إدارة شؤنها، ومثال ذلك، تسليمه الحكم في نابلس، لمحمد بك طوقان، وهو أحد الوجهاء، في المدينة، كما أسند حكم طرابلس، إلى مصطفى آغا بربر[١].

لم نجد تطوراً إدارياً كبيراً في دمشق، أثناء حكم الجزار لها، وذلك لقصر الفترة الزمنية، التي كان الجزار يتولاها فيها.

كانت بعض المناطق، تتبع اسمياً وإدارياً لولاية دمشق، لكنها في الوقت نفسه، بعيدة عن سيطرة واليها، وأقرب إلى سلطة والي صيدا، المتمثلة بالجزار، حيث يصدر فرمان من الدولة، في نهاية سنة ١٧٧٩، يشير إلى تأثير الجزار، على إدارة مدينة يافا، أكثر من تأثير والي دمشق. والمثال نفسه، في كل من سناجق غزة، والرملة، والقدس[٢].

كان الوضع الإداري في يافا مشابهاً للوضع الإداري، في القرى التابعة لعكا، لكن في السنوات الأخيرة من حكم الجزار، على ولاية الشام، فإن هذا الوضع قد تحسن، وزاد المال الميري المفروض عليها[٣]. كما أن عدد السكان ارتفع تدريجياً، سنة ١٧٩٨، فقد وصل إلى ستة آلاف (٦٠٠٠) نسمة، وفي السنة التالية، وصل العدد إلى سبعة آلاف (٧٠٠٠) نسمة[٤]. وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على الإستقرار النفسي لسكان المدينة، مما شجع على تطور الإدارة فيها، شيئاً فشيئاً.

كان الجزار يعمل على بث روح الإستقرار في المدينة، عندما يتسلمها، فيصدر الفرمانات لمتسلميه على يافا، بأن يكونوا عادلين في حكمهم للناس، منصفين لهم، لذلك

---

(١) الخوري- مصطفى آغا، ص٧٦ ؛ النمر- تاريخ جبل نابلس، ج١، ص١٥٩؛ عبد الغني- السلطة، ص ٩٥.

(٢) Cohen, Palestine, P. 149.

(٣) Volney, Travels,II,P.344.

(٤) Macalister, Browns, Taravels, P.E.F.Q.S, P. 141.

كان الناس في المدينة، يقيمون الإحتفالات، عندما تتبع مدينتهم لحكم الجزار، وترد إشارات في سجلات محكمة يافا، إلى أن الجزار كان يأمر متسلمه في يافا عندما تتبع لحكمه، بأن يقيم الإحتفالات بهذه المناسبة(١).

كان هنالك صراع بين الجزار، ووالي دمشق على ميناء يافا، إلى أن استطاع الجزار السيطرة عليه سنة ١٧٨٢، لذلك ركز على الإهتمام بطبقة التجار الذين يرتادون المدينة، وذلك من شأنه إنعاش كل من المدينة ومينائها(٢).

أما في سنجق القدس، فقد كانت الأوضاع الإدارية، مختلفة نوعاً ما، فقد كانت تعاني من هجمات البدو المتكررة عليها، كما كان سكان المدينة، يقومون بطرد المتسلم الذي لا يعجبهم(٣). لكن عندما تسلم الجزار حكم ولاية دمشق، وأصبح مسؤولاً عن سنجق القدس، لم تقم أي محاولة جدية من قبل البدو، لإزعاج سلطته في المدينة، والمناطق المجاورة، كما أقصى الجزار القادة المحليين، المسببين للقلاقل، وطرد الحكام العثمانيين، المدعومين بقوة عسكرية، إلى مناطق أخرى(٤)، فتمكن بذلك، وبفترة وجيزة، من استعادة الأمن في المدينة. لكن عندما كانت الدولة تعزل الجزار عن الشام، فإن الوضع يعود إلى ما كان عليه في السابق. ويشير " براون " إلى ذلك بالقول : " إن حاكم القدس لا يمتلك أي قوة حقيقية، أو ضبط فعال للسنجق، لأي هدف أو لأي غرض، حيث كان بيد البدو "(٥). وكان هذا سنة ١٧٩٧، أي بعد نهاية ولايته الثانية بسنة واحدة.

كان الجزار يسعى إلى نيل رضى الدولة العثمانية، أثناء حكمه لسنجق القدس، فيدعو متسلميه إلى إقامة دين الله الحنيف، ويأمر الناس بإطاعة الحكام، والإبتعاد عن الفتن والثورات، التي قد تزعزع الأمن في المدينة(٦).

كان تدخل الجزار في نابلس قليلاً، إذا ما قورن بالسناجق الأخرى الساحلية. لذلك فإن الإجراءات الإدارية، المتخذة في نابلس من قبل الجزار، كانت شبه معدومة، مقارنة بالسناجق الأخرى.

---

(١) سجل محكمة يافا- رقم ٢، ص ٦١-٦٦.

(٢) المصدر نفسه، رقم ٢، ص ٥٨.

(٣) Cohen, Palestine, P. 170.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٧١.

(٥) Macalister, Browns, Taravels, P.E.F.Q.S, P. P. 141-142.

(٦) سجل محكمة القدس- رقم ٢٨٠-ص١١٨؛ سجل رقم ٢٨٣، ص١٦٥؛ سجل رقم ٢٨٦، ص ٢٤،٣٣،٦٩.

كان الجزار يعمل على كسب مؤيدين له، في الفترة الزمنية البسيطة، التي يتولى فيها الشام، ليكونوا عوناً له في علاقته بوالي دمشق في الأوقات اللاحقة. لذلك كانت تدخلاته الإدارية بشؤون المناطق التابعة لولاية الشام تكاد لا تتعدى، تسليمها لذوي الخبرة من أبنائها[١]. لكن هذا لا يعني، أن إيرادات المال الميري لهذه المناطق، لم تكن تورد بالكامل لخزينة الجزار، حيث كانت قادرة، على تزويد الخزينة بما هو مطلوب منها، ويشير " كوهن "، إلى أن وضع نابلس الإقتصادي، كان جيداً كما هو الوضع في جبل الشوف، إلا أن الفرق، يكمن في أن الأخير، كان دائماً تحت يد الجزار[٢].

كان سنجق عجلون واللجون، جزءاً من ولاية دمشق، بعد أن كانت عجلون، تشكل في القرن السابع عشر، سنجقاً منفرداً، ويعتبر هذا السنجق الوحيد من سناجق فلسطين، الذي يشمل أراضي شرقي نهر الأردن. وبالرغم أن المركز الإداري لسنجق عجلون واللجون، يقع في منطقة جنين، إلا أن السيطرة الداخلية في السنجق، لا سيما في جبل عجلون، كانت لقبائل البدو[٣]. لكن بعد الإجراءات التي اتخذها الجزار ضد البدو، تحددت سيطرتهم في المنطقة بشكل كبير.

كان الإهتمام بهذه المنطقة، أقل من المناطق الأخرى، التي خضعت للجزار. وإن صح القول، فإن السبب يعود إلى بعدها، نوعا ما، عن المركز الإداري للحكم. كما أن هذه المنطقة، لم تتأثر بالتطورات الإقتصادية، التي كانت تحدث في المناطق الأخرى التابعة لحكم الجزار[٤]. لكن هذا لا ينفي، أن الإزدهار الذي رافق حكم الجزار، في ولايته للشام، ومن قبلها صيدا، قد أثر إيجابياً في اللجون وعجلون[٥].

كان الوضع الإداري في عجلون واللجون، لا يختلف عنه في السناجق الأخرى، التابعة لولاية الشام، فقد عمد الجزار، إلى توليتها لمتسلمين من أهلها، ومثال ذلك إعطاء " موسى العمري " من قرية مرو التابعة لسنجق عجلون، حق التصرف بالمال الميري للقرية، وسائر المطلوب منها، وتخصيص مبلغ مائة وثمانين (١٨٠) ليرة، لإبراهيم الزعبي، وذريته من بعده[٦].

---

(١) النمر - تاريخ جبل نابلس، ج ١، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) Cohen, Palestine, P. P. 168-169.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٦) فريدريك ج بك- تاريخ شرق الأردن، ص ٣٠٢، ٣٠٩-٣١٠.

ثانيا: التنظيم العسكري.

أدرك الجزار أهمية وجود جيش قوي، يدعم مركزه في حكمه، ويمكنه من فرض النظام والقانون في مناطق ولايته، ويحمي المناطق التابعة له من أي هجمات تقوم بها القوى السياسية المحيطة به، فعمل على إيجاد جيش قوي، مدرب، ومسلح بشكل جيد.

كانت الدولة العثمانية، تضع حاميات من الجنود في قلاع المدن، يدينون بالولاء للدولة مباشرة. فكان عدد جنود حامية قلعة صيدا، خمسين (٥٠) رجلاً تقريباً، في بداية القرن الثامن عشر. وبقي العدد نفسه، حتى عام ١٧٨٩. كما كان عدد الجنود في عكا، يقارب العشرين (٢٠) رجلاً[١]، إلا أن هذا، لا يعني أن الجزار اكتفى بهذا العدد، ولا بما وجده من تحصينات.

أ- العناصر الأساسية لقوة الجزار.

انقسمت القوى التي اعتمد عليها الجزار إلى قسمين هما القوات المحلية والقوات المرتزقة.

١ - القوات المحلية.

أوجد الجزار نظاماً دفاعياً داخلياً، وذلك بإنشاء الحصون، داخل المناطق التابعة لحكمه. فعمل على تطويرها في المناطق الساحلية، لكنه ركز إهتمامه على المناطق الداخلية. ووضع في القلاع وحدات عسكرية دائمة، بالإضافة إلى القوة المرسلة من قبل الدولة، حيث كانت هذه الوحدات، مكونة من جنود محليين تم تجنيدهم في إطار مشابه لتجنيد الإنكشارية. وكانوا يعرفون باسم (اليرلية) وسموا أيضاً بـ (محافظي القلاع)، أي المدافعين عنها[٢]. ولم تقتصر مهمة هؤلاء، في الدفاع عن القلاع فحسب، بل كان الجزار يستخدمهم، ويلحقهم ببقية الجيش، في الأوقات الصعبة. وبعد المعركة، كان يعيدهم إلى حامياتهم العسكرية السابقة[٣].

كانت هذه القوات تتكون من بيادق، (والبيدق عشرة رجال) وتقسم على القلاع في المناطق المختلفة، التي كان الجيش العامل (النظامي) يتمركز فيها. وقد إستخدم الجزار حوالي ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) جندي، في إطار الوحدات المحلية، نصفهم كان يتمركز في المدن الساحلية، أو بالقرب منها، والنصف الآخر في المناطق الجبلية، الموجودة خلف الساحل[٤].

---

(١) Heyd, Ottoman Documents, P. P 190-191.

(٢) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ١١٧.

(٣) Volney, Travels, II, P. 288 . Cohen, Palestine, P. 288.

(٤) Volney, Travels, II, P. 288.

كان الجزار يعمل على إيجاد القوة الداخلية، للحفاظ على الأمن في مناطقه، وكان يعمل على تبديل مواقع الجنود، من قلعة إلى أخرى، سعياً منه لإيجاد التوازن بينهم، وتجنباً للفتن الداخلية. كما أوجد أيضاً، بعض قوات المرتزقة، ليكونوا إلى جانب، الوحدات المحلية، حيث يقول " كوهن " : " إستخدم الجزار قواته المرتزقة، في حامياته العسكرية، ولكن تقبله لذلك، كان قليلاً "[١]

٢ - القوات المرتزقة وأقسامها.

بدأت تجربة الجزار مع الجنود المرتزقة، قبل وصوله إلى السلطة، وعندما عين والياً على عكا، سنة ١٧٧٥، كان قد جمع عدداً لا بأس به منهم. وأول مصدر للتجنيد، كان الجنود المبعثرين في كل سوريا، من بقايا جيش ظاهر العمر، الذين عرضوا خدماتهم على الحكام المحليين، فشكلوا مع بعض الفرسان الذين جندهم الجزار، نواة قوية، إستخدمها الجزار في الصدامات الأولى مع الدروز، والإستيلاء على بيروت[٢].

إن ارتباط قادة العساكر المحلية بالباب العالي، كان يشكل عقبة أمام الولاة الطامحين، أمثال الجزار، لتعزيز مكاناتهم، ولا يتيح لهم تشكيل "مركز قوة" داخل الولاية. لذلك تجنب الجزار، منذ البداية، الإعتماد على هؤلاء القادة وجنودهم. فسعى إلى تعزيز قواته الخاصة، التي تتيح له أكبر قدر ممكن من النفوذ، والقدرة على استيعاب وتحجيم، مراكز القوى العسكرية داخل الولاية. لذلك لم يكن الجزار يعتمد على القوات المحلية، التي وجدها عندما تسلم حكم ولاية صيدا، فكان يقوم بمراسلة الباب العالي، ويشكو إليه هذه القوات، بأنها تقوم بدعم البدو، حيث أنهم من جنس واحد، وأنهم عديمو الفائدة، في أوقات الحاجة إليهم[٣]، وبذلك بدأ باستقدام الجنود، وأولى اهتمامه إلى الذين يئسوا من الحياة، ولاّ هم لهم إلا الحصول على المال. ويعكس " لوكروى " صورة لهذا بالقول : " استقدم الجزار اللصوص، أو المحكوم عليهم بالموت، في كل البلاد والبلاد المجاورة، وجعل منهم جيشاً له "[٤].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 289.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٨٣.

(٣) بازيلي- سوريا، ص ٧٠ . Cohen, Palestine, P. 281.

(٤) لوكروى- الجزار، ص ١٢٠.

يمكن تقسم الوحدات المرتزقة التي وجدت عند الجزار إلى ما يلي :

- المغاربة :-

كان المصدر الرئيس، لتجنيد وحدات المرتزقة في سوريا وفلسطين، هو شمال إفريقيا، وهم الذين جاءوا إلى المنطقة لبيع خدماتهم، للشخص الذي يدفع لهم أكثر، وعرفوا بالمغاربة[١]، نسبة إلى المغرب، التي كانت تضم (طرابلس وتونس، والجزائر، ومراكش). ويعود وجودهم في بلاد الشام، إلى الفترة السابقة للحكم العثماني، وكانوا جنود نظاميين محترفين، مثلهم مثل السكان الأصليين للبلاد وحاربوا ضد الصليبيين، والتتار، كما استمر استخدامهم في بلاد الشام، في العهد العثماني، وازداد الإعتماد عليهم، في القرن الثامن عشر، من قبل الولاة، نظرا لضعف انكشارية الدولة. وقد عمل هؤلاء جنودا مشاة، بصورة عامة، وقلة منهم فرسانا[٢].

استمر الجنود المرتزقة، يشكلون القوة الرئيسة في جيش الجزار، طوال فترة حكمه. وكان المغاربة، هم أكبر الوحدات العسكرية فيه. لذلك كانت معظم المصادر، لا تركز كثيرا على الوحدات العسكرية الأخرى من غير المرتزقة في جيش الجزار، وكان المغاربة، هم الأكثر ذكرا، وذلك لكثرة عددهم، ويصفهم " لوكروى " : " كان الجنود المغاربة المرتزقة، الوحيدين الذين يحاربون على أقدامهم، ولا ينقصهم للمحاربة على الطريقة الشرقية إلا الخيالة، لتنقض على العدو فجأة، أو تنهزم من أمامه، إذا بدا أنه أقوى منها، أو تخيفه قبل المعركة بسرعة عدوها "[٣].

- الدالاتية* :-

هم وحدة من الجنود المرتزقة، وهم من الفرسان. ينحدرون من أصول شتى، لكن غالبيتهم من الأتراك، والأكراد[٤]، وقد اعتمد عليهم الجزار كثيرا في حروبه التي خاضها، وأضاف إلى هؤلاء، طائفة اللاوند الأكراد الأصل، وقد كانوا يشكلون إحدى الطوائف المشهورة من العساكر العثمانية، فصدر فرمان من السلطان، بإبطال هذه الطائفة، وإزالتها من الخدمة الملوكية، وكان عددهم ستة عشر ألفا (١٦٠٠٠) تقريبا، فتفرقوا في البلدان، وتشتت شملهم، ولم يبق منهم سوى ألف (١٠٠٠) خيال تقريبا، التحق جزء منهم بخدمة محمد باشا العظم،

---

[١] جب وبوون- المجمع الإسلامي، ج ٢، ص ٣٠ ؛ رافق- بحوث، ص ١٤٢-١٤٣ ؛ سيار الجميل- تكوين العرب، ص ٢٧٣.

[٢] رافق- بلاد الشام، ص ٣٨٩ ؛ لوكروى- الجزار، ص ٣٦-٣٨.

[٣] لوكروى- الجزار، ص ٣٦.

* مفردها دلاتي، مشتقة من الكلمة التركية (Deli) وتعني الأهوج أو الطائش بسبب إندفاعه. (أنظر رافق-بحوث،ص ٧٧)

[٤] البديري- حوادث دمشق، ص ٨٧،٩٦.

والي دمشق، والجزء الآخر لخدمة الجزار[١]. وكان هؤلاء مقاتلين أشداء، وذوي كفاءة قتالية عالية، خاصة في المناطق الجبلية، التي كان يصعب على المغاربة الوصول إليها. وترد إشارة عند الشهابي، يصف فيها بإعجاب، كيف تخلص اللاوند من كمين نصبه لهم مشايخ " أبي نكد " في منطقة السعديات بالقرب من صيدا، حيث يصف مقدرتهم على القتال، بقوله : " حملوا بخيولهم حملة واحدة، ولم تعقهم تلك الصخور والمضيقات، عن الوصول إليهم، فأدركوهم مثل السلاهب، وأذاقوهم شر المعاطب، حتى مزقوهم، وقتلوا أكثرهم "[٢]. كما اتصف اللاوند الأكراد بالخشونة، لذلك قدّمهم الجزار، على غيرهم من الوحدات العسكرية، لإدارة سجونه[٣].

- **الألبان (الأرناؤوط) :-**

هذه الوحدة أسسها الجزار، وذلك بإرسال السفن والتجار إلى البندقية، لتجنيد الألبان. واعتمد عليهم الجزار كثيراً في حروبه. وكانت هذه الوحدة، تحوي في صفوفها مشاة وفرساناً في الوقت نفسه[٤]. ويصفهم " لوكروى "، بأنهم أفضل جيش الجزار[٥].

- **الكفاسة :-**

وهم بوسنيو الأصل، ويعرفون بالقبسيس، وقد جلبهم الجزار من البوسنة، موطنه الأصلي، ليكونوا عوناً له، وقد أولاهم اهتماماً خاصاً، حيث سلحهم بالبنادق، وجعل منهم حرساً خاصاً به[٦].

يمكن القول أن الوحدات المذكورة سابقاً، كانت تؤلف الوحدات الرئيسة، ذات العدد الأكبر من جيش الجزار. كما أوجد الجزار إلى جانب هذه الوحدات، قوات أخرى أقل عدداً، وهي:

- **التفنكجية * :**

---

(١) الشهابي- لبنان، ج١، ص ١١٨-١١٩؛ الفاكياني- الحياة العسكرية، تاريخ العرب والعالم، ع٣٤، ص ٩٥.

(٢) الشهابي- لبنان، ج ١ ص ١١٩.

(٣) الشطي- أعيان دمشق، ص ٤١.

(٤) Rafeq, The Province, P. 40

(٥) لوكروى- تاريخ الجزار، ص ١٤٠.

(٦) Cohen, Palestine, P. 284.

* التفنكجية : مشتقة من كلمة (التفنك) أي البارود، وتعني حملة البنادق (أنظر عبد الغني- السلطة، ص ١١٧).

ينحدر هؤلاء من أصول عراقية، فمنهم من كان من بغداد، ومنهم من كان من الموصل، وكركوك. وقد عرفوا بجنود البنادق، ومعظمهم من المشاة. كان الجزار غالبا يستعين بهم عندما يتولى الشام، فيجعل منهم قوات أمن داخل دمشق. وكانوا عموماً، الأكثر انضباطاً، وأقل تمرداً بين قوات الجزار، وفي الوقت نفسه، كانوا أقل أهمية منها[١].

- **الهوارة :**

قدم هؤلاء من مصر، حيث قام أحد مشايخ الصعيد، بتقديمهم على سبيل الهدية للجزار، فأطلق عليهم الجزار هذا الإسم، تشبيهاً لهم بمجموعة من الفرسان الأقوياء، كان قد عرفهم عندما كان في مصر، وكانوا يحملون الإسم نفسه[٢].

- **السكبان* :**

لعب هؤلاء دوراً هاماً في القرن السادس عشر، فعاد الجزار في نهاية القرن الثامن عشر، وأولى عنايته بهم، بحيث أصبحوا يشكلون قسماً مهماً من قواته، وقد اشتركت هذه القوة، في الشغب العسكري، الذي حدث عقب وفاة الجزار، سنة ١٨٠٤، حيث قام البرلية بشبه ثورة ضدهم[٣].

- **الأفغان :**

كان عدد هؤلاء مائتي (٢٠٠) جندي، في جيش الجزار، وكانت مهمتهم، تقتصر على تزويد حامية طبريا بالجند[٤].

- **السردلة :**

اقتصرت مهمة هؤلاء، على الحفاظ على الأمن الداخلي لبلاد بشارة، وذلك للإيقاع بالطياح، الذين تشكلوا من المتاولة[٥].

---

(١) ابن الصديق- غرائب البدائع، ص٦٢-٦٣ ؛ الفاكياني- الحياة العسكرية، تاريخ العرب والعالم، ع٣٤، ص٩٥

(٢) العورة- تاريخ ولاية، ص ٢٢٣ ؛ أسعد منصور- تاريخ الناصرة، ص ٥٦.

* السكبان : أصلها فارسي تتألف من مقطعين (سك) وتعني كلب و(بان) وتعني حارس. وهم يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال (أنظر عبد الغني- السلطة، ص ١١٦).

(٣) بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٦٢ ؛ العبد- تاريخ حسن، ص ١٠٩-١١١.

(٤) Burckhardt, Travels, P.P. 321-322.

(٥) العورة- تاريخ ولاية، ص ٣٤.

ب- الوحدات العسكرية.

سعى الجزار إلى الاحتفاظ بشخصية كل وحدة عسكرية، داخل صفوف جيشه، وذلك بأن جعل أسماء بعض الوحدات، تشير إلى الأصل المشترك للجنود، كما عمل أيضا، على أن يكـــون لكل وحدة عسكرية، لباسها الخاص بها. والذي يميزها عن غيرها[١]. فكان المغاربـــة، يلبســـون قمصان خشنة مخططة، لونها أزرق، وزنارها أحمر، ويرتدون على رؤسهم الحليقـــة عمامـــات، ويحمل بعضهم بنادق طويلة على أكتافهم، وبعضهم قرابينات (مسدسات)، والبعض الآخر يحمل طبنجات (بنادق صغيرة) وتنتشر بين خيولهم جياد شقراء، جلبت من شمال إفريقيا[٢]. كما كان للأرناؤوط لباس خاص بهم، فقد كانوا يلبسون الطرابيش الحمر القرمزية، والصدريات الزرقـــاء المطرزة بالذهب، وسراويلهم عريضة، وخناجرهم على أوساطهم[٣]. وهكذا كان الحال لكل وحدة عسكرية، تخدم في كنف الجزار. ومما يجدر بنا ذكره، أن أشكال الجنود، كانت مختلفة، وذلـــك لإنتمائهم إلى عروق مختلفة. وهكذا فإن الشخصية المنفردة لكل وحدة، تم الاحتفاظ بها خلال فترة حكم الجزار، وكان ذلك أحد الأسباب، التي أوجدت المشاحنات، بين الجنود في بعض الأوقات. ومثالها ما يرويه المنير : " نشب خلاف بين الدالاتية والمغاربة ... وصار الأرناؤوط إلى صف الدالاتية فقتلوا من المغاربة مقتلة عظيمة "[٤].

كان الجزار يسعى إلى تعزيز الفروق بين الوحدات، مما يعزز روح المنافســـة بينـــهم، فيعمل بذلك على ربط قادتهم به مباشرة. ولكن في إحدى المرات، اتفقت الوحدات جميعها تقريبا على الجزار، وذلك عندما أعلن سليم باشا، ثورته على الجزار، سنة ١٧٨٩، وكادت هذه الثورة أن تؤدي بحكمه. ويمكن أن نعزوا السبب، في إتفاق القوات على الجزار، إلى بعده عـــن قيـــادة الجيش، وقرب سليم إلى الجند بشتى أصولهم. ويعكس " كوهن " صورة لهذه الحادثـــة بـــالقول : " فسرت حادثة ١٧٨٩، الأخطار التي تهدد أي حاكم، من القوات المرتزقة، وفي الوقت نفســـه، وضحت حكمة سياسة الجزار[٥].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 285.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ١٢٧-١٢٨ ؛ الخوري- مصطفى آغا، ص ٦٣.

(٣) لوكروى- الجزار، ص ١٢٨-١٢٩ ؛ الخوري- مصطفى اغا، ص ٦٣.

(٤) المنير - الدر، ص ٤٤٤.

(٥) Cohen, Palestine, P. 285.

ج - أعداد قوات الجزار.

بينما كانت المعلومات المتعلقة، بأنواع وشخصيات، الوحدات معروفة، كانت المعلومات المتعلقة بحجمها، غير معروفة إلى حد كبير. فقد جاءت المعطيات لأعداد القوات، مختلفة من باحث لآخر، لكن ما يبدو واضحاً في بعض المصادر، هو أن عناصر الفرسان في جيش الجزار، كانت أقل عدداً من المشاة، ومن الممكن أن يكون السبب، أن الأجور الأكثر كانت تدفع للفرسان، إضافة إلى طبيعة المنطقة، التي تحتاج إلى مشاة أكثر من الفرسان. ويشير " كوهن " إلى هذا بالقول : " إستخدم الجزار المشاة، للقتال في الأقاليم الجبلية، من الجليل، وجنوب لبنان، وجبل لبنان[١]. فإذا أخذنا بهذه الرواية، فإنها شملت معظم المناطق، التي حارب فيها جيش الجزار.

أما بالنسبة لحجم قوات الجزار بشكل عام، فقد تفاوتت الأرقام كما أسلفت، فيرد عند " فولني Volney "، أن الجزار امتلك ألف (١٠٠٠) فارس، وألف (١٠٠٠) جندي مشاة من المغاربة[٢]. أما " رو Roux " فيورد بأن الجزار، كان لديه قوة تتراوح أعدادها، بين الأربعة آلاف (٤٠٠٠) والخمسة آلاف (٥٠٠٠) جندي، في بداية سنة ١٧٨٠[٣]. أما " جب وبوون " فيشيران إلى أن الجزار كون جيشاً خاصاً به، يتألف من حوالي أربعة آلاف (٤٠٠٠) من البشناق، والأرناؤوط، والمغاربة[٤]. واستند على هذه الرواية، الكثير من المؤرخين الحديثين.

يورد " كوهن " رواية تدل على أن الجزار، كان يمتلك قوة، أكبر حجماً مما ذكر وهو أن الباب العالي، أصدر أمراً إلى الجزار، بأن يرسل له ألف (١٠٠٠) فارس، للمشاركة في الحرب، وامراً آخر، يطلب فيه من الجزار، تزويد الدولة العثمانية، بثلاثة آلاف (٣٠٠٠) جندي[٥].

يرد عند بعض المؤرخين، بين سطور كتاباتهم، أن الجزار أرسل في بعض السنوات، قوات قوامها ستة آلاف (٦٠٠٠)، إلى ثمانية آلاف (٨٠٠٠) رجل، لمساعدة أنصاره في جبل لبنان[٦]. وفي بعض الروايات، كان العدد يصل إلى عشرة آلاف (١٠٠٠٠) جندي[٧].

يمكن القول أن جيش الجزار، كان كبير الحجم نوعاً ما، فإذا أخذنا بالروايات التي تتحدث عن القوات المحلية (اليرلية)، التي كانت تخدم في المناطق التابعة لحكم الجزار، والتي تشير

---

(١) Cohen, Palestine, P. 285.

(٢) Volney, Travels, II,P. 76.

(٣) Roux, Echelle de syria, P. 136.

(٤) جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٣٨.

(٥) Cohen, Palestine, P. 286.

(٦) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ١٩٧ ؛ بريك- تاريخ حوادث، المشرق، مج ١، ص ٦٦.

(٧) الشدياق- أخبار، ج ١، ص ٢٢١.

إلى أن عددها، لا يقل عن ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) جندي، ومهمتها في الغالب، تقتصر على حفظ القلاع، والأمن الداخلي في المدن، فإن الظروف التي وضع الجزار نفسه فيها، من خلال حروبه في كثير من المناطق المجاورة، تحتاج إلى عدد أكبر حجماً من ذلك، لتكون مقاربة لأعداد وحجم القوات، المتوجهة لقتالها، وبذلك يمكن الإستنتاج، أن حجم جيش الجزار، قد يصل إلى ضعف حجم القوات المحلية.

إنخفض عدد جيش الجزار بشكل مفاجئ، وذلك بعد الثورة التي قام بها المماليك، سنة ١٧٨٩. يبدو أن عدد الجيش في هذه الفترة، كان كبيراً، إلى حد أن القنصل الفرنسي في صيدا "بوسيه Beaussier " يقول : " إن الجزار قادر على أن يجهز بنفسه، جيشاً من المرتزقة، يبلغ العشرين ألفاً (٢٠٠٠٠) "[١]. وبعد أن قضى الجزار على الثورة، عمل على إعادة تنظيم صفوف الجيش، فإستقدم الجنود المرتزقة، حتى تمكن من إنشاء جيش هائل، قادر على ضبط زمام الأمور، وعلى الوقوف في وجه الفرنسيين، سنة ١٧٩٩[٢].

لم تكن عملية التجنيد، واستقطاب المرتزقة، عملية صعبة بالنسبة للجزار، فهو وال لاتنقصه القوة الإقتصادية، التى يمكنه من خلالها، جلب العدد الذي يريده من الجنود المرتزقة. ويدل على أن الجزار، إمتلك عدداً كبيراً من الجند، في نهاية حكمه، ما يورده " سيباستيانى Sebastiani "، وهو من كبار أعوان بونابرت، بأن الجزار، كان قادراً على إفراد وتخصيص، تسعة آلاف (٩٠٠٠) جندي، لحصار يافا[٣].

---

(١) Ismail, Documents, II, P. 27.

(٢) لوكروى- الجزار، ص ١٦٣-١٦٤.

(٣) إسماعيل- الصراع الدولي (الدولي)، ق ١، ج ١، ص ٢٣٨. Cohen, Palestine, P. 286.

د - الأسطول.

أنشأ الجزار أسطولاً بحرياً صغيراً، كان الهدف منه، القيام بدوريات في الساحل السوري[١]. وقد كان للباب العالي سفينتان حربيتان، مخصصتان للسير في عرض البحر، في الساحل السوري حتى دمياط، وذلك للحد من نشاط القراصنة، الذين كانوا يهاجمون السفن المسلمة، إلا أن هاتين السفينتين، كانتا عديمتي الجدوى، حيث انشغل طاقمها بالتجارة، وأهملوا مهمتهم الرئيسة، في حين استمر القراصنة، في السطو على السفن دون عائق يذكر[٢].

وهذا ما حدا الجزار للإهتمام بالقوى البحرية، لتأمين التجارة لولاياته، ولحماية شواطئه من عمليات النهب، التي كانت تتم من قبل القراصنة. فاشترى سفينتين كبيرتين، سنة ١٧٨٨، وحولهما إلى سفن حربية، واستخرج مدفعاً من سفينة غارقة، ونقله إلى سفنه، كما قام بتسليح سفينتين أخريين، وأرسلهما إلى البحر[٣].

كانت سفن الجزار مشغولة بشكل رئيس، في القيام بدوريات للبحث عن القراصنة، بين أنطاكيه ودمياط. وفي نهاية عام ١٧٨٩، طلب الجزار موافقة الباب العالي، على هذا النشاط، فصدر فرمان محدد بذلك، وقد عين ضابط لقيادة هذه الدورية، بهدف منع القرصنة، بين أنطاكيا ويافا، على أن يدفع راتبه، ورواتب معاونيه، من خزينة الجزار[٤].

استطاع الجزار من خلال الأسطول الذي أنشأه، ضبط الأمور، ومنع القرصنة، ما بين أنطاكيا ويافا بشكل خاص. وكان نجاحه بذلك، سريعاً وباهراً، حيث يذكر " أرازي Arazy "، القنصل الفرنسي في صيدا، أن الجزار كان يملك سبعة سفن حربية، من أنواع مختلفة، وذلك في أواخر القرن الثامن عشر[٥]. بالمقارنة مع ولاة الدولة العثمانية، في القرن الثامن عشر، إتضح أن الجزار، هو الوالي الوحيد، الذي استطاع إنشاء أسطول بحري، قادر على فرض سيطرته البحرية، بين أنطاكيا ودمياط[٦]. إلا أنه في الوقت نفسه، لم يكن ذلك الأسطول، الذي يستطيع الجزار بواسطته، مواجهة السفن الحربية، الكبيرة الحجم والعدد. ويعلق " كوهن " على ذلك بالقول : " صحيح أن الأسطول الذي أنشأه الجزار، لم يكن قادراً على كبح جماح سفن بونابرت، ولكن فيما يتعلق بالأغراض التي أسس لها، مثل الدوريات، فقد كان كفؤاً بدرجة كبيرة "[٧].

---

[١] جب وبوون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٣٨ ؛ سيار الجميل- تكوين العرب، ص ٢٧٣.

[٢] Cohen, Palestine, P. 290.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

[٤] المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

[٥] Ismail, Documents, II, P. 420.

[٦] بولس- تاريخ لبنان، ص ١١٦ ؛ حتي- تاريخ سوريا، ج ٢، ص ٣٨٨.

[٧] Cohen, Palestine, P. 291

هـ - مرتبات الجيش.

١- مرتبات القوات المرتزقة.

كان عدد الجنود المرتزقة، يتوقف على إمكانات الباشا المادية، فقد كان عليه دفع مرتباتهم، من خزينته الخاصة، حيث كانت طاعة هؤلاء مرتبطة برواتبهم. أما بالنسبة لمقادير هذه الرواتب، فقد كانت مبهمة إلى حد كبير، ويمكن أن نعزو ذلك لعدة أسباب، أهمها : أن الخدمات العسكرية للجنود المرتزقة كانت منتشرة بين الولاة، لذلك كانت قيمة رواتبهم، مرتبطة بالوالي الذي يعملون لديه، كما أنها لم تكن ثابتة عند الوالي نفسه، وذلك لإختلاف الوظائف، والمهمات، التي كانوا يكلفون بها. ولكن الشيء الثابت، عند كثير من المؤرخين، هو أن الفرسان كانوا يتقاضون رواتب، أكثر من المشاة.

كان الجزار يعوض تذمر الجنود لقلة رواتبهم، بالإكثار من الحملات، والبعثات الحربية، على البلاد التي يمتنع ملتزموها، عن دفع كامل الأموال المطلوبة منهم، فيتغاضى أثناء هذه الغزوات، عما يرتكبه الجنود من جرائم وآثام[١]. ويرد تقرير من القنصل الفرنسي في صيدا، يصف حالة جند الجزار، سنة ١٧٧٦، بالقول : " تتذمر القوات من تأخر دفع كامل رواتبها، منذ عدة أشهر، فالباشا لا يدفع لقواته رواتبهم المستحقة "[٢]. لذلك كان الجند عندما يذهبون إلى القرى، يقومون بمذابح بشعة، للحصول على دخل غير دخلهم. ويرد تقرير من القنصل الفرنسي نفسه، يقول فيه : " أخلى السكان المدينة، عند إقتراب العسكر ... وهجموا على ثلاث قرى قريبة من بيروت، جميع سكانها من النصارى ... فذبحوا جميع الرجال الذين صادفوهم، ونهبوا كل القرى التي مروا بها ... وشاهدت المغاربة وهم فرحون بأعمالهم، وكانوا يعلنون أن نهب المدن، يجب أن يكون دخلهم ... وصرح الجزار للمترجمين، أنه لو لا الذي حصل، لكان هؤلاء التعساء في حالة لا تطاق "[٣].

كانت مثل تلك الحملات، خير تعويض للجنود عن رواتبهم المستحقة، حتى أنهم أعلنوا للجزار بعد هذه الحملات، أنهم إكتفوا بالنهب الذي قاموا به، وأنهم تخلو عن رواتبهم القديمة، المستحقة لهم[٤]. مما اضطر الجزار في بعض الأوقات، السماح لهم بسلب المدن،

---

[١] سليمان- عوامل أقفار، تاريخ العرب والعالم، ع ٣٩، ص ٤٨. Volney, Travels, II, P. 81.

[٢] سليمان- عوامل أقفار، تاريخ العرب والعالم، ع ٣٩، ص ٤٨.

[٣] المصدر نفسه، ع ٣٩، ص ٤٨-٤٩.

[٤] سليمان- عوامل أقفار، تاريخ العرب والعالم، ع ٣٩، ص ٤٩. Volney, Travels, II, P. 81.

للتخلص من نقمتهم، حتى أنهم في بعض الأوقات، كانوا يشكلون عنصر فوضى وإرباك للحياة الإقتصادية، بسبب ابتزازهم المال، من سكان المدن والأرياف على حد سواء[١].

٢ – مرتبات القوات المحلية.

كان وضع الجنود من القوات المحلية، الذين اجبروا على العيش في المناطق الساحلية، أفضل من أولئك الذين يخدمون في أماكن أخرى. والسبب في ذلك، أنهم كانوا قادرين على جني المكاسب المادية، لأنهم كانوا يقيمون في الموانئ والمراكز التجارية، ولم يكونوا معتمدين كليا على الرواتب، التي تصرف لهم من الدولة بواسطة الجزار[٢]. وما يميز رواتب هؤلاء، أنها لم تكن تصرف من خزينة الجزار، إضافة إلى أنها كانت معروفة، حيث كانت تبلغ مائة وخمسة وثلاثين (١٣٥) قرشا، لكل بيرق، في السنة[٣]. وقد سمح للجزار باقتطاع رواتبهم، من المال الميري، الذي يعطى للدولة من ولايته، ويقول " كوهن " : " ربما كان الجزار يستولي على مقدار محدد من هذا المبلغ لنفسه، وربما كان هدفه أيضا، هو التأثير على العناصر العسكرية، التابعة للباب العالي في فلسطين[٤]. ومن هنا، فإن أساس الضغط على الجند هو الجزار، وهذا يعني كما يقول " كوهن " أن الوحدات العسكرية المحلية، التي كانت معتمدة على الباب العالي، وتشكل جزءا من شبكة الوحدات العسكرية العثمانية المنتظمة، كانت عمليا وحدات مرتزقة، تحت إمرة الجزار، وتحصل منه على رواتبها[٥].

---

[١] رافق– بحوث، ص ٩٣ ؛ لوكروى– الجزار، ص ١٣٤.

[٢] Cohen, Palestine, P. 278.

[٣] Volney, Travels, II, P. 272.

[٤] Cohen, Palestine, P. 289.

[٥] المصدر نفسه، ص ٢٨٩.

و - صور تنظيمية لجيش الجزار.

١ - خروج الجيش إلى القتال.

عند خروج جند الجزار إلى المعزكة، تدق الطبول، وتتعالى الهتافات بالشعارات الدينية، واسم السلطان، والجزار، لعرض الفعالية القتالية، وإستثارة الشجاعة لدى الجميع[١]. ولما كانوا يشرعون في إلقاء حصار على قلعة ما، كان يرافق الجيش ثلاثة أو أربعة مدافع، تجرها البغال، ويتبع المدفعيون الجيش وهم يركبون الجمال، ويسيرون بطريقة غير منتظمة، ثم يتبعهم جمهور من الخدم، وأتباع العساكر، حيث يركب بعضهم على الحمير والبغال، ويركب البعض الآخر على الخيول. ثم يتبعهم صف طويل من الجمال، التي أعدت لحمل الذخائر والغنائم. وفي المساء كانوا ينصبون خيمة القائد، وتتجمع العساكر حول المشاعل، يسمعون الشعر، ويرتجلون الأغاني[٢].

٢ - القوات المرافقة لقافلة الحج.

عند خروج الجزار إلى الحج، ينتشر الناس في السهل، وعلى الشاطيء، ثم تخرج طلقة واحدة من أحد المدافع، فيفتح باب المدينة، ويظهر أربعمائة (٤٠٠) جمل، يتقدمهم جحش، ونسير كلها وراءه في خط واحد، تتراوح على اسنمتها، الهوادج، والصناديق المغطاة بالحرير القرمزي، ثم يتبعها مائتا (٢٠٠) بغل، تحمل أمتعة الجيش، ثم يتبع ذلك الجنود، وفي مقدمتهم خمسة وستون (٦٥) بيرقاً من البرلية ويسير قائد الجيش أمام الموكب، والى جانبه بعض العبيد، الذين يمسكون جياده، وتحيط به فرقة موسيقية، مؤلفة من المزامير، والطبول الملونة بالأحمر والأزرق ويحملها رجال على بطونهم العارية، ثم يأتي الجيش ضاجاً، مغنياً في مديح الجزار. حيث يكون المغاربة في طليعته، ويتبعهم أربعة وخمسون (٥٤) بيرقاً ألبانياً، ثم عشرة (١٠) بيارق من المغاربة، يركضون في السهل جيئةً وذهاباً، ثم يتبعهم بعض الموسيقيين وهم ينفخون في المزامير، ويقرعون بالطبول، ويسير خلفهم ثلاثمئة (٣٠٠) جندي من الدالاتية، بخطين متوازيين، ثم تتبعهم المدفعية، مكونة من أربعمئة (٤٠٠) مدفع، يجر كل واحد زوج من البغال، المزركشة بالألوان الجميلة، ثم يتبعهم الهجانة، الذين يركبون الجمال، ويسيرون ببطء، وبعد ذلك كله، يظهر الجزار، مخفوراً بمائة مملوك، على رؤوسهم خوذ مدورة، تتدلى منها حلقات حديدية، ويرتدون على صدورهم وظهورهم، دروعاً واقية، كما أن خيولهم مصفحة الصدور بالفولاذ والفضة[٣].

---

[١] الفاكياني- الحياة العسكرية، تاريخ العرب والعالم، ع ٣٤، ص ٩٥.

[٢] لوكروى- الجزار، ص ٣٦.

[٣] أنظر لوكروى- الجزار، ص ١٢٧-١٣٠ ؛ الخوري- مصطفى أغا، ص ٦٣-٦٦.

ز - خلاصة.

كان الجزار، في عمل متواصل ومستمر، خلال فترة حكمه، لزيادة عدد جيشه، وإن كان هذا أحياناً، لتعويض ما نتج عن قمع وإخماد تمرد الزيادنة، والمتاولة، والحرب ضد بونـــابرت. كما كان مشغولاً على مر السنيين، في تعيين الحكام المحليين في جبل لبنان، فعندما كـــان يريـــد تعيين حاكم موال له، ويواجه هذا الوالي معارضة ، كان يقوم بإرسال وحدات عسكرية برفقتـــه، يتراوح حجمها من عدة مئات، إلى عدة ألوف. كما أنه كان يرسل في بعض الأحيان، قوات لتخدم كعامل توازن، مع الوحدات العسكرية، التي يرسلها والي دمشق لدعم رعاياه، في البقاع وبعلبـــك وجبيل[١] .

وما نود الوصول إليه، هو أن القوة العسكرية، كانت ركيزة حكم الجزار طـــوال فـــترة حكمه، والتي تمكن من خلالها، أن يصنع لنفسه مركزاً، بعيداً عن تدخلات الدولة العثمانية فـــي ولايته. إلا أن ما يؤخذ عليه عسكرياً، هو بعده عن قيادة الجيش في ساحات القتـــال، بحيـــث أن الجنود، كانوا يعتبرون سليم باشا، قائدهم المباشر، لذلك تخلى الجيش عن سيده الشـــرعي، ولـــم يتردد في الوقوف إلى جانب سليم باشا، قائده الفعلي، في ثورته على الجزار، سنة ١٧٨٩.

---

(١) Cohen, Palestine, P 287.

الفصل الخامس

سياسة الجزار الاقتصادية

أولاً : التطور الاقتصادي للمدن السورية في عهد الجزار.

ثانيا : السياسة المالية للجزار.

أ - الالتزام.

ب- الأموال الأميرية.

ج - سياسة الجزار الاحتكارية.

ثالثاً : الزراعة في عهد الجزار.

أ - خطوات انعاش الزراعة.

ب- احتكار الزراعة وظلم الفلاحين.

رابعا: التجارة في عهد الجزار.

أ - التجارة الداخلية.

ب- التجارة الخارجية.

١- الأصول التجارية الفرنسية في بلاد الشام.

٢- العلاقات التجارية بين الجزار والفرنسيين.

٣- العلاقات التجارية بين الجزار والانجليز.

٤- أنواع المنتجات المتبادلة مع أوروبا.

خامسا : الصناعة.

أولاً: التطور الاقتصادي للمدن السورية في عهد الجزار.

كان وضع المدن السورية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، يتوقف على مكانتها في النظام الإقليمي والإداري للسلطنة. وكان تطور بعض المدن، يعود إلى أنها كانت مراكز للحكم في الولايات. ومثالها صيدا التي ارتبط تطورها، بأنها أصبحت مركزاً للولاية، وكذلك كان ازدهار دمشق، وفي وقت سابق طرابلس ايضا، لأنها كانت مراكز للولايات[١]. فتحول المدينة إلى مركز إقليمي شجع على تزايد عدد السكان، وتبدل البنية الإجتماعية فيها، ونشاط حياتها التجارية والحرفية، كما ساعد على توظيف الأموال، في مشاريع إنماء المدينة، من قبل الفئات الحاكمة[٢].

كانت معظم المدن السورية، الواقعة إلى الجنوب من دمشق، والتي كانت تخضع لحكم الجزار، تعاني من كساد إقتصادي. وتقول نسكايا : " إن مدن القدس والخليل وبيت لحم والناصرة، لم تقدم أي مؤشرات تدل على إنتعاشها إقتصادياً ... فظل عدد سكان القدس على مدى حقبة طويلة، مستقراً ما بين إثني عشر إلى خمسة عشر ألف (١٢٠٠٠-١٥٠٠٠) نسمة. وكانت قرى حوران، وشرقي الأردن، في حالة إنهيار واضح "[٣]. وهذا يعود إلى ضعف هذه المناطق، لأنها قليلة السكان، إضافة إلى تعرضها لكثير من هجمات قبائل البدو الرحل، في الفترات التي لا يتبع حكمها للجزار. (انظر الفصل الثاني) أما النشاط الإقتصادي لباقي المدن الساحلية، فكان متوقفاً بدرجة نسبية، على تطور الإقتصاد الزراعي، وتصدير المواد الأولية إلى أوروبا ومصر، وغيرها من مناطق السلطنة، ومثالها بيروت التي كانت تنتعش في شهر آب، عندما تتحول إلى سوق للحرير الخام، المستورد من كسروان والشوف، ومنها كان يصدر إلى دمشق وغيرها[٤].

بعد أن اختار الجزار عكا، لتكون مركزا لإقامته، انطلق من حسابات إقتصادية محددة، لتشجيع المنتجات المعدة للتصدير في الأراضي القريبة من عكا. فطبق نظام التلزيم على نطاق واسع[٥]. ومع أن إسم الولاية ظل ولاية صيدا حتى نهاية القرن الثامن عشر، إلا أن الجزار اختار عكا مركزا لإقامته الدائمة.

---

[١] ايرينا نسكايا- البنى الاقتصادية، ص ١٧٧.

[٢] المصدر نفسه، ١٧٨.

[٣] المصدر نفسه، ١٧٧.

[٤] Masson, Histoire, P. 519.

[٥] عبد الغني- السلطة، ص ٢٧٨.

إن النمو الإقتصادي الذي طرأ على الساحل الفلسطيني اللبناني في القرن الثامن عشر، شهد سلسلة من التغيرات التي حدثت في النصف الثاني للقرن، مما ساعد على نمو عكا، وأعلق نمو صيدا، وحرمها من تفوقها، وأحل عكا مكانها[1]. حيث يقول فولني : " إن عكا تزداد ازدهاراً يوماً بعد يوم "[2].

أصبحت المراكب تبحر مباشرة إلى عكا، مما جعل القنصل الفرنسي في صيدا، يكتب إلى غرفة تجارة مرسيليا، ناصحاً بالتخلي عن صيدا، حيث كان تجار مرسيليا يرسلون مراكبهم إلى عكا، ويمرون بصيدا بشكل عابر، وهذا ما أدى إلى التنافس بين التجار الفرنسيين في كل من عكا وصيدا، حول احتكار تجارة القطن في المنطقة، ولم تقبل مرسيليا بإلغاء مركزها التجاري في صيدا لصالح عكا، حتى عام ١٧٨٥، حين وافقت إرضاءً للجزار[3]. وتدل المعطيات التالية على ديناميكية نمو عكا، ففي منتصف القرن السابع عشر، كان عدد المنازل فيها لا يصل إلى الخمسين (٥٠) منزلاً، وفي مطلع القرن الثامن عشر، لم يكن فيها إلا مسجد واحد، بيد أن عدد سكانها عشية الستينيات والسبعينيات قدرما بين خمسة عشر، إلى ستة عشر ألف (١٥٠٠٠-١٦٠٠٠) نسمة. وفي نهاية القرن، أصبح فيها من خمسة إلى ستة مساجد، كما أصبحت أجور السكن والأسعار فيها أغلى منها في صيدا[4].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 136.

(٢) Volney, Travels,II,P. 357.

(٣) رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٨.

(٤) ابرينا نسكايا- البنى الإقتصادية، ص١٧٦. Cohen, Palestine, P. 136.
Macalister, Browns, Taravels, P.E.F Q.S, P. 136-137.

ثانياً : السياسة المالية للجزار.

أ - الإلتزام.

ارتكزت الدولة العثمانية في بدايتها، على نظام الاقطاع العسكري (التيمار أو الزعامة)، ولكنه أخذ بالتدهور، مع بدايات الفتح العثماني لبلاد الشام. وإذا كانت الدولة العثمانية، قد استعاضت عن وظيفته العسكرية، بنظام الإنكشارية، فإنها من جهة أخرى، قد إستعاضت عن وظيفته الإقتصادية، بنظام الالتزام[١].

أصبح نظام الإلتزام، هو الأعم إستخداماً في الدولة العثمانية، في القرن السابع عشر، ويقوم على بيع ضرائب إقليم واسع، لبعض الموظفين الكبار، والزعماء المحليين، حيث يقومون بدفع ما هو مقدر على الإقليم من أموال، ثم يقومون بجباية الضرائب، وهذا كان يكفل لخزانة الدولة العثمانية، مبالغ محددة، ويؤمن مورداً ثابتاً وعاجلاً للدولة، بإعادة النظر بشكل دوري، في شروط الإلتزام[٢].

كان الإلتزام في الأصل، يتم لمدة سنة واحدة، لكن يبدو أن هذا النظام، قد تعدل بالتدريج، إلى أن أصدرت الدولة العثمانية، أمراً إلى الولايات التابعة لها، سنة ١٦٩٢، ينص على وجوب اعتبار الإلتزامات، ملكاً لشاغلها مدى حياته، وعلى أنه حر، في نقل ملكيتها عن طريق البيع، بشرط موافقة الدولة على ذلك، وعرف هذا النظام بنظام (المالكانة)[٣]. وإذا توفي ملتزم المالكانة، تسقط أحقيته فيها، وتعرض الاقطاعات بالمزاد، على أن تكون الأحقية لأولاده، شريطة أن يزيدوا عمن دخل المزاد، أو يتساوون معه[٤].

لقد دفعت الأزمات الإقتصادية الدولة العثمانية، إلى مضاعفة الإهتمام بشؤون الضرائب، المجباة من الولايات التابعة لها، وقد وجدت، بتعميم صيغة الإلتزام، أنها تشمل، إضافة إلى الأراضي الزراعية، جميع القطاعات التي تجبى منها الضرائب، ويعلق عبد الغني على هذا بالقول : " أصبحت الولاية نفسها في بعض الأحيان، التزاماً كبيراً، والباشا فيها هو الملتزم الأكبر في التطبيق العملي "[٥].

---

[١] وجيه كوثراني- السلطة والمجتمع، ص ٥٤.

[٢] الدوري- مقدمة في التاريخ، ص ١١٩ ؛ ليلى الصباغ- المجتمع العربي السوري، ص ١٧ ؛ مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٤٣.

[٣] جب وبون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٨٨-٨٩ ؛ ناصر الدين السعيدوني- نظرة في أراضي الميري، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج ١، ص ٣٧٨.

[٤] المرادي- سلك الدرر، ج ٤، ص ٥٤٣ ؛ جب وبون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٨٩.

[٥] عبد الغني- السلطة، ص ٢٩٨.

كان الإلتزام يتم وفق إجراءات، تتمثل أولاً بإرسال طلب من الشخص الذي ينوي الإلتزام، إلى الوالي الذي تتبع له المالكانة، وفي حال موافقة الوالي، فإن ذلك يصبح رسمياً، بعد أن يكون قد أخذ الموافقة من اسطنبول، ويقوم بمنح الملتزم خلعة، ويضع عليها ختمه قبل تسليمها للملتزم، ويقوم الأخير، بكتابة ضمان بالمبلغ الذي تعهد به عن إيجار المنطقة، وهذا المبلغ، يشمل أموال الميري، وأي ضرائب إضافية يتعهد الملتزم بها[١]. كما يترتب على الوالي، توفير السلطة بيد الملتزم، حيث إنه أصبح يمثله في منطقة التزامه، فله الحق بإتخاذ الإجراءات التي يجدها ضرورية، للحفاظ على القانون والنظام. وفي الغالب لم يكن الملتزم هو الذي يجمع الضرائب، إنما كان بدوره، يبيعها أجزاء، وقد تتكرر عملية التجزيء مرات عديدة، ويقوم الملتزم بدفع المبلغ المقرر عليه، على شكل أقساط، بحيث تبدأ هذه العملية من أذار للسنة الواحدة، وحتى نهاية شباط من السنة التالية[٢]. ومن الجدير بالذكر هنا، أن الجزار نفسه، إلتزم مناطق كثيرة، لتكون على شكل مالكانة له، حيث كان الباب العالي، يمنح الجزار حقوق المالكانة في الولاية بشكل تدريجي، ولم يعطها له دفعة واحدة. وبهذا يجنى الباب العالي أرباحاً كثيرة، ويجني الجزار إلتزامات مدى الحياة. ولكن من الناحية الرسمية، بقى الجزار يجدد ولايته على صيدا كل سنة[٣]. ويقول ناصر الدين سعيدونى : " ظل الجزار في نظر الدولة، ملتزماً للضرائب، رغم ما أظهره من جور على الرعايا، وتطاول على سلطة الدولة الحاكمة في بلاد الشام "[٤].

كانت العلاقات بين الباب العالي والجزار، تؤثر على قيمة الضرائب التى تفرض على الملتزمين، فمتطلبات الجزار المتزايدة على الأمير يوسف الشهابى مثلاً، ومتطلبات الأخير على الأمراء، جعلت اللمعيين يثورون ضده، مما ألحق الخسائر بمنطقة المتن، ثم إن الصراع القائم بين أفراد العائلة الشهابية، أدى إلى ارتفاع هائل، في الضرائب المفروضة على الجبل، والى زيادة الاضطرابات فيه، مما ساعد الجزار على إحكام سيطرته عليه[٥]. أي أن قيمة المال المطلوب من الأمير الملتزم، ترتفع بتغييره، ودفع غيره إلى الحكم.

حصر الجزار جميع الأموال، الواردة من ولاية صيدا وتوابعها، بين يديه، وطبق بفضل الجهاز الإداري الذي أنشأه، نظام أخذ النسبة على كل المنتجات، وفوض للملتزمين، حق تعيين

---

(١) Cohen, Palestine, P. P. 190-191.

(٢) ليلى الصباغ- المجتمع العربي السوري، ص ٣٧ ؛ وجيه كوثراني- السلطة والمجتمع، ص ٥٤.
Cohen, Palestine, P. 191.

(٣) Cohen, Palestine, P. 182.

(٤) ناصر الدين السعيدونى- نظرة فى أراضى الميري، المؤتمر الدولى الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج١، ص ٣٧٨

(٥) Volney, Travels,II,P. 68.

الموظفين في التزاماتهم، وهؤلاء كانوا يشترون وظائفهم بأسعار محدودة، وحتى حق جمع الغرامات من المدن، الذي كان يمنح مرة أو مرتين في السنة كان ايضا عن طريق الالتزام، حيث كان الملتزم يختار، كما يرغب السكان والتجار وأولادهم، ويلزمهم بالدفع، مما تسبب في إحداث أضرار بالغة، بالفلاح العامل بالميري[١].

ب – الأموال الأميرية.

تقوم ضريبة الميري على ضريبة العشر التي ورثتها الدولة العثمانية، عن الدولة الإسلامية السابقة لها، وكانت أراضي الشام برمتها خراجية، غير أن الدولة العثمانية جعلتها عشرية، باستثناء (مقر المدن، وبساتين الشام المحدقة بمدينة دمشق، وقسم من بساتين حماة، وطرابلس، وأراضي جبل لبنان)[٢]. وأوجبت عليها العشر النظامي، أي ١٠% من محاصيلها الارضية، من حبوب وخضر وثمار، وهذه الاراضي، عرفت بأراضي " ميري "، مختصر " الاراضي الأميرية "وعرفت كذلك بالأراضي السلطانية[٣].

كانت هذه الضريبة، تجبى عن طريق الالتزام، ولكن في الغالب، كانت تزيد عما هو مقرر، فقد كان الجزار يجبي من المناطق التي تقع تحت سيطرته، ثلاثة أضعاف المبلغ الذي كان يدفعه للخزينة[٤].

أصبح مال جبل الدروز، أكثر تشوشا في عهد الجزار، وانطلاقا من مال الميري، تطورت التعهدات للجزار، تبعا لاشتداد النزاعات في الجبل، وطمعا في الإحتفاظ بخلعة الولاية، فحتى عام ١٧٨٤، كان الجزار قد تسلم من الأمير يوسف الشهابي، ما يقارب العشرين ألف (٢٠،٠٠٠) كيس ذهب، وهو مبلغ كبير ومستغرب، حسب ما يورد فولني[٥].

وعندما تنازل الأمير يوسف عن الامارة، سنة (١٧٨٩) كان باقيا عليه سندات بقيمة أربعمائة وعشرة (٤١٠) اكياس ذهب، في خزنة الجزار، وبعد وفاة الجزار، تبين في خزنته جملة سندات وتعهدات من الأمراء الشهابيين، الذين عاصروا الجزار، وحكموا الجبل. وقد اختلفت الروايات عن بعضها، في ايراد قيمة هذه التعهدات. فيرد عند الشهابي، أنها كانت بقيمة

---

[١] ناصر الدين السعيدوني- نظرة في أراضي الميري، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج١، ص٣٧٨.

[٢] الحسني- ضريبة العشر، الكلية، مج ١٦، ج ١، ص ٤٤٢-٤٤٣.

[٣] الحسني- ضريبة العشر، الكلية، مج ١٦، ج١، ص ٤٣٣ ؛ موفق بني المرجه- صحوة الرجل، ص٤٦٠ ؛ ناصر الدين السعيدوني- نظرة فى أراضى الميري، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ج ١، ص ٣٥٩.

[٤] ايرينا نسكايا- البنى الإقتصادية، ص ٥٦.

[٥] جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان في القرن الثامن عشر،ص٤٤٣. Volney, Travels, II,P. 236.

أربعين ألف (٤٠،٠٠٠) كيس ذهب[١] ، ويرد عند مشاقة أنها كانت بقيمة، اثني عشر ألف (١٢،٠٠٠) كيس[٢]. ويرد عند العورة، أنها كانت ستة عشر ألف (١٦،٠٠٠) كيس[٣]. كما يذكر المنير، أنها كانت بقيمة أربعة آلاف (٤٠٠٠) كيس[٤]. وإذا نظرنا إلى هذه الأرقام، نجد أن الرقم الذي أورده الشهابي كبير جدا، ومبالغ به، مقارنة بالأرقام الأخرى. ولكن يمكننا اعتماد الرقم الذي أورده العورة، إذ أنه كان في هذه الفترة، رئيس كتاب الولاية. وما يهمنا مما سبق، أن الجزار كان يجمع المال الميري مضاعفا، مما حدا بالملتزمين، أخذه من الفلاحين أكثر من مرة في السنة[٥]. وهذا بدوره، كان من الأسباب الرئيسة التي تسببت في انخفاض عدد السكان. ويشير فولني إلى هذا بالقول : " عندما فرضت ضريبة الميري على الولايات السورية، كانت هذه الولايات، آهلة بالسكان، أكثر مما كانت عليه في القرن الثامن عشر "[٦].

إن حالة البلاد الداخلية، ومرتباتها الميرية (الضرائب)، ومقدار تحمل كل قرية من المطاليب، كان مجهولا لدى الجزار، لذا كان يقوم بتعيين المتسلمين، حسب خبرتهم ومعرفتهم بالمنطقة التي سيقومون بالتزامها. ويقول مشاقة : " استحسن الجزار إعطاء بلاد بشارة، إلى ابراهيم مشاقة على وجه الإلتزام، بمال سنوي معلوم المقدار، كونه خبيرا بشؤون البلاد "[٧]. كذلك من الأمثلة الأخرى على هذه السياسة، تعيين حبيب بن إبراهيم الصباغ، ملتزما على منطقة شفا عمرو للغرض نفسه[٨]. حيث كانت هذه السياسة، توفر على الجزار جهدا كبيرا، من حيث معرفة نسبة الأراضي الصالحة للزراعة، وإعداد الفلاحين الذين يزرعونها، كما أنها تساعد على تحصيل الضريبة بشكل كامل، حتى أنها كانت تزيد في بعض الأحيان عن الحد المطلوب.

لم تقتصر الضرائب التي فرضها الجزار، على الأموال الاميرية فقط، بل تعدتها إلى فرض ضرائب أخرى، لم تكن موجودة في السابق، فقد فرض ضريبة على المواد المستهلكة،

---

(١) الشهابي- لبنان، ج ٢، ص ٤٣٢.

(٢) مشاقة- منتخبات، ص ٣٥.

(٣) العورة- تاريخ ولاية، ص ٦٨.

(٤) المنير- الدر، ص ٤٣٩.

(٥) سعاد سليم- دور الأديار، المشرق، مج ٢، ص ٢٢٢ ؛ جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٥٦-٤٥٨.

(٦) Volney, Travels,II,P. 272.

(٧) مشاقة- منتخبات، ص ١٠.

(٨) الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٦-٧٧.

مثل الحبوب، والخمر، وما شابهها. وإضافة إلى أنه كان يأمر بأخذ المواد العينية، من مناطق الملتزمين المرتبطين به، مثل التبن والدجاج والبيض، إذا لم يتوفر المال عند أصحابها[١].

دفعت سياسة الجزار الضريبية، الملتزمين المرتبطين به، إلى القيام بفرض ضرائب إضافية على الفلاحين، ليوفوا ما تعهدوا به للجزار. ومثال ذلك ما فرضه الأمير يوسف الشهابي من ضرائب إضافية، مثل ضريبة (البذار أو البذرية) التي كانت تفرض على بذرة دودة القز[٢]، وذلك سنة ١٧٨١. وضريبة (الشاشية) أو ما يسمى بمال الأعناق، التي كانت تفرض على الأشخاص، ويورد " غيز " قيمة هذه الضريبة كالتالي : " نفرض على الأعزب كل عام خمسة قروش، وعلى المتزوج سبعة قروش، وتسعة قروش على من يسكنون ضواحي بيروت "[٣].

لم يتردد الجزار في فرض غرامات جماعية، على المناطق العنيدة، وجمعها بدون رحمة، إلا أنه في الوقت نفسه، حافظ على السادة الاقطاعيين في هذه المناطق، لكن تحت رقابة مشددة. وهؤلاء بدورهم، مارسوا جميع أنواع الضغوطات على الفلاحين، لتحصيل الاموال الضريبية الأميرية، والضرائب الأخرى التي فرضت من قبلهم في بعض الأحيان. وقد تحولت المنافسة بين الملتزمين، إلى استنزاف العامة، فالأمير يوسف، مارس البلص (أخذ الأشياء بدون ثمن أو مقابل) والقصاص على الأعيان، في حين أن خصومه من الشهابيين، إعتمدوا على الميري المضاعفة، لتسديد التعهدات للجزار[٤].

---

[١] الشهابي- تاريخ الجزار، ص ٧٦. Macalister, Brownes Travels, P.E.F.Q.S, P. 137.

[٢] بازيلي- سوريا وفلسطين، ص ٧٢ ؛ سعاد سليم- دور الأديار، المشرق، مج ٢، ص ٢٢٢.

[٣] غيز- بيروت ولبنان، ج ٢، ص ١٠٣-١٠٤.

[٤] جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٥٣.
Tibawi, A Modern History, P. 32.

ج - سياسة الجزار الإحتكارية.

تكاد المصادر التي تتحدث عن نظام الجزار الإقتصادي، لا تخلو من الإشارة إلى نظام الاحتكار الذي أوجده، والذي استطاع من خلاله، أن ينمي ثروة هائلة، استخدم معظمها في بناء قوة عسكرية من المرتزقة، وتغطية جميع النفقات الضرورية في ولايته. وأن يبني نظاما إداريا قويا، استند عليه في فترة حكمه الطويلة، والتي امتدت من سنة ١٧٧٦-١٨٠٤. مما حدا جب وبوون إلى القول : " إن الاحتكار الذي أوجده الجزار لتجارة فلسطين، ينبىء إلى حد معين بسياسة محمد علي في مصر "[١].

سلك الجزار سياسة تجارية، تشهد على قدرة واضحة على فهم سير عمل إقتصاد البلاد. فمنذ سنة ١٧٨٥، إتخذ تدابير لاحتكار القطن والحبوب، وفرض رقابة صارمة على الأرياف والموانيء، وأمر بعدم بيع الإنتاج إلا لوكلائه في عكا[٢]. وكانت أية محاولة للشراء المباشر من المزارعين، من قبل التجار، خاصة الفرنسيين، تقابل بالرفض من الجزار، وكان هذا من بين الأسباب، التي جعلت الجزار يطرد التجار الفرنسيين من المنطقة، سنة ١٧٩٠. متهما إياهم بدعم نشاطات المبشرين الكاثوليك، كمحاولة منهم لكسر احتكاره، بشراء القطن بأسعار منخفضة من الفلاحين مباشرة، وتثبيت مصنع الصابون فى يافا ضد إرادته[٣]. حيث يقول فولني : " احتكر الجزار التجارة، فأصبح المشتري الوحيد، والبائع الوحيد للقطن وللحبوب، وحدد الأسعار "[٤].

عندما بدأ الجزار يتجه بسياسته الاقتصادية نحو الاحتكار، وجد أن المنافس الوحيد له هم الفرنسيون، وأنه لا يمكنه تنمية هذا الاحتكار، بالشكل الذي يريد، طالما وجد الفرنسيون، فضرب بالإتفاقية العثمانية الفرنسية، المعقودة سنة ١٧٤٠، عرض الحائط. وقد كانت تنص على أنه لا يحق للباشوات والقضاة، والقادة العسكريين التعرض لنشاط القناصل الفرنسيين. ويعلق " نور الدين " على هذه الحادثة بالقول : " أظهر الجزار بطرده الفرنسيين، أن استمرار الامتيازات رهن بموافقة الطرف الذي أعطاها (الدولة العثمانية)، وأن أي إلغاء لها، لا يفترض أية عواقب من جانب الطرف المعطي له (الفرنسيين) ... وهذا ما تنبهت له الدول الأوروبية فيما بعد، بأن حماية هذه الامتيازات لا تتم إلا بالغزو العسكري "[٥].

---

[١] جب وبون- المجتمع الإسلامي، ج ٢، ص ٣٨.

[٢] مانتران- تاريخ الدولة، ج ١، ص ٥٧٩.

[٣] Cohen, Palestine, P. 23.

[٤] Volney, Travels ,II,P. 228.

[٥] نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٩.

حافظ الجزار على هذا الاحتكار الذي أوجده في مناطق حكمه بشتى الوسائل والطـــرق، وعندما تأكد بأن الأمور في وسط الارياف، وعلى السواحل، تسير كما حددها، إتجه بسياسته نحو المراكب التي تغادر ميناء عكا، لتصدير المنتجات إلى أوروبا، فمنعها من مغــادرة الميـنــاء، أو النزول فيه دون علمه، وما يورده كوهن يشير إلى هذا حيث يقول : " حـــاول بعــض الــزوار البريطانيين تقريب مركبهم، لارسائه خارج الميناء، لكنهم تراجعوا بسرعة كبيرة، لتفادي قصفــهم من مدافع خفر السواحل "[١].

عمد الجزار إلى التدخل في شؤون الفلاحين الذين يتبعون لحكمـــه، فحــدد لــهم نــوع المحصول الذي يتوجب عليهم زراعته، حيث ركز في هذا المجال، على المحاصيل التي تستخدم للتصدير إلى أوروبا[٢]. وبهذا يكون الجزار قد فرض احتكارا، على عدد كبير من فروع النشاط الاقتصادي. وكان يساعده في ذلك، وكلاؤه وملتزموه الذين يعملون على تنفيذ سياسته الاحتكارية. وقد ساهم هذا في الاستقرار الإقتصادي لولاية صيدا، ومركزها عكا، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر[٣].

---

(١) Cohen, Palestine, P. 23.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣) عبد الغني- السلطة، ص ٢٧٩.

ثالثا : الزراعة في عهد الجزار.

أ - خطوات إنعاش الزراعة.

لم يكن تطور الزراعة في سوريا، في القرن الثامن عشر كبيرا، ولا ثابتا، واعتبر عدم الاستقرار في الأعمال الزراعية، بمثابة السمة التي تميز بها الشرق العربي، في القرن الثامن عشر. وأدى تغير الوضع السياسي، وتضاعف الضغط الضريبي في أحيان كثيرة، إلى إفلاس الفلاحين، وهجرة عدد كبير منهم لقراهم[١]. وفي الوقت نفسه، نجد أن هنالك اهتماما كبيرا بالزراعة، من قبل بعض الولاة الذين تعاقبوا على الحكم في سوريا، في ظل الدولة العثمانية. ومنهم أحمد باشا الجزار، الذي اهتم بتحسين الزراعة في المناطق التابعة لحكمه، حيث بدأ هذا الاهتمام بالمناطق المحيطة بعكا، فأعاد ملكية الأرض إلى شيوخها، الذين تشتتوا بعد موت ظاهر العمر، كما استصدر إذنا من الباب العالي، يسمح له بإستغلال دخل تلك القرى، من قبل عدد من وكلائه، على سبيل المالكانة، بينما يحصل هو على نصف محصول الأرض[٢].

أبدى الجزار منذ بداية حكمه، إهتماما كبيرا بالزراعة، فعمل على تطويرها بشتى الصور الممكنة، فاستغل المعطيات المتوفرة، من آلات زراعية، وإن كانت تقليدية. واستقطب الفلاحين للعمل في الأراضي المهجورة، وسعى إلى توطيد الأمن في مناطق حكمه، كما منع العوائد التي يفرضها البدو على القرى، ومنعهم من الاقتراب من الطرق الرئيسة، فساهم ذلك في إنعاش الزراعة، الأمر الذي جعلها الركيزة الاساسية في قوة الجزار الاقتصادية[٣].

جعل الجزار جميع موارد الولاية، تحت سيطرته الشخصية، فلم يكتف بجباية الضرائب عن الأرض المزروعة، بل امتلك هذه الأرض، ووضع فيها مزارعين، لاستثمارها لمصلحته الخاصة. كما انه لم يكتف بجباية الجمارك، بل طارد التجار والحرفيين في أعمالهم، حيث يقول " طيباوي " : " امتلك الجزار الأرض، وسيطر على الفلاحين، وشارك التجار والحرفيين في أرباحهم، سواء كانت حقيقية، أو وهمية، وتحت جميع أنواع الحجج "[٤].

اهتم الجزار بزراعة وتأهيل وتنمية بعض المناطق التابعة لحكمه، وبالإضافة إلى الأراضي الواسعة، التي أمر بزراعتها واستغلالها، قام ببناء المخازن والمستودعات لخزن الحبوب، والقطن، والزيت، والسمن، والعسل، والأرز، وأنواع كثيرة من الفاكهة[٥]، كما قام

---

(١) ايرينا نسكايا- البنى الإقتصادية، ص ٨٠.

(٢) Cohen, Palestine, P. P. 134-135.

(٣) بازيلي- سوريا، ص ٢٠-٢٢ ؛ ايرينا نسكايا- البنى الإقتصادية، ص ٨٠.

(٤) Tibawi, A Modern History, P. 57.

(٥) العورة- تاريخ ولاية، ص ١٦٥ ؛ الشطي- أعيان دمشق، ص ٣٩.

Macalister, Brownes Travels, P.E.F.Q.S, P.140.

بإعادة تشغيل الطواحين التي خلفها ظاهر العمر، وهما طاحونتان، وأضاف اليهما سبع طواحين أخرى، ساهمت في توفير دخل إضافي له[١].

ب – احتكار الزراعة وظلم الفلاحين.

قبل الخوض في وضع الفلاحين في المناطق الخاضعة لحكم الجزار، لابد لنا من الإشارة إلى أن الزراعة، كانت تعاني من مشاكل شتى، تؤثر على الإنتاج الزراعي في تلك المناطق. فقد أصيبت فلسطين بين فترة وأخرى بالجفاف، وأحياناً بالأوبئة، ومثالها ما حدث سنة ١٧٨٠ و ١٧٨٧، حين عم الوباء في بلاد الشام بكاملها، ويقدر القنصل الفرنسي في عكا، في رسالة له في ١٨- نيسان-١٧٨٧، إصابات عكا، بين تشرين الثاني ١٧٨٦ ونيسان ١٧٨٧، بأربعة آلاف وخمسمئة وسبع وخمسين (٤٥٥٧) وفاة، بينهموا عدد كبير من الفلاحين[٢]. وكان من أسباب تدهور الزراعة زمن الجزار، حدوث نكبات طبيعية كانتشار الجراد وغيره.

اتبع الجزار سياسة احتكارية حتى في الزراعة، فكان يشتري معظم الغلال التي تنتج في مناطق نفوذه، ويقوم بتخزينها حتى وقت البذار، ليعيد توزيعها على الفلاحين بأسعار باهظة. وكانت هذه من الأسباب التي جعلت الفلاحين يتذمرون من حكم الجزار، إضافة إلى المال الميري المفروض عليهم، وظروف جمعه، حيث كان الفلاحون يجبرون على تحضير المأكولات والمشروبات وعليق الخيل، مما إضطر الكثير منهم في أوائل ثمانينيات القرن الثامن عشر، إلى هجرة مزارعهم واراضيهم[٣]. ويعكس لنا العورة صورة واضحة، عن الظلم الذي كان يلاقيه الفلاحون في عهد الجزار كما يلي : " كانت كل قرية، أموالها موزعة على أراضيها، وبقدر ما يكون الفلاح زرع أرضه، يترتب عليه المال الميري ... فيؤخذ على كل فدان مئتي (٢٠٠) قرش ... فإذا كانت قرية لها خمسون (٥٠) فداناً مزروعاً، يؤخذ منها عشرة آلاف (١٠،٠٠٠) قرش، وإذا زرعت في السنة اللاحقة أربعين (٤٠) فداناً، فإن مال العشرة فدادين يوزع على القرية كلها ... وحتى لو زرع فدان واحد، فالأمر سيان "[٤].

لقد تسببت هذه الاجراءات في بعض الاحيان، بفقدان قرى كاملة لمواردها الطبيعية والبشرية، وبالنظر في سياسة الجزار الاقتصادية، يتضح لنا محاولته إبقاء نفسه قوياً اقتصادياً، مما يؤدي بدوره إلى تقويته عسكرياً، وذلك بغض النظر عن الأسلوب المتبع للجمع بين القوتين.

---

(١) Cohen, Palestine, P.135.

(٢) رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٧١٩.

(٣) العورة- تاريخ ولاية، ص ٥٦. Volney, Travels,II,P. 287.

Rafeq- The Province, P.P. 314-316 .

(٤) العورة- تاريخ ولاية، ص ٥٦-٥٧.

بدأ الجزار يمارس احتكاره للمنتجات الزراعية في سنة ١٧٨٤، وفي السنة اللاحقة، أجبر الفلاحين على زراعة القمح، بالرغم من معارضتهم لذلك، بسبب توقعهم قلة الأمطار في هذه السنة، إلا أن الأمور سارت بعكس ما توقعوا، فكان الإنتاج خصبا ووفيرا، فمنع الجزار الفلاحين من بيع الحبوب أو خزنها، وقام بتصدير كل المحصول إلى المناطق المجاورة. ونتيجة لذلك ارتفعت أسعار الحبوب في مناطق الجزار، وبلغت ٤٠٠%[١]. فقام بطرح الحبوب المخزنة لديه في الاسواق.

إن ما أنهك الفلاح في عهد الجزار، هو عمله بالسخرة في تحصين عكا، حيث كان هذا العمل يشغل أعدادا كبيرة من الفلاحين، مما اضطرهم إلى ترك الزراعة، والعمل بأعمال أخرى. وكذلك عندما كان الجزار يتولى حكم ولاية الشام، فإنه يتبع السياسة نفسها، باحتكار المنتجات الزراعية، حيث يذكر براون، الذي زار المنطقة في نهاية عهد الجزار : " أن الجزار بنى مستودعات كثيرة في حوران، والمناطق المجاورة لها، علّه يحتكر الإنتاج الزراعي فيها، كما فعل في الجليل "[٢].

جاءت سياسة الجزار مخالفة تماما لسياسة سلفه ظاهر العمر، في حكم المنطقة بالنسبة للفلاحين، فقد كان الجزار شديدا في تعامله مع الفلاحين، ولكن في الوقت نفسه، استطاع أن يخلق مؤسسة إقتصادية، كان عمادها الزراعة. ويعكس " كوهن " صورة مقارنة بين وضع الفلاح في عهد الجزار، ووضعه في عهد ظاهر العمر بما يلي : " كان وضع الفلاحين في عهد ظاهر العمر بحالة جيدة، يعكس ما جاء عليه وضعهم في عهد الجزار، فقد تعرض الفلاحون للتعسف والظلم، مما أدى إلى هجرتهم من أراضيهم، وهربهم من قراهم، فعند وفاة الجزار، سجلت قرى على أنها مهجورة، كما أصبحت ربع الأراضي التي زرعت في عهد ظاهر العمر مهجورة "[٣]. وليس من المستغرب أن نأخذ بهذه الإشارة، عن حاكم مثل الجزار، جاء غريبا عن المنطقة، ولم يكن له وريثا من دمه ليثبت له قدما فيها. فقد عاش لأجل الحكم الذي دعمه بقوة اقتصادية وعسكرية، مكنتاه من السيطرة على الحكم حتى وفاته.

عمل الجزار على زيادة بعض المنتجات في المناطق الزراعية التابعة لحكمه، والتي تتناسب مع حاجة الأسواق لها، حيث أن التغير الرئيس في الزراعة، تمثل في زيادة إنتاج المحاصيل المستهلكة داخل المنطقة، أو المعدة للتصدير[٤]. ويذكر كوهن ملاحظة ترد في كتب أحد الرحالة، ويدعى " كلارك Clark " الذي زار فلسطين في بداية القرن التاسع عشر، يقول

---

(١) Cohen, Palestine, P. 22.

(٢) Macalister, Browns, Taravels, P.E.F.Q.S, P. 140.

(٣) Cohen, Palestine, P. P. 202-203.

(٤) عيساوي- التاريخ الاقتصادي، ص ٤١٠. Polk, Opening Southern Lebanon, P. 74.

فيها : " إن كل ما ينتج في فلسطين في ذلك الوقت لا يزال تحت إدارة الباشا، وله وحده القرار في إختيار نوع الحبوب، التي تصلح للتصدير "[١]. وما يدل على ذلك، أن فلاحي قرية من قرى الرملة، أخذوا يزرعون في السنة الأخيرة، قصب السكر، لكن حاكم المنطقة بإسم الجزار، فرض عليهم ضرائب كثيرة، مما جعلهم يتخلون عن زراعة مثل هذه المحاصيل[٢].

ركز الجزار على الإيعاز للفلاحين، بزيادة إنتاج الحرير والقطن، حيث شكلتا السلعتين الرئيستين، المعدتين للتصدير، حيث تمت زراعتهما في ضواحي صيدا، وجبل لبنان، وطرابلس، أما في فلسطين فقد كان التركيز على زراعة وزيادة إنتاج الحبوب وأشجار الزيتون[٣]. كما زرع الشعير والسمسم في سهل صور، والتبغ في جبل عامل، والخضار في المناطق الجبلية والساحلية[٤]. وزرعت الكروم وأشجار التفاح والحمضيات في سهول فلسطين، كما سمح الجزار بتربية الماشية في المراعي الجماعية (المشاعات)، في أراضي القرى العالية[٥].

بالرغم من سياسة الجزار الشديدة تجاه الفلاحين، فقد تمكن من تحقيق المرابح الكثيرة من الزراعة، وأن يفي بالتزاماته تجاه الدولة.

---

(١) Cohen, Palestine, P. 23.

(٢) Volney, Travels, II,P. P. 223-224.

(٣) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٠٢.
Polk, Opening Southern Lebanon, P. 75.

(٤) Volney, Travels, II,P.P. 299-300. Polk, Opening Southern Lebanon, P. 75.

(٥) عيساوي- التاريخ الاقتصادي، ص ٤١٤. Volney, Travels, II,P. 278.

رابعا: التجارة في عهد الجزار.

أ - التجارة الداخلية.

إتخذ الجزار تدابير كثيرة لإنعاش التجارة الداخلية، وكان أهمها العمل على توطيد الأمن فى ولايته وما يتبعها، وذلك بأن ثبت الحاميات العسكرية في المدن والأرياف، وفي الطرق الرئيسة التي تمر منها قوافل التجار، لحمايتهم من قطاع الطرق والسرقات، ومن هجمات القبائل البدوية.

أحسن الجزار استغلال الحركة الاقتصادية، فجدد بعض أبنية المدن، وأقام فيها تحصينات قوية، وأنشأ الأسواق ذات الأسقف الحجرية، في المدن الرئيسة مثل صيدا وعكا وبيروت(١). وكانت هذه الأسواق تغلق ليلا، بواسطة أبواب خشبية، وتراقب من قبل حراس، يتم تمويلهم عادة من قبل أرباب الحرف والدكاكين، حيث كانت الأسواق، تدل على أهمية المدينة إقتصاديا(٢).

كانت أغلب المبادلات التجارية الداخلية، تتم عن طريق تبادل السلع بين التجار، حسب حاجة السكان أو الفلاحين لهذه المنتوجات، ولكن في الغالب، كانت البضائع المستوردة من أوروبا، أسرع نفاقا من المنتجات المحلية، حيث يقول غيز : " إن الأهالي يؤثرون شراء منتوجات من البلدان الأخرى، لأن أثمانها الزهيدة تلائمهم ... إنهم لا يتقنون صنع شيء، لأنهم يفتشون عن الرخص، ولا يعنيهم من الحاجيات، إلا أن تكون رخيصة "(٣).

إن حركة الجزار ضد الفرنسيين، كانت في مصلحة التجار المحليين، ولاشك أن غياب الفرنسيين، أنعش قسما من التجار المحليين، ذوي العلاقات المباشرة ببعض المنتوجات الرئيسة، في منطقتي صيدا وفلسطين(٤). وكانت المبادلات التجارية، بين فلسطين وصيدا، تتم بالطرق البرية والبحرية.

كانت مدينتا صيدا وعكا، المينائين الرئيسين لجنوب سوريا، فكانتا تلعبان، دور النافذة البحرية، بالنسبة لدمشق وحوران، فالطريق القادم من دمشق، الذي يمر عبر وادي البقاع، ويلتف حول جبال لبنان الشرقية، يتشعب حتى يصل إلى صيدا، عبر مرجعيون.

كانت عكا ذات الميناء الطبيعي والمميز، منفذا لتجارة شمال فلسطين، كما كانت دمشق ملتقى القوافل المتجهة إلى بغداد، وقافلة الحج المتجهة إلى مكة المكرمة(٥). وشكلت صيدا،

---

(١) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٠٤.

(٢) عبد الغني- السلطة، ص ٢٧٣. Cohen, Palestine, P. 143.

(٣) غيز- بيروت ولبنان، ج ٢، ص ١١١.

(٤) رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٨.

(٥) عيساوي- التاريخ الاقتصادي، ص ٢١٨.

مستودعا لبضائع الساحل السوري التي يؤتى بها إليها، فتجمع فيها، ثم تحزم في بالات، وتصدر إلى البلاد الداخلية أو إلى دمشق، وكان تجار صيدا ينقلون البضائع التي تأتيهم من فرنسا عن طريق عكا، وذلك نظرا للمصالح الاقتصادية التي تربط بين تجار هذين المينائين[١].

صدرت صيدا وعكا وصور إلى دمشق وجبل الشوف، التبغ، والحرير، والتين المجفف، والزيت، والتفاح، والحمضيات، والحبوب. واستوردت من دمشق الثمار المجففة، والألبسة، والحرير من جبل الشوف، إضافة إلى استيراد السلع والمنتوجات من بغداد، ومكة، وبلاد فارس، والهند[٢]. كما كان هنالك تجارة نشيطة بين طرابلس، وباقي المدن الخاضعة لحكم الجزار، وكانت السلع الأكثر تصديرا من طرابلس، إلى باقي المدن السورية، هي الحرير، والإسفنج، والسجاد، وهي بدورها، كانت تستورد الأقمشة[٣]. وغيرها من المنتوجات غير المتوفرة في المدينة.

إن ما يجدر بنا الإشارة إليه، هو النقلة النوعية التي حدثت لمدينة بيروت في عهد الجزار، فقد كانت في بداية حكمه قليلة الأهمية، لكن بعد أن خضعت للجزار، بدأت تنتعش إقتصاديا، حيث قدر عدد سكانها، بستة آلاف (٦٠٠٠) نسمة، مما جعلها تحتل مكان صيدا، كمرفأ لبعض المدن، خاصة دمشق[٤]. فكانت تمدها بالأرز، والبن، والملح، والكتان، والحرير، وقطع الذهب، وتتزود منها بالثمار المجففة، كما أن بضائع صيدا، لم تعد تصدر مباشرة منها إلى قبرص، بل أصبحت تمر عبر بيروت، خاصة في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر[٥]. ويعكس المنير صورة للوضع الاقتصادي في بيروت، خلال فترة حكم الجزار بقوله : " إن إصرار الأمير يوسف الشهابي على استرداد بيروت من الجزار، كان بسبب حركة المدينة التجارية، التي وفرت مداخيل إضافية للأمير ولليد العاملة ... إضافة إلى مرفأ المدينة، الذي كان مستودعا للتجار الأجانب والمحليين[٦]. كما استفادت مدينة بيروت. من هبوط صادرات صيدا وعكا إلى فرنسا، بسبب طرد الجزار للفرنسيين منهما[٧].

---

(١) سليمان- ولاية صيدا، تاريخ العرب والعالم، ع ١٧، ص ٤٧.

(٢) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤١٥. Volney, Travels, II, P.299.
Polk, Opening Southern Lebanon, P. 79.

(٣) Volney, Travels, II, P. 288.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

(٥) Volney, Travels, II,P. 290. Roux, Les Echelles, P. 78.

(٦) المنير- الدر، ص ٤٤٠ ؛ جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٣٥.

(٧) Volney, Travels, II, P. 287.

ب – التجارة الخارجية.

١ – الأصول التجارية الفرنسية في بلاد الشام.

كانت حركة التبادل التجاري، لمصر، والمغرب، والبلاد العربية الجنوبية، مع الدول الأوروبية، ضئيلة نسبيا مقارنة ببلاد الشام، التي تركز فيها الجانب الأكبر من حركة المبادلة التجارية، مع الدول الأوروبية. وكانت تقوم بها جاليات استقرت في مختلف المدن والموانيء العثمانية، منذ أوائل القرن السادس عشر، بموجب معاهدة الإمتيازات التي عقدها الملك الفرنسي " فرانسوا الأول Francois I " (١٥١٥-١٥٧٤) مع السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) سنة ١٥٣٥[١]. ثم ما لبثت أن تطورت هذه المعاهدة بعقد اتفاقات أخرى، ضمنت كلها لرعايا فرنسا، حرية التجارة والملاحة والسفر مع الدولة العثمانية[٢]. وتم تجديد هذه الامتيازات في عهد السلاطين اللاحقين، إذ كانت مدة الإمتيازات تستمر طيلة حياة السلطان الذي منحها، وهي بحاجة إلى تجديد في كل مرة يتولى فيها سلطان جديد، واستمرت هذه السياسة في تجديد الامتيازات حتى سنة ١٧٤٠ حيث اتخذت طابعا مستمرا في عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠-١٧٥٤) وخلفائه[٣].

كانت بداية القرن التاسع عشر تشهد تطورا، واضحا، للتجارة الفرنسية في المنطقة، وكان هذا بفضل جهود الأمير فخر الدين المعني الذي أقام علاقات تجارية ومالية مع التجار الفرنسيين[٤]. ولكن هذه العلاقات لم يدم سيرها في الاتجاه نفسه، فقد حدث في منتصف القرن السابع عشر، وتحديدا في سنة ١٦٥٨ أن قام حاكم صيدا " أحمد باشا " بأخذ الأموال الكثيرة، من التجار الفرنسيين، دون الخضوع لمقياس محدد. مما حدا بالتجار الانتقال من صيدا إلى عكا، ولم يعودوا إليها إلا بعد أربعة اشهر، بعد أن سويت الخلافات مع حاكم صيدا[٥].

عادت الحركة التجارية الفرنسية في بلاد الشام نشيطة، وذلك بفضل جهود " كولبير Colbert "، وزير الدولة الفرنسية للشؤون البحرية، الذي سعى لعقد اتفاقية جديدة للامتيازات الأجنبية بين الباب العالي والفرنسيين، إلى أن نجح في ذلك في ٥- حزيران-١٦٧٣. مما جعل التجارة الفرنسية هي السائدة في بلاد الشام[٦].

---

[١] ليلى الصباغ- الجاليات الاوربية، ج ١، ص ٨٢-٨٣ ؛
سليمان- الحماية العثمانية، تاريخ العرب والعالم، ع ٦١، ص ٣٦.

[٢] سليمان- الحماية العثمانية، تاريخ العرب والعالم، ع ٦١، ص ٣٦.

[٣] أميل خوري- السياسة الدولية، ج ١، ص ٢٨.

[٤] إسماعيل- الصراع الدولي (الوثائق)، ق ١، ج ١، ص ٣٩١.

[٥] ليلى الصباغ- الجاليات الاوربية، ص ١٤٠.

[٦] إسماعيل- الصراع الدولي (الوثائق)،ق١ ، ج ١، ص ٣٩٥.

أوكلت مسؤولية معاملات تجارة فرنسا مع العثمانيين، إلى هيئة مميزة، على رأسها وزير البحرية. وكانت ترد إليها الرسائل دون انقطاع من المراكز القنصلية، في المشرق. مما يدل على يقظة، وعناية الوزير بكل تفاصيل المهمة التي اسندت إليه. وساعد الوزير موظف ذو سلطة، مطلقة، مقره في غرفة تجارة مرسيليا، التي أنشئت سنة ١٦٥٠، بهدف الاهتمام بصورة رئيسة بتجارة الشرق، باعتبار مدينة مرسيليا مركزا لهذه التجارة، وكان ينوب في بلاد الشام عن غرفة تجارة مرسيليا، قنصل أو نائب قنصل[١]. ويعين السفير الفرنسي في استانبول القنصل حسب اهمية المركز. ومن واجبات الأخير تبادل الرسائل مع السفير، وان يخضع لسلطة الملك أو السفير ويمثلهما أمام التجار. ولا يسمح لأي تاجر فرنسي الاقامة في بلاد الشام، إلا بعد الحصول على اذن من غرفة تجارة مرسيليا، وفق شروط معينة، ومن يخالف ذلك يحق للسفير، أو القنصل اعادته إلى فرنسا[٢].

سيطرت صيدا على التجارة الخارجية، لجنوب غرب بلاد الشام، طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر. ومارس الفرنسيون تجارة نشطة في عكا، وكانوا الوحيدين بين الأوروبيين الذين اقاموا فيها باستمرار[٣]، حيث أصبحت الاولوية التجارية في بلاد الشام الجنوبية للفرنسيين. ويقول " رو " : " احتكر الفرنسيون دون منافسة تذكر من قبل الانجليز، تجارة الواردات، والصادرات في موانيء صيدا، وعكا، ويافا، فاستمر الأمر كذلك حتى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ "[٤].

في العقد الأول من القرن الثامن عشر، تم تعيين قنصل جديد لإنجلترا، وهولندا في عكا، يدعى " بول ماشوك Poul Muashook "، فمارس هذا تجارة نشطة، استطاع من خلالها السيطرة على معظم انتاج القطن في منطقة الجليل. حيث كان القطن السلعة الرئيسة المصدرة من بلاد الشام، وكان " ماشوك " يقوم بالدفع المسبق للملتزم، على أن يزوده بالقطن، كما يقوم بدفع المال الميري المستحق على الملتزمين في منطقة الجليل، مقابل اخذه وثائق شرعية، تضمن له حقه بالمبلغ المطلوب من هؤلاء الملتزمين. وبهذه الطريقة امتنع الملتزمون من بيع قطن بلادهم لغير " ماشوك ". فاستطاع بذلك انتزاع تجارة القطن من ايدي الفرنسيين، رغم امكاناتهم المادية

---

(١) سليمان- الحماية العثمانية، تاريخ العرب والعالم، ع ٦١، ص ٣٦-٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ع ٦١، ص ٣٧.

(٣) رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٧.

(٤) Roux, Les Echelles, P.32

الكبيرة[١] . كما استطاع ايضا اقناع التجار الفرنسيين المتعاملين معه احتكار جزء كبير من القطن الذي يصل إلى عكا فحققوا من ذلك ارباحا طائلة[٢] .

كان للشيخ ظاهر العمر، حاكم منطقة الجليل، تجارة واسعة مع الفرنسيين خاصة فيما يتعلق بالقطن، فكان الاقبال المتزايد من قبل الفرنسيين على قطن الجليل، من الاسباب الرئيسة التي وفرت لظاهر العمر، دخلا عاليا وتجارة قوية[٣] . فما كاد الجزار يصل إلى حكم ولاية صيدا، وتوابعها، إلا كانت تجارة الفرنسيين متجذرة في المنطقة.

٢ - العلاقات التجارية بين الجزار والفرنسيين.

لقد بدأت العلاقات جيدة بين الجزار والفرنسيين في بداية حكمه، فقد كان الجزار متعاونا مع الفرنسيين، وفي المقابل ابدى الفرنسيون تعاونا فيما يخص العلاقات التجارية الأمر الذي جعل الجزار يقترض منهم مبلغ خمسة عشر الف (١٥،٠٠٠) قرش[٤]، وذلك لاستغلالها في التجارة وجلب الجند المرتزقة.

عندما تولى الجزار حكم صيدا، ونقل مركز حكمه إلى عكا، تحول الفرع القنصلي في الأخيرة إلى قنصلية مستقلة، وعين " رينودو Renaudot " أول قنصل فرنسي فيها، وخلال القرن الثامن عشر، كان القسم الاكبر من التجارة السورية في ايد فرنسية، مع وجود محدد لبعض التجار البنادقة، والانجليز، والنمساوية، والروس[٥]. وكانت عملية التبادل التجاري تتم بشكل رئيس مع المراكز الفرنسية، وبالذات مرسيليا، لذا كان الفرنسيون هم الانشط تجاريا في المنطقة، وكانت العلاقات التجارية بينهم وبين الجزار تسير بشكل جيد، مما دفع الجزار سنة ١٧٨٥ إلى القيام ببناء خان للفرنسيين سمى بخان العمدان[٦].

---

(١) Cohen, Palestine, P. P. 11-12.

(٢) Masson, Histoire, P. 514.

(٣) Cohen, Palestine, P. 12.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(٥) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٣-٦٤.

(٦) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع٤٢، ص ٦٤.
Cohen, Palestine, P. 136.

كانت صيدا، حتى نهاية القرن الثامن عشر، هى المخزن الرئيس لمدينة دمشق والداخل، واهم مرفأ فى جنوبي بر الشام[١]. وكان الفرنسيون عمليا هم الاوروبيون الوحيدون الذين سكنوها، ونعموا بشبه احتكار تجاري فيها، فكان لهم حتى عام ١٧٨٣ قنصل، وخمسة إلى ستة مكاتب تجارية، واختفى منها المنافسون الانجليز والهولنديون كما فى مدينة حلب[٢]. وقد اضيف إلى دور صيدا فى التجارة والترانزيت، وظيفة صناعية حيث أصبحت المركز الساحلي الرئيس لصناعات القطن الخفيفة[٣]. لكن اهتمام الجزار المتزايد بعكا جاء على حساب صيدا، فقد هبطت تجارتها إلى فرنسا طوال القرن الثامن عشر[٤].

كان التجار الفرنسيون فى صيدا، وتوابعها، يشترون الحرير من فلاحي القرى فى وقت الجني، وذلك عن طريق الانتقال إلى مناطق الانتاج، التابعة لحكم الجزار، بسبب خشية الفلاحين من الحضور إلى المدينة، خوفا من أن يسيء الاتراك معاملتهم. حيث كان الفرنسيون يشيعون ذلك[٥]، وكان الفرنسيون يتجولون في القرى دون سلاح، عندما يصلون إلى مناطق الانتاج، ويدفعون إلى الفلاحين أفضل الاسعار، ثم يأتون بالاحمال إلى مدينة صيدا، فتوضع في المخازن الخاصة بهم، وبذلك كانوا يتخلصون من دفع الضرائب عند الشراء. لكن الجزار تنبه لذلك وقام بتحصيل الرسم المطلوب[٦]. ويروي فولني كشاهد على ما كان يلاقيه التجار الفرنسيون في هذه المنطقة بالقول : " أن كل التجارة في بر الشام فى ايدي الفرنسيين ... ولا يتعاطى المسلمون التجارة إلا نادرا، لانهم يلاقون عراقيل تدبرها حكومتهم، حيث خفضت بعض الدول الاوروبية التى كانت تتعامل مع الباب العالي الرسم الجمركي عن بضائعها إلى ٣%. بينما كان الرعايا العثمانيون يدفعون رسما قدره ١٠%، ومن جهة أخرى اذا دفع الفرنسيون الرسوم الجمركية فى احد المرافيء العثمانية فلا يكررون دفعها مرة ثانية في مرفأ آخر، اما الرعايا العثمانيون، فقد كانوا مجبورين على دفعها مرة ثانية ... هل من العجب، بعد هذا الاجحاف بحق الرعايا المحليين، أن يتخلوا عن التجارة لمنافسيهم "[٧]. يتضح من هذه الكلمات أن التجار الفرنسيين كانوا يملكون جميع الوسائل التي تسمح لهم بان يكونوا التجار الوحيدين الذين يمارسون نشاطهم التجاري دون عائق يذكر سواء بالمنافسة من قبل التجار الآخرين، أو بحرية الممارسة لهذا

---

(١) Volney, Travels, II, P. 299. Roux, Les Echelles, P. 4

(٢) Volney, Travels, II, P. 299. Roux, Les Echelles, P. 9.

(٣) جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان فى القرن الثامن عشر،ص ٢٣٦. Volney, Travels, II, P.299.

(٤) Roux, Les Echelles, P. 195.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٦) سليمان- ولاية صيدا، تاريخ العرب والعالم، ع ١٧، ص ٤٦-٤٧.

(٧) Volney, Travels, II, P. 45.

النشاط. إلا أن هذا لم يدم طويلا، فقد أدرك الجزار في أواسط ثمانينيات القرن الثامن عشر، مقدار ما يجنيه التجار الفرنسيون من مكاسب، لذلك مثل في هذه الفترة الحاكم والتاجر المنافس لهم، فعوض بذلك اختفاء الدور التجاري المحلي، وبدأ باحتكار تجارة القطن والحبوب، فكان بذلك الوحيد الذي له الحق ببيع المنتجات للفرنسيين[١].

أدى هذا الاجراء الذي اتخذه الجزار إلى خلق صعوبات كبيرة في وجه التجار الفرنسيين، فقاموا بمواجهته بالامتيازات التي منحها لهم السلطان، إلا أن الجزار اجابهم بأنه السلطان الوحيد في مقاطعاته، ورغم ذلك، فقد حافظت العلاقة بين الجزار والفرنسيين على استقرار وجودة نسبيين حتى عام ١٧٨٩[٢].

كانت الحملات التي يقوم بها الجزار على جبل لبنان، وجبل عامل من الاسباب الرئيسة التي عملت على تقليص حجم التجارة الفرنسية في تلك البلاد، فلم يعد التجار يجنون الفائدة نفسها التي كانوا يحققونها من استهلاك الأمراء، والمشايخ لكميات كبيرة من الاقمشة، والسلع الأخرى، كما لم يعد بإمكانهم أن يبيعوا شيئا بعد هرب هؤلاء من مناطقهم[٣].

كان للفرنسيين مصانع في عكا، وصيدا، وبيروت حتى سنة ١٧٩٠، لكن في هذه السنة غضب الجزار منهم، وقام بطردهم من مدينتي صيدا، وعكا، وصادر اموالهم في الموانىء السورية[٤]. ويمكن للجدول التالي أن يبين حجم المبادلات التجارية بين الفرنسيين، وبعض المدن التي خضعت لحكم الجزار وهي صيدا، عكا، طرابلس. وذلك بالليرات الذهبية الفرنسية.

السنة	١٧٧٩م	١٧٨٩
قيمة البضائع المستوردة من مرسيليا إلى (صيدا، عكا، طرابلس)	٦٦٧،٠٧٩	١،١٣٥،٨٢٢
قيمة البضائع المصدرة من (صيدا، عكا، طرابلس)	٤٢٩،٢١٠ من غير طرابلس	١،٦٨٨،٥٥٧

يتضح من الجدول السابق أن قيمة البضائع المتبادلة بين مرسيليا وبعض المدن التي خضعت لحكم الجزار في سنة ١٧٧٩، كانت اقل منها في سنة ١٧٨٩، ويعود السبب في ذلك إلى تردي الاوضاع الاقتصادية، والى الاضطرابات التي كانت سائدة في سوريا الجنوبية في تلك

(١) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٦.

(٢) نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٦.
Masson, Histoire, P.P. 293-294.

(٣) سليمان- مقاومة سياسة الجزار، تاريخ العرب والعالم، ع ٥٥، ص ٥٠.

(٤) Masson, Histoire, P.296. Macalister, Brownes Travels, P.E.F.Q.S, P.P. 138-139.
Tibawi, A Modern History, P. 35.

الفترة[١] . كما يتضح بمقارنة قيمة البضائع المصدرة من صيدا وعكا، وطرابلس إلى مرسيليا في سنة ١٧٨٩ والبالغة ١،٦٨٨،٥٥٧ ليرة فرنسية، مع قيمة البضائع المستوردة من مرسيليا إلى هذه الاماكن في السنة نفسها، والبالغة ١،١٣٥،٨٢٢ ليرة فرنسية، يظهر لنا أن الميزان التجاري في تلك السنة كان لصالح صيدا، وعكا، وطرابلس، إلا أن هذه الأمور انقلبت جذريا سنة ١٧٩٠ بطرد الجزار التجار الفرنسيين من عكا وصيدا ومجيء حملة بونابرت في أواخر القرن[٢].

حاول التجار الفرنسيون مرارا العودة إلى عكا، وصيدا ولكن دون جدوى، وبذلك استطاع الجزار أن يحصر التجارة بين يديه. واستغل تجار حلب الفرنسيون ازمة زملائهم في عكا وصيدا، فأخذوا يتاجرون مع هاتين المدينتين[٣].

حاول تجار صيدا وعكا الفرنسيون، من ناحيتهم، العمل على تنحية الجزار عن الحكم لتحسين تجارتهم، وكتب بذلك قنصل عكا " رينودو " في أيار، سنة ١٧٩٠ إلى غرفة تجارة مرسيليا يذكرها بخصوبة المنطقة، وجودة التجارة فيها، ويشير إلى الوضع المأساوي الذي يعيشه وزملاؤه في عهد الجزار[٤]. لكن فرنسا انذاك كانت تتأجج فيها الثورة الفرنسية، وكل ما فعلته سلطاتها هو اغلاق القنصليات التي يقوم فيها نواب قناصل، مثل عكا، وصيدا، ويافا، والرملة وتأجل العمل العسكري في فلسطين لحماية التجارة الفرنسية حتى حملة بونابرت في سنة ١٧٩٨.

استغل الجزار قطع العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والباب العالي سنة (١٧٩٨) فصادر ممتلكات من تبقى من الفرنسيين في طرابلس، ويافا، ومما شجع الجزار على ذلك، هو أن الدولة العثمانية اعتبرت الفرنسيين المقيمين في المنطقة أعداء وخونة[٥].

عندما عاد السلام بين فرنسا والدولة العثمانية، كانت المكاتب الفرنسية القديمة مدمرة، وذلك بسبب حملة بونابرت إلى الشرق، التي كانت سببا في تدمير سيطرة الفرنسيين التجارية في أواخر القرن الثامن عشر في المشرق[٦].

عقدت معاهدة صلح بين فرنسا، والباب العالي في ٢٥- حزيران- ١٨٠٢ مكنت التجار الفرنسين من استعادة نشاطهم في المنطقة. فقد بلغت واردات تجارتهم مع سوريا (صيدا، عكا،

---

(١) رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨٢٨-٨٢٩.

(٢) المصدر نفسه، مج ٢، ق ٢، ص ٨٢٩.

(٣) المصدر نفسه، مج ٢، ق ٢، ص ٨٢٢.

(٤) Roux, Les Echelles, P. P. 138-140.

(٥) Polk, Opening Southern Lebanon, P. 73.

(٦) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤١٥.

Polk, Opening Southern Lebanon, P. 73.

طرابلس) في اوائل سنة ١٨٠٣ مليون ونصف المليون (١،٥٠٠،٠٠٠) فرنك فرنسي، اما صادراتها فقد بلغت مليون وثلاثمئة الف (١،٣٠٠،٠٠٠) فرنك فرنسي[١].

قبل الجزار بعودة التجار الفرنسيين إلى عكا، لكنه رفض عودة المفوض التجاري الفرنسي اليها، وقال لكبير معاوني بونابرت (سيباستياني) : " أريد أن يقيم مفوضكم التجاري في صيدا، فصيدا أكبر الموانيء التجارية في ولايتي، وإقامته في عكا لا فائدة ترجى منها، ولا ضرورة لها، لأني سأكون انا بالذات ممثل التجارة الفرنسية فيها، فيلقى عندي تجاركم وملاحوكم، أحسن استقبال "[٢].

٣ - العلاقات التجارية بين الجزار والانجليز.

كانت هنالك انشطة تجارية اوروبية، في المناطق التابعة لحكم الجزار، ولكنها قليلة، ولا تكاد تذكر، مقارنة بالنشاط التجاري الفرنسي، وأهم هذه الانشطة التجارية هي الانجليزية.

كانت السفن الانجليزية تصل إلى موانيء بلاد الشام تحت العلم الفرنسي للافادة من الامتيازات الفرنسية، وعندما اقاموا سفيرا انجليزيا في استانبول سنة ١٥٧٩ حصلوا على امتيازات مشابهة للامتيازات الفرنسية. وتم تأسيس شركة الشرق (الليفانت) سنة ١٥٨١، التي لعبت دورا مهما في تجارة بلاد الشام، خاصة الشمالية منها[٣].

حصل الانجليز سنة ١٦٣٠ على تخفيض الرسوم على بضائعهم من ٥% إلى ٣%، وتمتعوا بثقة السكان المحليين، لجودة بضائعهم، ولتمثيلهم شركات لها قواعد وانظمة ثابتة ومحترمة من قبل جميع التجار[٤].

كان اهتمام التجار الانجليز في بلاد الشام منصبا على شؤون تجارة حلب، وكانت تعليمات شركة الشرق إلى قنصلها في حلب سنة ١٦٨٣ تقضي بعدم تشجيع التجارة على الساحل السوري، لأضرارها بتجارتها في حلب[٥].

في بداية القرن الثامن عشر وجد نائب قنصلي انجليزي في عكا، ويدعى " ريتشارد اسكيت Richard Usgate " وكان نائبا وتاجرا في الوقت نفسه، لكن هذا لم يستطع تقديم نشاط

---

[١] عيساوي- التاريخ الاقتصادي، ص ٢٥٨.

[٢] إسماعيل- الصراع الدولي (الوثائق)،ق ١، ج ١، ص ٢٤٩.

[٣] أميل خوري- السياسة الدولية، ج ١، ص ١٥. Masson, Histoire, P. P. 118-119.

[٤] رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٧ ؛ Masson, Histoire, P. 119.

[٥] رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٧.

تجاري يذكر لبلادة، حيث أنه لم ينل الدعم من القنصل العام أو التجار الانجليز، وقد بقى هذا الشخص في عكا حتى سنة ١٧٨٥[١].

نشطت التجارة الانجليزية فى ولاية صيدا وتوابعها، بعد سنة ١٧٩٠ أي بعد طرد الفرنسيين من قبل الجزار، وقد منحهم الجزار امتيازات وتسهيلات ساهمت فى زيادة عددهم فى عكا، وبعض المدن الأخرى، وقد جنوا من ذلك أرباحاً كثيرة، مما جعل الجزار في بعض الاحيان يتوجه اليهم لاقتراض المال منهم[٢]. وقد ازداد نشاط التجار الانجليز فى المنطقة بعد احتلال بونابرت لمصر، وقطع العلاقات الدبلوماسية بين العثمانيين والفرنسيين، ويرجيء " رو " أسباب ازدياد النشاط الانجليزي إلى عدة عوامل ساعدت في زيادة اهميتهم التجارية في المنطقة وهي : الثورة الفرنسية، والغاء النظام الملكى، وتنظيم المكاتب التجارية، وحملة بونابرت إلى الشرق ونتائجها، بالإضافة إلى الوجود الانجليزي في الهند والذي جعل المنطقة استراتيجية بالنسبة لهم[٣]. وتجدر الاشارة الى أن هذا الازدهار بقي محدودا ولم يصل في أي حال من الاحوال إلى ما كانت عليه من قبل التجارة الفرنسية فى صيدا وعكا.

٤ - أنواع المنتجات المتبادلة مع أوروبا.

قامت عكا وصيدا بدور الموانيء البحرية لدمشق، ونافذتها على العالم الخارجي. حيث ساد الطريق التجاري، بين عكا ودمشق، حركة قوافل نشطة[٤]. كما أن الاضطرابات الامنية في منطقة البقاع، واهتمام الجزار بميناء عكا، أدى إلى تحويل طرق التجارة ونشاطها اليها. مما جعل الحركة التجارية بين دمشق والموانيء الأخرى، مثل صيدا، تتراجع لصالح عكا[٥]. فكانت النافذة للتجارة الاوروبية خاصة الفرنسية منها.

---

[١] بريك- تاريخ الشام، ص ٤٧-٤٨.

[٢] نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٩.

[٣] Roux, Les Echelles, P. 81.

[٤] رافق- فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٧٧.

[٥] الشهابي- لبنان، ج ١، ص ١٠٤.

كانت المدن السورية، في الغالب، تهتم بزراعة القطـن، حيـث يـأتي هـذا فـي رأس الصادرات في القرن الثامن عشر، اما في المرتبة الثانية من حيـث الانتـاج والتصديـر فـهو الحرير[١]. وبالنسبة للصادارت الأخرى فكانت متفرقة من الاقمشة، والفواكه والتبغ، والرمـاد، والحنطة والزيوت[٢]

استوردت المناطق الخاضعة لحكم الجزار من اوروبا الاجواخ، والحريـر، والبـهارات والتوابل، والاسلحة وغيرها من الكماليات المستهلكة من الطبقة الاقطاعية المحليـة[٣]. ويعكـس فولني صورة واضحة للمواد المستوردة من اوروبا بالقول : " أن اغلب البضائع المستوردة هـي بضائع كمالية محضة، فهي لا تزيد إلا في ملذات الطبقات الميسورة، ورجال الدولة ... ولتـأمين المزيد من الكماليات، يتوجب الحصول على المزيد من المال والقطن والحرير والمنهوبات "[٤].

---

(١) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٢٠.

(٢) لبكي- تجارة المدن الساحلية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٢٠. Volney, Travels, II, P. 287.

(٣) جان شرف- الأزمة الإقتصادية، لبنان في القرن الثامن عشر، ص ٤٣٦؛
نور الدين- الجزار والفرنسيون، تاريخ العرب والعالم، ع ٤٢، ص ٦٣-٦٤.

(٤) Volney, Travels, II, P. 43-44.

خامسا : الصناعة.

إن المعلومات المتوافرة عن الصناعة، في ولاية صيدا وتوابعها، في عهد الجزار، تشير إلى ندرتها، شأنها في ذلك، شأن باقي المناطق العربية، التابعة للدولة العثمانية. وذلك بسبب اعتماد أهالي المنطقة، على المنتوجات الصناعية، القادمة من اوروبا، خاصة الصناعات النسيجية، وذلك بسبب رخص البضائع الاوروبية وجودتها، مقارنة بالبضائع المحلية، وتمتع التجار الاوروبين، بالإمتيازات التي تعفيهم من كثير من الضرائب المفروضة على التجارة. لذا كانت الصناعات المحلية، المتواجدة في الاسواق، صناعات تقليدية، لسد حاجات محلية لازمة[١]. هذا بالإضافة إلى ندرة العملة، وصعوبات الحصول على الاعتمادات المالية، والتي بدورها، لعبت دور الكابح لنمو النشاط الحرفي والصناعي المحلي[٢]. وعامل أخر هو الضرائب الباهظة، التي تفرض على الصناعة[٣] والذي أدى بدوره، وبالاشتراك مع العوامل السابقة، إلى العزوف عن الصناعة، والميل إلى أعمال أخرى اقل تعقيدا.

أما الصناعات التقليدية، التي وجدت في المناطق الخاضعة لحكم الجزار، فقد اقتصرت، كما أسلفت، على إنتاج بعض السلع التي يحتاجها السكان المحليون، مثل غزل القطن، واستخراج الزيت من الزيتون، ونسج الاقمشة التقليدية، وغيرها من الصناعات اليدوية[٤].

يتضح مما سبق أن الجزار صب جل اهتمامه على الزراعة والتجارة ولم يبد أي اهتمام بارز بالصناعة، هذا بالإضافة إلى اعتماده على ما كان يجنيه من الأموال الأميرية الزائدة ومن الضرائب الإضافية التي كان يفرضها على السكان التابعين لحكمه، حيث استطاع من خلال ذلك خلق مؤسسة اقتصادية كانت من الاسباب الرئيسة التى ثبتت أقدام حكمه في المنطقة، وزادت من ثرائه، فقد قدر القنصل الفرنسي فى عكا، ثروة الجزار سنة ١٧٩٢ بأربعين مليون (٤٠،٠٠٠،٠٠٠) قرش أما السفير الفرنسي فى استانبول فقد قدر ثروة الجزار سنة ١٧٩٠، بناء على التقارير الواردة إليه من فلسطين بخمسين مليون (٥٠،٠٠٠،٠٠٠) قرش[٥].

---

(١) غيز – بيروت ولبنان، ج ٢، ص ١١١ ؛ عيساوي– التاريخ الاقتصادي، ص ٢٤-٢٦.

(٢) ليكي– تجارة المدن الساحلية، لبنان فى القرن الثامن عشر، ص ٤٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٥.

(٤) رافق– فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، مج ٢، ق ٢، ص ٨١٣.

(٥) Cohen, Palestine, P. 23.

الخاتمة

وصل أحمد باشا الجزار إلى المنطقة مغامراً غريباً عنها، وتمكن من الوصول إلى الحكم، كغيره من المماليك الذين اتيحت لهم الفرصة في ذلك.

مرت حياة الجزار بمراحل عدة، عملت على صقل شخصيته، من شاب يافع جاء ليعتاش، إلى حاكم باسم الدولة العثمانية، ذي جاه وسطوة.

كانت المخاطر تحف حياة الجزار منذ وصوله، وقد بدأت التجربة الفعلية له في مصر، التي استطاع من خلالها أن ينال لقب الجزار، بعد أن أصبح احد اطراف لعبة الصراع فيها. وما يعنينا من ذلك هو أن بعضاً من التكوينات السياسية لدى الجزار، قد تشكلت في مصر خلال هذه الفترة، أو خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فمن خلال الصراع الدموي الذي كان يشارك فيه أو يبيع جهده للمشتري خلاله، وطوال فترة امتدت حتى سنة ١٧٧٠م، درس الجزار أحوال مصر جيداً، وفهم أسرار اللعبة السياسية، وتمرس بقوانينها، وكان قريباً من مواقع صنع القرار السياسي، ولم يكن الذكاء ودقة التدبير والحذق ينقص الجزار على الاطلاق، لهذا فعندما اضطر للفرار من مصر على اثر خلافه مع مماليكها تركها وبحوزته رصيد طيب ووافر من المعلومات والخطط التي مكنته من الوصول إلى السلطة في بلاد الشام.

- استطاع الجزار فرض سلطته على ولاية صيدا سنة ١٧٧٦م، فعمل على مد نفوذه في المنطقة ، وكان ذلك انعكاساً للإنحطاط الذي اصاب الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، على الصعيدين الداخلي والخارجي، مما اتاح للجزار فرصة انشاء دولة مصغرة في بلاد الشام، داخل كيان الدولة العثمانية، بعد أن حكم ولاية الشام وحتى حكم مصر في أواخر حياته.

ومع كل المعطيات التي توفرت للجزار للاستقلال بمناطق حكمه إلا انه بقي يمارس سلطته من خلال الدولة العثمانية، وينفذ مطالبها قدر استطاعته، بعكس العصبيات والقوى المحلية والتي استبدت بالسلطة في مناطقها ودخلت في منازعات محلية مع جيرانها، فشملت بذلك رقعة حكم الجزار كل فلسطين تقريباً ومعظم اراضي لبنان حتى أصبح في النهاية يلقب بنائب السلطان في سوريا.

عندما تولى الجزار حكم ولاية صيدا وتوابعها، وجد بأن هذه المدينة لا تصلح بأن تكون مقراً ادارياً لحكمه، حيث كان مدركاً ما يصيب الولاة العثمانيين حين تشعر الدولة بالحاجة إلى التخلص منهم، لذلك اتجه إلى مدينة عكا التي كانت مركزاً تجارياً هاماً في جنوب غرب سوريا، وذلك بفضل الاهتمام الذي نالته من قبل الشيخ ظاهر العمر، فأصبحت عكا بذلك مركز السلطة في ولاية صيدا، في عهد الجزار، أي انه منذ بداية حكمه اختار المدينة القوية، بأسوارها، وابراجها وتحصيناتها وموقعها التجاري، لتكون مقراً لإدارة حكمة، وبالإضافة إلى أن المدينة

كانت حصينة قبل تسلمه إياها، فإنه زاد اهتمامه بها وعمل على تطويرها إلى أن نزع بعض المؤرخين إلى القول : " أن عكا اصبحت عاصمة فلسطين في القرن الثامن عشر ". وهذا بدوره أدى إلى التقليل من شأن صيدا ولم يبق لها إلا الاسم في المخاطبات والمعاملات الرسمية. ونظراً لتقدير الجزار للشيخ ظاهر العمر واقراره له بالفضل في تأسيس هذه المدينة القوية، فقد أقام له مقاماً بالقرب من البحر خارج الطرف الشمالي من سور عكا(١).

- اشتهر الجزار في التاريخ بصده للحملة الفرنسية عن عكا، فقد لعب دوراً مهماً وبارزاً في صد الحملة الفرنسية المتجهة نحو الشرق، حيث انه عندما توجه نابليون بونابرت إلى عكا لإحتلالها والانطلاق منها لإحتلال سوريا بأكملها، قام بنصب الحصار على المدينة واستعد لدخولها، لكنه تفاجأ بقوة الجزار وحصانة عكا، فأصيب بفشل ذريع امام اسوارها. وعاد ببقايا جيشه نحو مصر، وهذا بدوره عزز مكانة الجزار عند الدولة العثمانية، وبين القوى الاخرى المجاورة واكسبه القاباً كثيرة من السلطان " دستور مكرّم، مشير مفخّم، نظام العالم، مدبّر الجمهور بالفكر الثاقب، متمّم مهمات الأنام بالرأي الصائب، ممهّد بنيان الدولة والاقبال ... والي صيدا الحاج أحمد باشا الجزار ادام الله اجلاله " وجعل الدولة توجه له حكم مصر، ولكن الأجل وافاه قبل تسلمه منصبه الجديد.

- احدث الجزار تغييرات جذرية في النظام الاداري المتبع في مناطق حكمه، فقد ركز السلطة الادارية بين يديه من خلال الاشخاص الذين كان يعينهم في الجهاز الاداري الذي أنشأه. فخلف بذلك مراقبة مشددة مارسها على الولايات التابعة له عن طريق نظام اداري مركب شديد المركزية، يقوم على تقييم السلطة وربط الاقسام بشكل مباشر بالمركز، في حين تبقى علاقة هذه الاقسام فيما بينها، ضمن الولاية، علاقة تنسيق في اطار الاختصاص والصلاحيات المحددة لكل منها، فكان عهد الجزار خطوة في فرض السلطة العثمانية المباشرة إلى حد كبير.

- استقدم الجزار الجنود المرتزقة من مناطق شتى، وشكل منهم جيشا كبيرا، وظل يعمل جاهدا على زيادة قوته العسكرية بالعدد والعدة، التي كانت تنقص من فترة لأخرى، بسبب اخضاعه للمناطق التابعة لحكمه، وصده للحملة الفرنسية، وانشغاله في تعيين الحكام المحليين، وحفاظه على الأمن الداخلي كحماية القلاع والمدن الساحلية وغير ذلك الكثير من الأمور التي تتطلب وجود القوة العسكرية فيها.

ويؤخذ على الجزار مأخذا في هذه الناحية، وهو ثورة مماليكه ضده، والتي عزيت إلى بعده عن قيادة جيشه بشكل مباشر، وتركها لمماليكه، الأمر الذي أدى إلى طاعة الجند لسليمان باشا قائدهم الفعلي. ولكن الجزار اثبت بعد تشتيت المماليك الذين تجمعوا للإطاحة به أنه قائد

(١) الدباغ- بلادنا فلسطين، ج ٧، ق ٢، ص ٢٤٧.

عسكري فذ، ذو حنكة سياسية، منحته التجربة البأس الشديد والقدرة على ضبط الأمور، خاصة العسكرية منها.

- أنشأ الجزار، مؤسسة اقتصادية قوية، ارتبطت بنشاط دولي مكنته من ايجاد وتوفير القوة العسكرية، التي كان لها الفضل الكبير في تثبيت حكمه في المنطقة، فقد اصبحت القوى المتواجدة فيها تقدم له الولاء والطاعة وتدين له بالحكم المباشر دون الرجوع إلى الدولة العثمانية، كما اصبحت الدولة نفسها تأخذ بالحسبان قوة الجزار، سواء الاقتصادية او العسكرية. لذلك لم تتبع الدولة معه السياسة التي كانت تتبعها مع غيره من الولاة، خاصة اللذين سبقوه على حكم ولاية صيدا، وهي العزل المبكر الذي جعلهم يسعون إلى جمع أكبر قدر ممكن من الثروة، قبل أن تطالهم السياسة المعنية.

- أقام الجزار احتكاراً واسعاً على عدد كبير من فروع النشاط الاقتصادي. وهذا بدوره ادى إلى سيطرته على الاقتصاد الداخلي للبلاد، والحد من نشاط التجار الاوروبيين فيها، خاصة الفرنسيين منهم. ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد بين الجزار والفرنسيين، بل ذهبت إلى ابعد من ذلك حين قام الجزار بطردهم من مناطق حكمه، مما اضر بهم وقلل من نشاطهم التجاري وافاده هو، ورفع من شأن الاقتصاد المحلي.

ولم يكتف الجزار بايجاد مثل هذا النوع من الاقتصاد بل استغل الاراضي التابعة له وطبق عليها نظام الالتزام على نطاق واسع. وسعى ايضاً إلى الحصول على بعض المقاطعات من الدولة لتكون مالكانة له، وهذا بمجمله عمل على زيادة ثراء الجزار ومكنه من السيطرة على الامور الاقتصادية المالية في المنطقة.

- لم يهتم الجزار كثيراً بإنشاء الآثار التي تخلد اسمه، في المناطق التي خضعت لحكمه، لكنه بالوقت نفسه اهتم بحسين عكا من جميع النواحي، لذلك جاء اهتمامه بالناحية العمرانية فيها جزء من كل، واعظم ما خلده الجزار فيها وما زال باقياً يحمل اسمه هو المسجد الذي بناه سنة ١٧٨١م. والحق به مدرسة لها مكتبة عرفت بالأحمدية[١]. كما أن اهتمام الجزار بالتجارة والتجار ادى به إلى بناء خان لخدمة النشاط التجاري في ولايته، وقد بنى هذا الخان قرب ميناء مدينة عكا وعرف بخان الجزار، أو خان العمدان[٢].

- اصيب الجزار بمرض الاستسقاء وعانى منه لمدة عشرة اشهر وتوفي بعد ذلك في ٢٣- نيسان- ١٨٠٤م. وقد كتبت اشعار كثيرة في الجزار منها ما يرثيه ويمدحه ومنها ما يهجوه ويذمه، ولكن وكما اشرت بالمقدمة كانت المصادر التي تذم الجزار تتحدث بلسان واحد ومن

---

(١) الدباغ- بلادنا فلسطين، ج ٧، ق ٢، ص ٣٢١ ؛ Badiay, Travels of Ali Bey, P. 249
Makhouly, Guide to Acre, P. 75.

(٢) Conder and Others, The Survey of Western Palestine, P.166.

وجهة نظر واحدة بسبب غياب المصادر السنية عن ساحة التأريخ لشخص الجزار، ومن الأشعار التي قيلت في ذم الجزار وهجائه ما ورد في ديوان نقولا الترك على لسان الياس اده على النحو التالي :

وافى السرور وصـح ترجيح الأمل   بهلاك غـاشم لا يعـادله مثـل
عين المظـالم والمـآثم والردى   شر العـوالم أن تفكر او عمـل
احمـد ولكن ليس يحمد في الورى   ملعون في ثوب المساوىء قد رفل
جـزار لكن للفضـائل جـازرٌ   مهـدي ولكن بالرذائل قد حفـل[١]

وقال نقولا الترك يهجو الجزار ويذمه بعد وفاته :

يا آل بر الشام بشـراكم فقد   مات الذي انشا المظـالم وانتهك
الخـائن الغـدار سفاك الدما   من كان في قتل النفوس قد انهمك
لا يرحم الرحمن تلك الروح ما   دار المـدار وطالما دار الـفلك
انشدت مسرورا بتاريخ جـاء   هو ذلك الجـزار احمـد قد هلك[٢]

مثلما هجي الجزار من قبل الكثير من شعراء النصارى، فانه وجد من يرثيه ولكن بنسـبة قليلة تكاد لا تذكر، وإن صح القول فإن شاعرا واحدا مدح الجزار بعد مماته وهو المفتـي عبـد اللطيف فتح الله الذي كان يشغل مهنة الافتاء في بيروت وقال هذا بالجزار :

ليست الدنيا غير دار فنـاء   ليست فيها لحـادث من قرار
فدر رزئنا فيها بشمس محـال   لبست للزوال ثوب استتـار
ليث غاب للدين خير نصيـر   خير غـاز مجاهد الكفـار
الوزير الفخـيم خير مليـك   من تسمـى بأحمـد الجـزار
من له في الجهـاد صيت حميد   مثل شمس النهـار غب اشتهار
وحباه الاله منـه اقترابـا   وجوارا بالمصطفى المختـار
وقصورا من الجنـان فأرخ   حاز فيها ونـال خير جـوار[٣]

---

[١] الترك- ديوان المعلم نقولا الترك، ج ١، ص ١٧١-١٧٢.

[٢] المصدر نفسه، ج ص، ص ٤٣٠.

[٣] فتح الله- ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله، ج ١١، ص ٣٢٥-٣٢٦.

أحدثت وفاة الجزار فجوة بين صفوف جنده، فظهر بعض القادة العسكريين الذين يسعون لخلافته في الحكم فدب الفساد بين الجنود، مما أربك السلطات العثمانية، إلى أن تمكنت في النهاية من السيطرة على الموقف بتعيين سليمان باشا العادل، احد مماليك الجزار، خلفاً له في حكم ولاية صيدا.

*- المصادر

١- المصادر العربية.

أ - الوثائق والسجلات الشرعية.

- سجل محكمة القدس الشرعية، رقم ٢٦٧، شريط ٤٦ ورقم ٢٨٠، ٢٨٦، شريط ٤٧.
- سجل محكمة يافا الشرعية، رقم ٢، شريط ٤٣٠.
- سجل محكمة نابلس الشرعية، رقم ٦، شريط ٣٢٧.

ب- المصادر المخطوطة.

١- الصباغ، عبود (ب، ت)- الروض الزاهر في أخبار ظاهر، مكتبة الجامعة الأردنية، رقم ١٣٥٩ (صورة بالميكروفيلم)

ج- المصادر المطبوعة.

١- ابن الصديق، حسن (ت بعد ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م) - غرائب البدائع وعجائب الوقائع، ط ١، تحقيق يوسف نعيسه، دار المعرفة، دمشق، ١٩٨٨م.

٢- آغا العبد، حسن (توفي بعد ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م) - تاريخ حسن آغا العبد (قطعة من حوادث سنة ١١٨٦هـ إلى ١٢٤١هـ، تحقيق يوسف نعيسه، منشورات وزارة الثقافة الإرشاد القومي، بيروت، ١٩٧٩م.

٣- باز، رستم (ت ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) - مذكرات رستم باز، نشرها فؤاد البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٥م.

٤- بازيلي، قسطنطين، (ت ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م) - سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م.

٥- البديري الحلاق، أحمد (ت بعد ١١٧٥هـ/ ١٧٦١م) - حوادث دمشق اليومية ١١٥٤هـ/١٧٤١م- ١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م، ط ١، تنقيح محمد القاسمي وتحقيق أحمد عزت عبد الكريم، مطبعة لجنة البيان العربي، دمشق، ١٩٥٩-١٩٦٣م.

٦- بريك، ميخائيل (ب.ت) - تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢، تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبه، دمشق، ١٩٨٢م.

٧- الترك، نقولا (ت ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م) - ديوان المعلم نقولا الترك، ٢مج، نشره فؤاد البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠م.

٨- - حملة بونابرت إلى الشرق، ط ١، تحقيق أمل بشور، دار جروس برس، طرابلس، ١٩٩٣م.

٩- الجبرتي، عبد الرحمن (ت ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥) - تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ط ٣، ٣مج، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٨م.

١٠- جحاف، لطف الله بن حمد (ت ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م) - نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نشره سيد مصطفى سالم، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

١١- جودت، أحمد (ت ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م) - تاريخ جودت، ١مج، ترجمة عبد القادر الدنا، مطبعة جريدة بيروت، بيروت، ١٨٩٠م.

١٢- الحموي، ياقوت (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) - معجم البلدان، ٧مج، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠م.

١٣- الزياني، أبو القاسم أحمد بن علي (ت ١٥٤٩هـ/ ١٨٣٣م) - الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، تحقيق عبد الكريم الغلالي، مطبعة فضاله، (المحمدية، المغرب)، ١٩٦٧م.

١٤- الشدياق، طنوس (ت ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩م) - كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، ٢مج، تعليق فؤاد البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٧٠م.

١٥- الشهابي، حيدر (ت ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م) - لبنان في عهد الأمراء الشهابيين ٣مج، نشر وتعليق وفؤاد البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٩م.

١٦- - تاريخ أحمد باشا الجزار، نشره ووضع حواشيه أنطونيوس شبلي واغناطيوس عبده خليفة، مكتبة انطوان، بيروت، ١٩٥٤م.

١٧- العورة، ابراهيم (ت بعد ١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩م) - تاريخ ولاية سليمان باشا العادل نشر وتعليق الخوري قسطنطين المخلصي، مطبعة دير المخلص، صيدا، ١٩٣٦م.

١٨- فتح الله، محمد عبد اللطيف (ت ١٢٦١هـ/ ١٨٤٤م) - ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله، تحقيق زهير فتح الله ومراجعة محمد الحجيري، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٨٤م.

١٩- مجهول - تاريخ الأمراء الشهابيين بقلم احد أمرائهم من وادي التيم، تنقيح سليم هشي، منشورات المديرية العامة للآثار، لبنان، ١٩٧١م.

٢٠- المرادي، محمد خليل (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ٤مج، مكتبة المثنى، بغداد، ب.ت.

٢١- مشاقة ميخائيل، (ت ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م) - مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، دارسة وتحقيق سهيل ذكار، دار حسان للطباعة، بيروت، ١٩٨٢م.

٢٢- مشاقة، ميخائيل (ت ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م) - منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، تحقيق أسد رستم وصبحي ابو شقرة، منشورات وزارة التربية الوطنية، بيروت، ١٩٥٥م.

٢٣- المنير، حنانيا (ت ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠م) - الدر المرصوف في تاريخ الشوف، تعليل ونشر الأب اغناطيوس سركيس، منشورات جروس برس، طرابلس، ب. ت.

٢٤- نوفل، نعمة الله نوفل (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م) - كشف اللثام عن محيا الحكومة والحكام فى اقليمي مصر وبر الشام، اوجزه جرجي يني وحققه ميشال ابي الفضل، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٠م.

د- **المصادر المنشورة في الدوريات.**

١- بريك، ميخائيل (ب. ت) - تاريخ حوادث الشام ولبنان (١٧٨٢-١٨٤١)، المشرق، مج ١،٢، بيروت، ١٩١٢م.

٢- الدويهي، اسطفان (ت ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م) - تاريخ الازمنة ١٠٩٥-١٦٩٩ المشرق، مج ٤٤، بيروت، ١٩٥٠م.

٣- الركيني، حيدر رضا (ت ١١٩٨هـ/ ١٧٨٤م) - جبل عامل في قرن، العرفان، مج ٢٨،٢٩، صيدا، ١٩٣٧-١٩٣٩م.

٤- السبيتي، علي (ت ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م) - جبل عامل في قرنين، العرفان، مج ٥، ج ١، صيدا، ١٩١٣م.

٥- صدقة، الياس الطرابلسي (ت ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م) - نفح العنبر بتاريخ بربر، تاريخ العرب والعالم، مج ٣، ع ٢٥، دار النشر العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

٦- العينطوريني، الشماس انطونيوس (ب. ت) - مختصر تاريخ جبل لبنان، المشرق، مج ١، بيروت، ١٩٥٢م.

هـ- المصادر المعربة.

١- غيز، هنري- بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن، ط ٢، ٢ج، ترجمة مارون عبود، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٠م.

٢- إسماعيل، منير وعادل- تاريخ لبنان الحديث (الوثائق الدبلوماسية) ١٥مج، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٩٠م.

٣- - الصراع الدولي حول المشرق العربي(الوثائق الدبلوماسية)، ١٥مج، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٩٠م.

٢- المصادر الاجنبية.

1- Badiay, Lelich, D.
Travels of Ali Bey in Morocco, Tripoli, Cyprus, Egypt, Arabia, Syria and Turkey, Between the years, 1803-1807, Written by himself, 2 vol., Printed for Longman, London, 1970.

2- Barker, John.
Syria and Egypt Under The Last Five Sultans of Turkey, 2 vol., New York, 1970.

3- Burckhardt, J. L.
Travels in Syria and The Holy Land, Murray, London, 1822.

4- Ismail, Adel, Documents Diplomatique et Consulaires Relatif At, Histoire du liban, Editions des oeuvres politiques et Historiques, 12 vol., Beyrouth, 1975.

5- Shaw, Stanford, Ottoman Egypt in the eighteenth century : The Nizam nama Misir of Gezzar Ahmad Pasha, Mass Harvard, Cambridge, 1964.

6- Volney, M. C. F.
Travels Through Syria and Egypt : In the years 1783-1785, 2 Vol., G. G. J. and Robinson, London, 1972.

٣- المراجع الحديثة.

أ - باللغة العربية.

١ - أسعد منصور- تاريخ الناصرة، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٣م.

٢ - ألكس كرمل- تاريخ حيفا في عهد الأتراك العثمانيين، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.

٣ - أميل خوري وعادل إسماعيل- السياسة الدولية في الشرق العربي : من سنة ١٧٨٩-١٩٥٨م، ٤ ج، دار النشر للسياسة والتاريخ، بيروت، ١٩٥٩م.

٤ - أنيس فريحة- معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، ط ٤، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٦م.

٥ - ايرينا، نسكايا- البنى الاقتصادية والاجتماعية في المشرق العربي على مشارف العصر الحديث، ترجمة يوسف عطا الله، دار الفرابي، بيروت، ١٩٨٩م.

٦ - بسام العسلي- نابليون بونابرت، ١٧٦٨-١٨٢١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

٧ - البيطار، عبد الرزاق- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، ٢ ج، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١م.

٨ - التميمي، عبد الجليل- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، ط١، منشورات مركز البحوث والدراسات عن الولايات العربية في العهد العثماني، تونس، ١٩٨٤م.

٩ - توما، أميل- فلسطين في العهد العثماني، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، ب. ت.

١٠- جب وبوون، هاملتون وهارولد- المجتمع الإسلامي والغرب، ٢ ج، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م.

١١- جواد بولس- تاريخ لبنان، ترجمة جورج حاج، دار النهار، بيروت، ١٩٧٢م.

١٢- حتي، فيليب- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢ ج، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٩م.

١٣- - لبنان في التاريخ منذ اقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة انيس فريحة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت- نيويورك، ١٩٥٩.

١٤- حكمت ألبير حداد- لبنان الثورات الفلاحية، دار نظير عبود، بيروت، ١٩٩٤م.

١٥- خالد زيادة- اكتشاف التقدم الأوروبي : دراسة في المؤثرات الاوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، ط ١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

١٦- الخوري، اغناطيوس- مصطفى آغا بربر حاكم أيالة طرابلس وجبلة ولاذقية العرب (١٧٦٧-١٨٣٤)، ط ٢، دار الخليل، طرابلس، ١٩٨٥م.

١٧- الدباغ، مصطفى- بلادنا فلسطين، ١٠ج، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٤م.

١٨- الدبس، يوسف- تاريخ سوريا، ٨ج، ب. ن، بيروت ١٨٩٣-١٩٠٥م.

١٩- الدوري، عبد العزيز- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط ١، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٠- رأفت الشيخ- في تاريخ العرب الحديث، ط ٤، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٣م.
٢١- رافق، عبد الكريم- بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥م.
٢٢- - بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨م، ط ١، دمشق، ١٩٦٧م.
٢٣- - العرب والعثمانيون، ب. ن، دمشق، ١٩٩٣م.
٢٤- - فلسطين في العهد العثماني، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، الدراسات الخاصة، الدراسات التاريخية، ط ١، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٥- الريحاني، أمين- النكبات : خلاصة تاريخ سوريا منذ العهد الأول بعد الطوفان الى عهد الجمهورية بلبنان، ط ٢، مطابع صادر ريحاني، بيروت، ١٩٤٨م.
٢٦- سيار الجميل- تكوين العرب الحديث، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧م.
٢٧- الشطي، محمد جميل- أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف الرابع عشر، دار اليقظة العربية، دمشق، ١٩٤٦م.
٢٨- شوفالييه ، دومينيك -مجتمع جبل لبنان في عصر الثورة الصناعية في اوروبا، ط ١، ترجمة منى عبد الله عاقوري، دار النهار، بيروت، ١٩٩٤م.
٢٩- عبد العزيز سالم- دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، جامعة بيروت، بيروت، ١٩٧٠م.
٣٠- عبد العزيز نوار- وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث، دار الأحد، بيروت، ١٩٧٤م.
٣١- عبد الوهاب بكر- الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ط ١، دار العارف، القاهرة، ١٩٨٢م.
٣٢- علي الزين- للبحث عن تاريخنا، ط ١، ب. ن، ب. م، ١٩٧٣م.
٣٣- علي مروة- تاريخ جباع ماضيها وحاضرها، ط ١، الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٧م.

٣٤- عمر عبد العزيز- تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٢٣م.
٣٥- عمر عبد العزيز- محاضرات في تاريخ لبنان الحديث، مكتبة كريدية، بيروت، ١٩٨٥م.
٣٦- عوض، أحمد- فتح مصر الحديث، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٥م.
٣٧- عيساوي شارل- التاريخ الاقتصادي للهلال الخصيب، ١٨٠٠-١٩١٤م، ترجمة رؤوف عباس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠م.
٣٨- غرايبة، عبد الكريم- تاريخ العرب الحديث، ط ٢، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.
٣٩- الفقيه، محمد تقي- جبل عامل في التاريخ، ط ٢، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٠- فردريك، ج. بيك- تاريخ شرق الأردن وقبائلها، تعريب بهاء الدين طوقان، الدار العربية للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٣٥م.
٤١- كرد علي، محمد- خطط الشام، ط ٣، ٦ج، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.
٤٢- لوتسكي- تاريخ الاقطار العربية الحديث، ط ٧، ترجمة عفيفة البستاني، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م.
٤٣- لوكروى، ادوار- الجزار قاهر نابليون، ترجمة جورج مسرة، دار الثقافة، بيروت، ب. ت.
٤٤- ليلى الصباغ- الجاليات الأوروبية فى بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ط ١، ٢ج، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م.
٤٥- - المجتمع العربي السوري، في مطلع العهد العثماني، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٣م.
٤٦- مانتران، وآخرون- تاريخ الدولة العثمانية، ط ٢، ٢ج، ترجمة بشير السباعى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.
٤٧- رمضان، محمد رفعت- علي بك الكبير، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٥٠م.
٤٨- محمد فريد بك المحامي- تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط ٢، مطبعة التقدم، القاهرة، ١٩١٢م.
٤٩- مخول، ناجي حبيب- عكا وقراها منذ اقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر، ط ١، ٢ج، مكتبة الاسوار، عكا، ١٩٧٩م.

٥٠- المعلوف، عيسى اسكندر- دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، طبع بالمطبعة العثمانية، بعبدا، لبنان، ١٩٠٨م.

٥١- موفق بني المرجة- صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة، مؤسسة صقر الخليج للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤م.

٥٢- منير الخوري- صيدا عبر حقب التاريخ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٦٦م.

٥٣- النمر، احسان- تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ٣ج، مطبعة ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨م.

٥٤- هيرولد، كرستوفر- بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.

٥٥- وجيه كوثراني- السلطة والمجتمع والعمل السياسي في تاريخ الولاية العثمانية، بلاد الشام، ط ١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م.

٥٦- ياسين السويد- التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين، ٢ج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.

٥٧- يني، جرجي- تاريخ سوريا، المطبعة الادبية، بيروت، ١٩٨٨م.

ب - باللغة الانجليزية.

1- Cohen, Amnon.
Palestine in the 18th Century : Patterns of Government and Administration , The Magnes Press and Hebrew Univeersity ,

2- Conder, C. R. Lieut and Others.
The Survey of Western Palestine Memoires of Tpogrphy , Orography , Hydrogaphy and Archoeology, Galilee, 3 Vol., The Committee of the Palestine Exploration Fund, London, 1882.

3- Heyd, Uriel.
Ottoman Documents on Palestine. 1553-1615. The Clarendon Press, Oxford, 1960.

4- Holt, P. M.
Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 : Apolitical History, First published, Londmans, London, 1966.

5- Jalbert, Henri.
Beirut-Crossroads of cultures, The salwa, C. Nassar. Foundation for Lebanese studies, Beirut, 1970.

6- Makhouly, N. and C. N. Johns.
Guide to Acre, printed at the comercial press, Jerusalem, 1946.

7- Masson, Paul.
Histiore du Commerse Francais Dans le levant au Xviii Siecle, Burt Franklin, New Yourk, 1967.

8- Rafeq, Abdul-Karim.
The Province of Damascus 1723-173. Khayat, Birut, 1970.

9- Roux, Charles.
Les Echelles de Syria et de Palestine au Xviii, Librairie Orientaliste paul Geuthner, Paris, 1928.

10- Polk, William.
The Opening Southern Lebanon, 1788-1840. Astudy of the Impact of the west on the Middle East, Cambridge, 1963.

11- Tibawi, A. L.
A Modern History of Syria, Martin's press, London, 1969.

٤- الرسائل الجامعية.

أ - موسى أبو دية- عكا (١٧٥٠-١٨٠٤)، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦.

٥- بحوث منشورة في دوائر المعارف.

أ - دوائر المعارف العربية

١ - البستاني، بطرس- أحمد باشا الجزار، دائرة المعارف الاسلامية، ج ٦، بيروت، ١٩٥٦م.

٢ - هيئة الموسوعة الفلسطينية- أحمد باشا الجزار، الموسوعة الفلسطينية، ط ١، دمشق، ١٩٨٤م.

ب- دوائر المعارف الأجنبية

1- Huart, Djazzar- Pasha, E. I.

٦- الدوريات.

أ - الدوريات العربية.

١- أحمد رضا- بنو عاملة، العرفان، مج ٣١، ع ٥، صيدا، ١٩٤٥م.

٢- - المتاولة أو الشيعة في جبل عامل، المقتطف، مج ٣٦، القاهرة، ١٩١٠م.

٣- أنطوان المحامي- رواية جديدة عن حياة الجزار، أوراق لبنانيــة، ج ٤، ع ٢، بيروت، ١٩٥٦م.

٤ - رجائي الحسيني- ضريبة العشر المستبدلة في فلسطين، الكلية، مج ٦١، ج ١، بيروت، ١٩٣٠م.

٥ - سعاد سليم- دور الاديار في تنظيم عقود الشراكة وجباية الضريبــة فــي جبل لبنان، المشرق، مج٢، بيروت، ١٩٩١م.

٦ - سليمان، حسين- جذور التفكير بالحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، تاريخ العرب والعالم، مج٤، ع٥٤، بيروت، ١٩٨٢م.

٧ - - الحماية العثمانية للتجار الفرنسيين لبلاد الشام، تــاريخ العرب والعالم، مج ٦، ع ٦١، بيروت ١٩٨٣م.

٨- - قراءة في التاريخ السياسي للإمارة الشهابية فــي جبـل لبنان، ١٦٩٧-١٨٤١، تــاريخ العــرب والعــالم، مــج ٩، ع١٠١، بيروت، ١٩٨٧م.

٩- - مقاومة سياسة الجــزار التدميريــة (١٧٧٥-١٧٨٥)، تاريخ لعرب والعالم، مج ٦، ع ٥٥، بيروت، ١٩٨٣م.

١٠- - ولاية صيدا في العصــر العثمــاني (١٦١٤-١٨٠٤)، تاريخ العرب والعالم، مج ٢، ع ١٧، بيروت، ١٩٨٠م.

١١- شيخو لويس- بيروت في عهد الشهابيين إلى مــوت الجــزار،١٧١١-١٨٠٦، المشرق، مج ٢٤، بيروت، ١٩٢٦م.

١٢- علي الزين- جبل عامل في عهد الجزار، العرفان، مج ٦١، ع ٨، صيدا، ١٩٧٣م.

١٣- محمد الفاكياني- الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام، تاريخ العرب والعالم، مج ١، ع ٣٤، بيروت، ١٩٧٩م.

١٤- محمد نور الدين- الجزار والفرنســيون عــام ١٧٨٩، تــاريخ العــرب والعالم، مج ٥، ع ٤٢، بيروت، ١٩٨٢م.

١٥- يوسف يزبك- ابن العظم الذي قتله الجزار بالسم، أوراق لبنانيــة، ج ٣، ع ٢، بيروت، ١٩٥٦م.

أ - الدوريات الاجنبية.

1- Macalister, M. A.
Browns Travels in Palestine, 1797, P.E.F.Q.S, London, 1906.

2- **Watson, K. C. M. G.**
Bonapartes Expedition to Palestine in 1799, P.E.F.Q.S, London, 1917.

٦- وقائع المؤتمرات.

أ - اسامة شاهين- الاوضاع النقدية العثمانية والمقاطعات اللبنانية، المؤتمر الاول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية (لبنان في القرن الثامن عشر) الجامعة اللبنانية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩١م.

ب- بطرس لبكي- تجارة المدن الساحلية، المؤتمر الأول للجمعية اللبنانية للدراسات العثمانية (لبنان في القرن الثامن عشر) الجامعة اللبنانية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩١م.

ج- جان شرف- الأزمة الإقتصادية في أواخر القرن الثامن عشر (لبنان في القرن الثامن عشر) الجامعة اللبنانية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩١م.

د- ضحى الشطي- توسع البدو في بلاد الشام وانحسارهم، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ١٩١٦-١٩٣٦، ج ١، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٧٨م.

هـ- ناصر الدين السعيدوني- نظرة في اراضي الميري في بلاد الشام أثناء العهد العثماني، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، ١٩١٦-١٩٣٦، ج ١، جامعة دمشق، دمشق، ١٩٧٨م.



احمد باشا الجزار

عن :-
اسماعيل - الصراع الدولي (الوثائق الدبلوماسية)

دستور مكرم، مشير مفخم، نظام العالم، مدبّر الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهمات الانام [١١٢] بالراي الصايب، ممهد بنيان الدوله والاقبال، مشيد اركان السعاده والاجلال، المحفوف بصنوف عواطف (٤) الملك المتعال، والي صيدا الحاج احمد باشا الجزّار، أدام الله اجلالهُ.

نعرّفك بخصوص الكفره ملّة الفرنساويه اللئام، جعـل الله دايرة الأسواء عليهم ظلام. عام اول هجموا على اخذ مصر القاهره، والآن قد استغلسوا يافا، وغزّه والرمله، فلزم اننا بمشية الله تعالى باري البريّة، صمّمنا النيّه والتوفيقات الرياسيّة بقيام سعادة الدستور الوقور المحترم، صاحب الامر الاعظم، وزير مطلق، مشيد موفّق، مظهر الحق الأشرف الفاخر، وتاج الوزراء العظام، مالك زمام العالم، صاحب التدبير الحسَن، والمفوّض كافة تدابير المملكة العثمانيه الخاقانيّة الحـاج يوسف ضيا باشا المكرّم، أدام الله اجلالهُ وخلّد في السعادة اقبالهُ (٥). ولأجل ذلك

واصل دفتر ممهور بطلب زخيره (١)، فيلزم ارسالها على اوفق حال واسرع مجال، من دون امهال وانكال.

ثمّ وعند وصول أمر سعادته اليك، يجب ان تباشر في القيـام، الى مواشكة الفرنساويه (٢)، والى [١١٣] غزوهم وتدميرهم (٣)، والتذخير بوجه السرعة مصحوباً بالعسكر الغزير، والجمع الغفير (٤)، من دون تأخير. عرّفناك ذلك، فاعتمدهُ غايه الاعتماد، والسلام.

فرمان الدوله للجزار تأمره بمحاربه الفرنسيين

الشهابي - تاريخ الجزار -

[illegible] تاريخه وقد علمنا [illegible]

بعد السلام التام نبدي الاعزاز والاكرام والسؤال عن خاطركم المنهي اليكم انه يوم

شريفه سلطانيه من الدولة العليه والسدة الخاقانيه ومضمونها السامي انه نهار الجمعه في سنه وخمس حاله

من [illegible] ذي القعدة الحرام سنه تاريخه انعم علينا حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن ايالة [illegible]

واسكندرية [illegible] ودمياط وسائر الاقليم المصري الحاقا الى ايالة الشام وصيدا وطرابلس [illegible]

اخبار [illegible] تكونوا [illegible] بهذه البشارة ونبادر بالدعا الخيري بدوام عمره ودولة [illegible]

مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن والله تعالى عفور نفير على عباده وانت [illegible] الله تعالى ما [illegible]

منا الاسباب [illegible] ونعرفكم فبناء على ذلك اصدرنا اليكم بشوشنا هذا من ديوان الشام [illegible]

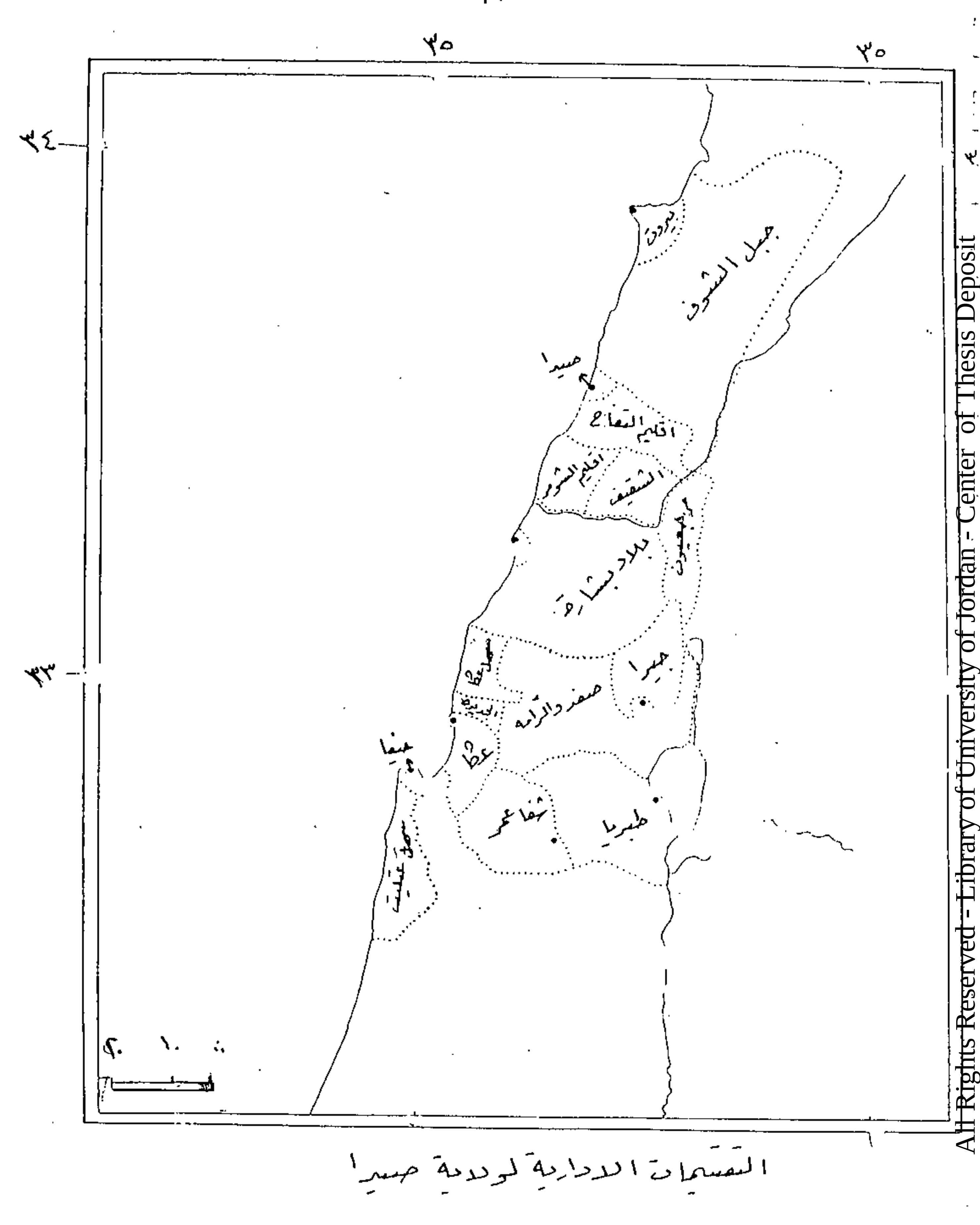
القاهره وصيدا وطرابلس [illegible] بوصوله تعلموا [illegible] اعلموا واعتمدوه [illegible] الاعتماد [illegible]

١٢١٨

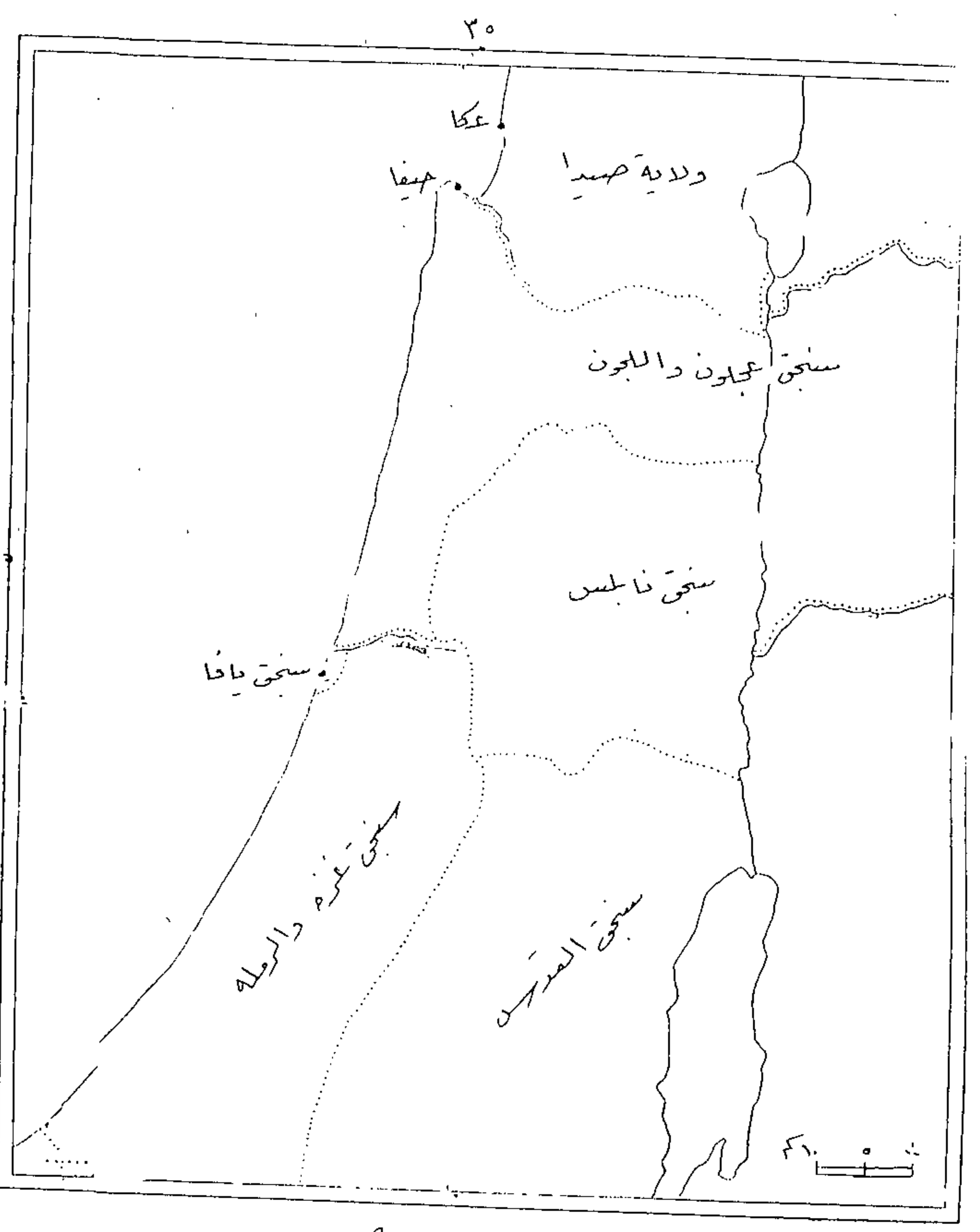
١٧

تولي الجزار مصر وسر عسكر الحجاز

من سجلات محكمة نابلس



التقسيمات الادارية لولاية صيدا



السناجق الجنوبية لولاية دمشق

Abstract

Ahmed Pasha Al-Jazzar
The Wali (Ruler) of Sidon (1776-1804)

Prepared by:

Saleh Ali Al-Shora

Supervised by:

Prof. Dr. Ali Mahaftheh

Many times, the history of a people might be well connected with a certain individual. This connection happens to occur as result of the significant importance of that person as well as his active role in crystallizing the events, and his direct influence in the various aspects of the life of that people. Considering the history of Greater Syria (Belad Al Sham), particularly, the southwestern part of it during the second half of the eighteenth century, we shall see that the political events were centralized over the personality of Al-Jazzar. This is because of his magnificent role in imposing his regime over the neighboring forces and struggling sects within the entity of the Ottoman State in the area of Belad Al-Sham, which as a sequence, elicited the anger of the super powers, especially France, and eventually, the military defeat of the latter before the walls of Akka. Thus, this research was conducted to investigate the personality of Al-Jazzar and get close knowledge about the different aspects of him.

On my way to achieve this, I divided my research into an introduction, which included an analytic study of some of the resources and references which I sought their help in my research. Thereafter, come five chapters and a conclusion.

The first chapter dealt with the rising of Al-Jazzar, his life, and the conditions that led him to the regime in Sidon District. For that purpose, I described the overall surrounding conditions of the Ottoman State before the appearance of Al-Jazzar. I, also, gave mention to Sidon District and the political forces that existed there. Then, I discussed the stages he passed through before he ultimately took office of this district.

In the second chapter, I discussed Al-Jazzar policy in ruling the district and his relation with the Ottoman State as well as the other

neighboring forces. I, also, referred to the general policy of Al-Jazzar, his relation with the state and the rulers of Egypt, and the revolt of his Mamaleek against him. Thence, the discussion shifts to the relation of Al-Jazzar with the influential forces in the whole region.

The third chapter is dedicated for reviewing the Napoleon campaign against Akka and the role of Al-Jazzar in deterring this campaign. Thus, I reviewed the origins and roots of the very thinking in the French campaign, its purposes, launching, organization, and the failure thereof in front of the walls of Akka and Al-Jazzar forces.

The fourth chapter is devoted to examine the administrative and military organization during the epoch of Al-Jazzar. Accordingly, I reviewed the administrative organization of Sidon District and its areas of dependence, Damascus District and its areas of dependence. Within this review, came also a review of the administrative system of Al-Jazzar. Thereafter, I examined the military organization including the basic elements of Al-Jazzar strength, the personality and rankings of these forces, as well as giving an organizational picture of Al-Jazzar army.

The fifth chapter dealt with the economical policy of Al-Jazzar. In this context, I investigated the economical development of the Syrian cities during the era of Al-Jazzar regime as well as his financial policy. Agriculture in this era was also discussed in this chapter. Then the discussion tackled the trade, especially trade of the French people with the parts that were under the rule of Al-Jazzar regime.

The research concluded with the most important findings that were reached. In addition, a reference to the architecture works was made in this chapter as well as to the end of Al-Jazzar.